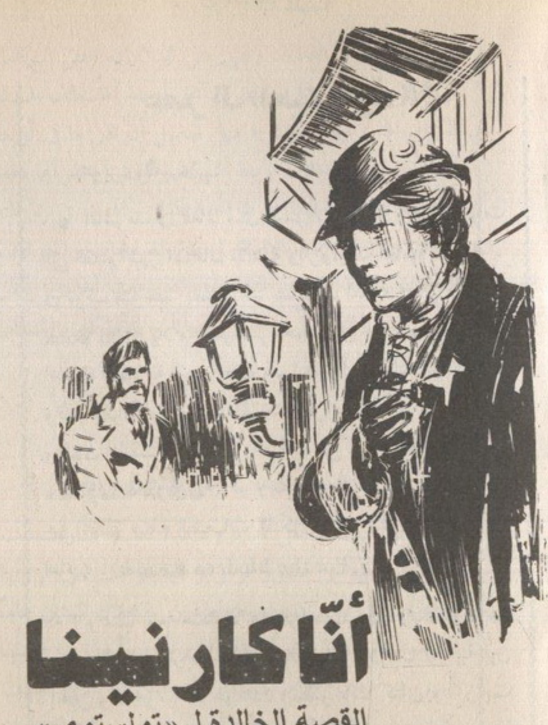

كتابى
أنّا كارنينا
القصة ال... لـ«تولستوى»
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ترجمة: حلمى مراد



أنّا كارنينا

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

عصر الـ «مينى بوك» !

عزيزى القارئ ..

● انتشرت فى العالم ، فى السنوات الأخيرة ، الطبعات التى تقدم أشهر الأعمال الأدبية والروايات العالمية الطويلة ، فى ثوب متوسط الطول قد يصح أن نسميه «مينى بوك» Mini Book يلائم عصر السرعة ، وضيق الوقت ومشغوليات الحياة العصرية التى زحف فيها «غول» التليفزيون فالتهم وقت القراء ، ولم يترك لهم منه للقراءة إلا أقل القليل ! .. ولذلك أطلقت دور النشر العالمية على هذه الطبعات إنها «للقارئ العصرى» ، أو (بالتعبير الإنجليزى الذى تواتر على أغلفة هذه الطبعات المتكاثرة التى تبلغ الآلاف كل عام) : For the Modern Reader

وتمشياً مع هذا الاتجاه الزاحف — ودون عدول عن مواصلة نشر الترجمة «الأمينة الكاملة» للأعمال الأدبية بين الحين والآخر ، كما عودتك «مطبوعات كتابى» — رأيت أن أقدم لك فى هذا العدد نموذجاً عملياً لـ «عينة» من هذا الاتجاه الجديد ، آملا أن توافينى برأيك فيه بمجرد «الانتهاء»

من قراءة هذا العدد . وغنى عن البيان أن النص الكامل لرواية «أنا كارنينا» يستغرق نحو أربعة أضعاف هذا الكتاب الذى بين يديك ، فهل تفضل أن تقرأها فى أربعة أجزاء ، تصدر خلال أربعة أشهر متوالية ، أم تقرأها دفعة واحدة فى هذا الكتاب الواحد الذى راعيت فى ترجمته التوفيق بين الترجمة الكاملة لبعض الصفحات والمواقف التحليلية الهامة ، وبين التلخيص لصفحات أخرى يكثر فيها الوصف التفصيلى — الممل أحياناً — للأماكن والمناظر والأشخاص والأزياء ... إلخ ؟

هذا ما أرجو أن توافينى برأيك الصريح فيه ، دون إبطاء .

١٣ فيلماً عالمياً ، عن هذه الرواية !

● وقد حرصت على أن أزود هذه الطبعة بما استطعت الحصول عليه من صور فوتوغرافية لمواقف من الرواية أجاد تمثيلها أعظم ممثلى السينما العالميين ، خلال الستين عاماً الماضية ، فقد لا تعلم أن هذه الرواية قد أحرزت قصب السبق فى عدد الأفلام السينمائية التى صورتها — فى مختلف بلاد العالم — منذ اختراع السينما حتى اليوم ، حتى لقد بلغ عدد هذه الأفلام ١٣ فيلماً ، هى على الترتيب :

فيلم أنتجته ألمانيا ، عام ١٩١٠ ، ثم آخر أنتجته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٥ ، وثالث أنتجته إيطاليا ، عام ١٩١٧ .. ثم ألمانيا مرة أخرى (١٩١٩) .. فالمجر (١٩٢٠) .. فأمريكا مرة ثانية (١٩٢٧) ، فثالثة عام (١٩٣٥) ، وقد مثلت الفيلم الأخير النجمة السويدية جريتا جاربو فى دور « أنا » ، و « فريدريك مارش » فى دور « فرونسكى » ، و « بازيل راثبون » فى دور « أليكسى »

ثم أنتجت بريطانيا فيلماً ثامناً فى عام ١٩٤٨ ، مثلت فيه دور « أنا كارنينا » النجمة الراحلة « فيفيان لى » (بطلة « ذهب مع الريح » و « جسر واترلو ») . وفى عام ١٩٥٢ أنتجت الهند فيلماً تاسعاً عن هذه الرواية ، ثم تلاها الاتحاد السوفيتى بفيلم عاشر فى عام ١٩٥٣ (مثلت بطولته النجمة « ألا تاراسوفا ») . ثم الأرجنتين عام ١٩٥٦ . وفى عام ١٩٦١ أخرجت مصر قصة أنا كارنينا فى فيلم بعنوان « نهر الحب » ، مثلته « فاتن حمامة » و « عمر الشريف » . وأخيراً أنتج الاتحاد السوفيتى الفيلم الثالث عشر ، بالألوان ، عن هذه الرواية الخالدة ، عام ١٩٦٧ .

أنا الحقيقية ، التى أوحت بفكرة هذه الرواية !

● وقد استغرقت كتابة « أنا كارنينا » من مؤلفها تولستوى نحو خمس سنوات ، فقد بدأها فى ربيع عام ١٨٧٣ ، وأتمها ونشرت فى أكتوبر عام ١٨٧٧ . وأمامى كتاب حديث ممتع ، تروى فيه زوجة تولستوى بعض ذكرياتها عن هذه الرواية وظروف تأليفها ، والملابسات التى أوحت ببعض مواقفها ، أجتزئ لك منه هذه الفقرة عن سر تسمية بطلة القصة باسم « أنا » ، والحادث الذى أوحى لتولستوى بفكرة نهايتها :

« كان لنا جار ، فى نحو الخمسين ، يدعى « ا . ن . بيبيكوف » ، لم يكن على قدر كبير من الثراء أو التعليم . وكانت زوجته قد توفيت ، فاستدعى قريبة لها غير متزوجة ، فى نحو الخامسة والثلاثين ، لتدير شئون منزله وتشرف على تربية ابنه .. ولم يلبث أن اتخذها خليلة له . وذات يوم أحضر بيبيكوف فتاة ألمانية حسناء لتكون معلمة لابنه وابنة أخته ، فلم يلبث أن أحبها ، وعرض عليها الزواج .. فلما اقترب موعد الزواج ، خرجت خليلته — وكان اسمها « أنا ستيبانوفنا » — من المنزل بدعوى زيارة أمها فى بلدة (تولا) ، حاملة معها حزمة صغيرة بها بعض

ثيابها ، فتوجهت إلى محطة سكة حديد (ياسنكى) القريبة ، وهناك ألقت بنفسها تحت عجلات قطار بضاعة ، أثنـاء مروره . وقد أتيح لابو – (تولستوى) – أن يراها عقب الحادث ، رأسها المهشم ، وجسدها المبتور العارى ، فى مشرحة ثكنات (ياسنكى) .. فهزه الحادث هزة عنيفة ، إذ كان يعرف « أنا ستيبانوفنا » من قبل ، بقامتها الطويلة ، وجسدها الممتلىء ، ووجهها الأسمر ذى الملامح الروسية ، وعينيها الغبراوين .. ورغم أنها لم تكن بارعة الجمال ، فقد كانت على قدر كبير من الجاذبية .. » .

والآن ، يا عزيزى القارئ ، أتركك لتستمتع بصحبة أبطال هذه الرواية ، وعلى رأسهم البطلة ذات الشخصية الخالدة : « أنا كارنينا » !

حلمى مراد

الفصل الأول

- ١ -

● العائلات السعيدة كلها تتشابه أسباب سعادتها .. أما العائلات التعيسة فإن لتعاسة كل منها سبباً خاصاً يختلف عن أسباب تعاسة غيرها !

وقد كان كل شىء مضطرباً فى أسرة « أوبلونسكى » : فالزوجة اكتشفت أن زوجها على صلة آثمة بفتاة فرنسية كانت تعمل مربية لدى الأسرة ، وقد صارحته الزوجة بهذا النبأ وأنذرته بأنها لن تستطيع الاستمرار فى العيش معه تحت سقف واحد ! .. وهكذا تحرج الموقف بينهما ، واستمر كذلك ثلاثة أيام ، أدرك خلالها كل من فى المنزل من أفراد الأسرة ، والخدم ، استحالة استمرار الحال على ذلك المنوال : كانت الزوجة معتصمة فى مخدعها لا تبرحه .. بينما الزوج لم يعد يأوى إلى المخدع منذ بدأت الأزمة .. وانتهز الأطفال هذه الفرصة فأخذوا يعيثون فى البيت فساداً !.. وضاقت بهم المربية الإنجليزية الحالية ، وتشاجرت مع أمينة شئون الدار غير مرة ، فكتبت إلى صديقة لها تسألها أن تبحث لها عن عمل آخر !.. ولم يطق الطاهى صبراً فترك عمله فى البيت فجأة ظهر اليوم السابق ، بلا إنذار !.. والخادمة التى تعمل

مساعدة له أنذرت هى الأخرى باعتزامها ترك الخدمة ، وكذلك فعل الحوذى !

وفى اليوم الثالث بعد وقوع النزاع ، استيقظ الزوج (الأمير « ستيفان أركاديفتش أوبلونسكى » ، أو « ستيفا » كما يدعونه فى الأوساط الرفيعة) فى الساعة الثامنة صباحاً ، كما ألف أن يستيقظ كل يوم ، ولكنه لم يكن نائماً فى مخدعه ، بل كان ممدداً فوق كنبة من الجلد فى حجرة مكتبه !.. ولم يحاول النهوض ، أول الأمر ، بل انقلب بجسمه البدين على جنبه الآخر ، ثم دفن وجهه تحت الوسادة ، متأهباً لاستئناف النوم .. على أنه لم يلبث أن نهض فجأة ، واستوى جالساً ، ثم راح يحاول أن يتذكر الحلم الذى رآه فى نومه !

ولمعت عينا « ستيفان » وابتسم جذلا ، وهو يفكر فى الحلم الذى رآه .. ثم دلى قدميه من فوق الكنبة إلى الأرض ، وأخذ يبحث بهما عن خفيه اللذين أهدته إياهما زوجته يوم عيد ميلاده الأخير ، وقد صنعتهما له بنفسها من الجلد ذى اللون الذهبى . ثم مد يده وهو جالس — كما اعتاد أن يفعل طيلة الأعوام التسعة الماضية كلما استيقظ — ليتناول رداء الغرفة «الروب دى شامبر» ، لكنه سرعان ما تذكر أنه قضى ليلته فى غرفة مكتبه لا فى مخدع زوجته — حيث يعلق ذلك الرداء فى متناول يده — فعقد حاجبيه مغمغماً : « إنها لن تصفح عنى .. إن الذنب كله ذنبى أنا ! » .

كان قد عاد من المسرح فى تلك الليلة بادى الانشراح والسعادة ،

يحمل فى يده ثمرة « كمثرى » ضخمة لزوجته ، لكنه لم يجدها حيث ألف أن يجدها فى حجرة التدخين ، ولم يجدها أيضاً فى غرفة المكتب .. وأخيراً وجدها فى مخدعها ، وفى يدها الخطاب التعس الذى أوضح لها كل شىء !.. وكانت جالسة بلا حراك تنظر إليه نظرة رعب ويأس وحنق ، ثم تنقل بصرها إلى الخطاب الذى فضح لها خيانته !.. وأخيراً وجدت صوتها لتسأله ، وهى تشير إلى الرسالة : « ما معنى هذا ؟ أجب ! » .

وبدلا من أن يؤلمه الاتهام فينكر ، أو يدافع عن نفسه ، ارتسمت على وجهه ابتسامته المألوفة المرحة .. الحمقاء فى مقام مثل هذا !

كان ستيفان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، يكبر زوجته بحوالى عام ، وقد أنجبت له خلال الأعوام التسعة لزواجهما سبعة أولاد ، توفى منهم اثنان . وقد كان صادقاً فى صلته بنفسه ، عاجزاً عن خداع هذه النفس وإيهامها بأنه آسف على مسلكه .. بل إنه حتى فى هذه اللحظة لم يستطع أن يحس أسفاً أو ندماً على أنه « لا يحب » زوجته !.. ومضى ستيفان يغمغم ، محدثاً نفسه : « أوه ، هذا فظيع .. فظيع !.. ما العمل ؟. لقد كانت الأمور تسير فى البيت حتى الآن على خير ما يرام : كانت هى قانعة وسعيدة بأولادها ، ولم أتدخل أنا فى شىء من أمور البيت والأطفال . صحيح أنه لم يكن يليق أن تكون زوجتى بمثابة

« المربية » فى بيتنا ، كما لم يكن يليق أن يغازل المرء مربيته ، ولكن .. يا لها من مربية فاتنة ! » .

ونهض « ستيفان أوبلونسكى » على أثر ذلك ، وارتدى رداء رمادياً للغرفة ، تتخلله خيوط من الحرير الأزرق ، وعقد الحزام جيداً .. ثم جذب نفساً عميقاً من الهواء إلى صدره العريض العارى ، ومشى إلى النافذة بخطوته الواثقة المألوفة ، ورفع السجف المسدلة فوقها بواسطة الحبل المثبت فى إطارها ، ثم دق الجرس .. فجاءه خادمه الوفى القديم « ماتفى » يحمل بذلته وحذاءه ، وبرقية له . ومن ورائه حلاق يحمل كل الأدوات اللازمة لمهمته ..

وسأل ستيفان خادمه ، وهو يتناول البرقية ويجلس إلى المرآة : « هل هناك أوراق أرسلت من المكتب ؟ » ، فأجاب « ماتفى » وهو يرمق سيده بنظرة عطف وتساؤل : « إنها فوق المنضدة » . وما كاد ستيفان يقرأ البرقية حتى هتف قائلا : « ماتفى ... سوف تكون أختى (أنا) هنا غداً ! » .. فقال ماتفى : « شكراً لله ! » . وكأنما أراد بهذا الجواب أن يفهم سيده أنه مثله يدرك مغزى هذه الزيارة ، وما تمهد له من سعى فى سبيل الصلح مع زوجته !.. ثم سأل ماتفى سيده بعد قليل : « هل تحضر وحدها ، أم مع زوجها ؟ » .. ولم يستطع ستيفان أن يجيب ، فقد كان الحلاق يمر بموساه على شفته العليا ، فاكتفى بأن رفع سبابته ، إشارة إلى أنها قادمة بمفردها !

- ٢ -

● كان « ستيفان أوبلونسكى » رجلا مسالماً ، على صلة طيبة بجميع معارفه ، يناديهم بأسمائهم الأولى مجردة ، فى غير كلفة ، سواء فى ذلك أبناء الستين ، وأبناء العشرين ... الممثلون ، والوزراء ، والقساوسة ، والتجار ، وكبار الضباط ... وكان صديقاً حميماً لكل من شرب معه كأساً من الشمبانيا — وكان يشرب كأس شمبانيا مع أى إنسان ! — وحين كانت الظروف تسوق إليه فى مكتبه ، وأمام مرؤوسيه ، واحداً من أصحابه سيئ السمعة — كما اعتاد أن يصف بعضهم مازحاً — كان يعرف كيف يتفادى حرج الموقف بلباقته المعهودة .

ولم يكن « كونستانتين ليفين » رجلا سيئ السمعة ، ولكن أوبلونسكى شعر بإحساسه المرهف أن ليفين هذا يتصور أنه يؤثر عدم إظهار صلته الوثقى به أمام مرؤوسيه ، ومن ثم لم يكد « ليفين » يدخل عليه فى مكتبه ، فى ذلك النهار ، حتى سارع إلى أخذه إلى غرفته الخاصة ، حتى قبل أن يتبادلا التحية !.. وكان ليفين فى مثل عمر أوبلونسكى ، ولم تكن صلتهما الودية قائمة على الشمبانيا وحدها ، فهناك أيضاً زمالتهما القديمة فى مستهل شبابهما . وقد شغف كل منهما بالآخر برغم اختلاف شخصيتهما وميولهما ، كما هو شأن الزملاء القدامى دائماً . ومع هذا كان كل منهما فى قرارة نفسه يحتقر مهنة صاحبه ، وإن أطراها أمام الناس ، ولعل هذا

شأن كل زميلين يختاران مهنتين مختلفتين ، إذ يظن كل منهما أن طريق الحياة الذى اختطه لنفسه هو وحده الطريق الأقوم والأجدر بأن يسلكه الرجل الطموح !

ولم يكد ستيفان يخلو إلى صديقه ، حتى ابتدره قائلا : « إنه ليسرنى أن أراك !.. كيف أنت ؟.. ومتى جئت ؟ » .. فاقتضب ليفين الإجابة عن هذه الأسئلة ، ثم أردف قائلا : « أريد أن أحدثك فى أمر ! » .. فقال ستيفان : « حسناً ، فلنتناول الغداء معاً ثم نثرثر كما تشاء ! » .. فأومأ ليفين موافقاً وقال له جاداً : « لا بأس ، على أن عندى سؤالا عاجلا أحب أن أعرف جوابه الآن ! » .. فتكلف ستيفان هيئة الجاد وقال : « إذن ، هات ما عندك أيها العزيز .. » ، وصمت ليفين هنيهة ، مغالباً حياءه الفطرى ، ثم قال لصديقه :

— كيف حال آل « شرباتسكى » ؟

ولم يكن ستيفان يجهل أن ليفين يحب « كيتى » — شقيقة زوجته « دوللى » — فأجابه وقد ارتسمت على فمه ابتسامة خفيفة ، ولمعت عيناه مرحاً : « هذا سؤال يحتاج للإجابة عنه إلى وقت أطول .. » ، فقال ليفين وقد كست حمرة الخجل وجهه حتى أطراف أذنيه : « حسناً ، فلنؤجل الحديث فى هذا الشأن إلى فرصة أخرى ! » .. وعند هذا أدركه ستيفان مشفقاً وقال له : « كنت أحب أن أدعوك إلى بيتى ، لولا أن زوجتى (دوللى) ليست على

ما يرام .. ولكن ، اسمع : إذا أردت أن تراهم فمن المؤكد أنهم سيكونون فى حديقة الحيوان بين الساعة الرابعة والخامسة ، ففى هذا الوقت تمارس (كيتى) رياضة الانزلاق .. وسوف أمر عليك هناك كى نذهب بعد ذلك فنتعشى فى أى مكان تختار .. » .

وأومأ ليفين برأسه موافقاً ، ثم نهض لينصرف ..

وكانت أسرتا « ليفين » و « شرباتسكى » من الأسر النبيلة القديمة فى موسكو ، وقد ارتبطت الأسرتان من قديم برباط الصداقة والود ، ثم زاد فى توطد هذه الصلة أن جمعت الزمالة فى المدرسة بين ليفين والأمير شرباتسكى (شقيق كلا من « كيتى » و « دوللى » ، زوجة « ستيفان ») ، وكثر تردد الأول على منزل الثانى ، وصار صديقاً حميماً لأفراد أسرته جميعاً ، ولا سيما النساء منهم ! .. كانت أمه قد ماتت منذ زمن بعيد ، تاركة إياه وأخته التى تكبره بأعوام .. ومن ثم كان بيت « شرباتسكى » أول مكان رأى فيه الحياة المنزلية لأسرة عريقة نبيلة مثقفة شريفة — الأمر الذى حرم هو منه بوفاة أبويه ! — فألف أن يرى فتيات الأسرة الثلاث : دوللى ، وناتاليا ، وكيتى ، ويسمعهن يتكلمن الفرنسية آناً ، والإنجليزية آنا .. أو يعزفن على البيانو .. وكثيراً ما شغلت هذه الأنغام سمع ليفين وقلبه وعقله ، حين كانت تصل إليه فى غرفة الأمير (شقيق الفتيات الثلاث) ، وهو يستذكر معه دروسهما .. وصار يلمح أساتذة الأدب الفرنسى ، والموسيقى ،

والرسم ، والرقص ، يترددون على منزل الأسرة واحداً بعد الآخر . وفى ساعة معينة من كل يوم كانت الفتيات الثلاث يخرجن مع مربيتهن الآنسة لينون ، فتمضى بهم العربة إلى شارع (تفرسكى) ، وقد ارتدت دوللى معطفاً طويلا ، وارتدت ناتاليا معطفاً متوسط الطول ، أما كيتى فكان معطفها قصيراً بحيث تبين تحته ساقاها الجميلتان . المغلفتان بجوربيها الأحمرين الضيقين !.. وفى شارع تفرسكى كن يترجلن ليسرن على أقدامهن ، فى حراسة خادم خاص يضع فى قبعته شارة مذهبة !.. هذا كله وغيره مما كان يحدث فى عالمهن الغامض ، كان ليفين يراه فيعجب به ، ويحب فيه غموضه ذاته !

وأحب ليفين « دوللى » كبرى الفتيات الثلاث ، لكنها ما لبثت أن تزوجت من زميله وصديقه الآخر « ستيفان أوبلونسكى » ، فلم يعبأ ليفين بالأمر كثيراً ، وبدأ يحب شقيقتها ناتاليا !.. لقد أحس أنه لا يستطيع إلا أن يحب واحدة من أولئك الأخوات ، وإن عجز عن تحديد تلك الواحدة بالذات !

لكن ناتاليا لم تكد تظهر فى المجتمعات — بعد أن شبت عن الطوق — حتى زوجت من الدبلوماسى « لفوف » !

وكانت الثالثة « كيتى » ما تزال طفلة حين غادر « ليفين » الجامعة .. ثم التحق شقيقها — صديقه « تشرباتسكى » — بالأسطول ، وغرق فى البلطيق ، ففترت صلة ليفين بالأسرة ..

ولكنه حين جاء لزيارة ستيفان أوبلونسكى فى موسكو عند بداية الشتاء ، بعد غيبته نحو عام فى الريف ، رأى آل تشرباتسكى ، وأدرك — منذ وقعت عينه على كيتى — أى الأخوات الثلاث خليق به أن يتدله فى حبها !

ولم يكن ثمة ما هو أبسط وأيسر على من كان مثله — عراقة حسب ، وثراء ، وشباباً — من أن يتقدم طالباً يد الأميرة الصغيرة للزواج . وكان المرجح أنه لو فعل لقوبل بالترحاب ، باعتبار أنه « صفقة » رابحة !.. ولكن ليفين كان عاشقاً ، ومن ثم بدت له كيتى من الكمال والروعة بحيث تفوق وتسمو على كل مخلوقة أرضية !.. فى الوقت الذى بدا هو — فى عينى نفسه — على درجة من الضعة وتفاهة الشأن لم يكن يعقل معها أن يراه الناس ، أو تراه هى ، جديراً بها !

وقضى صاحبنا فى موسكو شهرين ، فى حال من النشوة والحبور تجل عن الوصف ، كان خلالها يرى كيتى فى أكثر الأيام ، سواء فى بيت الأسرة ، أو فى المجتمعات التى كان يحرص على غشيانها لأنها هى أيضاً تغشاها .. لكنه فى النهاية قرر فجأة أن يهجر موسكو ويعود إلى الريف ، اقتناعاً منه بأن كيتى لا يمكن أن تحبه ، وأنه فى أعين أسرتها لا يعد شيئاً مذكوراً ، ولا يليق زوجاً لأميرة رائعة مثلها ، ولا سيما أنه ليست له مهنة من المهن المحترمة المعترف بها ، ولا هو يشغل مركزاً مرموقاً فى المجتمع !..

إنه ليس أكثر من ريفى يشتغل بتربية الماشية ، وبناء المخازن وشون الغلال ، ويقضى وقته فى ألعاب الرماية .. أو بعبارة أخرى هو رجل ليست له كفاءة خاصة ، ولم يثبت أن له موهبة خارقة .. فى أى شىء ! .. إن كيتى الغامضة الساحرة لا يمكن أن تحب رجلا قبيح الخلقة مثله ، تافه الشخصية ، عادياً ، كما يعد هو نفسه .. هذا إلى أن مسلكه نحوها فى الماضى – مسلك الرجل الناجح ، نحو الطفلة التى لم تشب عن الطوق بعد – بدا له بمثابة عقبة أخرى تعترض حبهما . إن مثله يمكن أن تعجب الفتاة به كصديق ، ويكون موضع ود خالص ، أما أن يكون هدفاً لحب عارم مثل حبه هو لـ « كيتى » ، فذلك أمر بعيد المنال ، ولا يمكن أن يحظى به غير فتى وسيم ، ممتاز ! .. صحيح أنه سمع عن نساء كثيرات أحببن رجالا تافهين قبيحى الخلقة ، لكنه لم يصدق ذلك. فهو لا يصدق إلا ما توحى به إليه نفسه !

لكنه بعد أن قضى شهرين فى الريف بمفرده ، أيقن أن حبه لكيتى ليس من قبيل المغامرات العارضة التى جربها فى شبابه الباكر ، وأنه لا يستطيع أن ينعم بلحظة واحدة من الراحة وسكينة النفس ، بعيداً عنها ! .. بل لا يستطيع أن يمضى فى مواجهة الحياة دون أن يستريح إلى يقين من قبولها – أو رفضها – تحقيق تلك الأمنية العزيزة ! .. وأحس أن يأسه ينبع من تصوراته وخيالاته وحدها ، وأنه لا يملك دليلا ما على أنها سوف ترده خائباً ، وهو

الآن قد جاء إلى موسكو بعزم ثابت على أن يتقدم طالباً يد الفتاة ، وأن يتزوجها بغير إبطاء ، إذا قبلته !

- ٣ -

● كاد قلب « ليفين » يقفز فى صدره انفعالا وهو يهبط من الزحافة التى أوصلته أمام باب حدائق الحيوان عند الأصيل . ومضى فى الطريق إلى الآكام الثلجية وساحة الانزلاق ، حيث كان موقناً من أنه سيجد كيتى هناك ، كما أنبأه ستيفان !

وكان اليوم مشرقاً جميلا ، والحديقة مزدهرة بزوارها من ذوى الأزياء الأنيقة ، وذوات القبعات الزاهية ، فمضى ليفين فى الممر المتعرج يحدث نفسه : « ينبغى أن أحتفظ بالهدوء ! إن هذا الانفعال الذى أحسه ليس ثمة ما يدعو إليه ! .. إنه دليل على الغباء ! » .. لكنه كلما زجر قلبه المتلاحق الخفقات ، ازدادت خفقات قلبه شدة ، ولهثت أنفاسه ! .. ولما أشرف على غايته وانبسطت أمام بصره ساحة الانزلاق ، سرعان ما لمحت عينه كيتى بين عشرات الفتيات والرجال . رآها بقلبه قبل أن يراها بعينيه ! أدرك أنها هناك – حيث رآها – من فرط الذعر الذى تملك قلبه فجأة !

وكانت كيتى واقفة تتحدث إلى سيدة فى الطرف الآخر من الحلقة ، ولم يكن فى ثيابها أو مظهرها ما يلفت النظر .. لكن بصر ليفين اهتدى إليها بسهولة ، كما يميز الزهرة وسط الحشائش

الخضراء . فاتجه نحوها وهو يتجنب النظر إليها ، كما يتجنب النظر إلى الشمس ، وإن كان يراها كما يرى الإنسان الشمس ، دون أن ينظر إليها !

وفجأة أحس أن الشمس تقترب منه !.. كانت كيتى قد انفلتت من الجدار الذى استندت إليه ثم انزلقت مسرعة فى اتجاهه .. وإذ ترنحت فى اندفاعها لحظة رفعت بصرها ، فوقعت عيناها عليه ، وعرفته ، فابتسمت .. وحين استردت توازنها ، أومأت له برأسها !.. ياالله ! إنها أجمل مما كان يتصورها بخياله وهى بعيدة عنه !.. يا للتعبير الناعم الصافى الذى يلوح فى عينيها . بل يا لابتسامتها ، التى طالما نقلته إلى عالم سحرى رائع ، يحس فيه بنفسه وقد غدا .. ناعماً .. رقيقاً .. مثلما كان فى بعض أيام طفولته !

وابتدرته وهى تثبت قدميها فى الأرض ، وقد بلغت مكانه ، مادة إليه يدها مصافحة : « هل جئت منذ زمن ؟ » . وسقط منديلها من كمها ، فانحنى يلتقطه لها . وأردفت قائلة : « أشكرك ! » ، فأجابها متلعثماً : « أنا ؟ كلا ! لم أحضر منذ زمن . أمس فقط ، أعنى اليوم وصلت . وكنت أعتزم أن أذهب لأراك ! »

ثم استطرد بعد أن أطرق هنيهة : « لم أكن أعلم أنك تجيدين الانزلاق إلى هذا الحد ! » .. فألقت إليه نظرة فاحصة ، كأنما تريد أن تقف على سر اضطرابه ثم قالت : « إطراؤك جدير

بالاعتبار ، فهم يقولون هنا : إنك أبرع الجميع فى الانزلاق ! » .. فاصطبغت وجنتاه بحمرة الحياء وقال : « كنت فى وقت ما أمارس هذه الرياضة متحمساً . أردت أن أبلغ الكمال ! » .. فقالت : « إنك تفعل كل شىء متحمساً ، هذا ما أعتقده .. بودى أن أراك تنزلق . هيا ، تعال ننزلق معاً ! » .

وقال ليفين لنفسه وهو يحدق فيها : « ننزلق معاً ! أهذا ممكن ؟ » .. لكنه سرعان ما قال لها مغتبطاً : « حسناً ! لحظة ثم يكون ما تريدين ! » . ومضى إلى رجل الساحة — المختص بإعداد روادها للانزلاق — وهو يحدث نفسه قائلا : « هذه هى الحياة ، هذه هى السعادة !.. معاً ؟ ننزلق معاً !.. هل أخاطبها فى الأمر الآن ؟.. آه .. هذا سر حزنى وإحجامى !.. إنى لسعيد الآن ، سعيد بالأمل . ولكن ماذا بعد ؟ على أية حال يجب ألا أحجم بعد الآن ، نعم يجب ، ولكن .. سحقاً لهذا الضعف الذى أشعر به ! » .

ونهض ليفين ، فانزلق فى رشاقة وسهولة حتى بلغ مكانها ، فناولته يدها واستأنفا الانزلاق على الجليد مسرعين .. وكلما ازدادت سرعة اندفاعهما ، ازداد ضغط قبضتها على يده !.. وبعد أن تبادلا حديثاً عابراً ، سألته عن حياته فى الريف ، ثم أردفت : « لابد أن الحياة هناك مملة فى الشتاء ، أليس كذلك ؟ » .. فقال لها : « إن مشاغلى هناك كثيرة . ولهذا لا أشعر بملل » .

فسألته : « هل تعتزم أن تبقى هنا طويلا ؟ » .

فسكت هنيهة ثم غمغم : « الحق أنى لست أدرى ! » .

وبدت الدهشة فى عينيها ، وسألته : « كيف ؟ » .

فاشتد تلعثم لسانه ، وقال : « لست أدرى الآن . الأمر يتوقف عليك !! » .. وقبل أن يرن صدى عبارته الأخيرة فى سمعه ، أدرك أنه تعجل أكثر مما ينبغى ، فانتابه الذعر ! .. وسواء أكانت الفتاة قد سمعت كلماته أو لم ترد أن تسمعها ، فإنها لم تلبث قليلا حتى انفصلت عنه وانزلقت بعيداً ، متجهة نحو مربيتها « ملموازيل لينون » التى كانت واقفة حول الحلقة تتفرج على جموع اللاعبين ، فأسرت فى أذنها ببضع كلمات ثم اتجهت نحو الجناح الذى ينزع فيه رواد الساحة معدات الانزلاق .. بينما كانت عينا ليفين تتبعانها فى انزعاج ، وهو يؤنب نفسه مردداً صلاة حارة فى أعماقه : « يا إلهى ، ماذا فعلت ؟.. آه !.. يا إلهى الرحيم .. ساعدنى ، أرشدنى ! » .

وأحس بحاجة إلى أن يقوم بمجهود جثمانى عنيف يشغل أفكاره ويجد فيه تعويضاً نفسياً عن قلقه ، فراح يقوم ببضع حركات معقدة خطيرة أثناء انزلاقه ، الأمر الذى لفت إليه أنظار الجماهير ، ومن بينهم « كيتى » .. وكانت قد عادت بعد أن نزعت عن قدميها حذاء الانزلاق ، ومعها مربيتها .. وابتسمت له فى مودة هادئة ، كما لو كان أخاها المفضل ، وحدثت نفسها قائلة : « كم هو رائع ظريف !.. ترى هل أخطأت فى حقه ؟ ..

أنا أعلم أنه ليس الشخص الذى أحبه ، لكنى مع ذلك أحس السعادة فى صحبته ، ثم أنه مرح جداً .. ولكن ، لم قال لى تلك العبارات ؟ وما الذى كان يعنيه ؟ » .

ثم اتجهت إلى حيث كانت أمها تجلس فى الساحة ، وهمت كلتاهما بالانصراف ، فسارع ليفين إلى مغادرة الحلقة ، وخلع نعلى الانزلاق متعجلا ، ثم لحق بهما عند مدخل الحديقة ، فحيته الأميرة شرباتسكى الأم قائلة : « يسرنى أن أراك . إننا عادة لا نبرح البيت فى أيام الخميس .. » ، فقال ليفين : « الخميس ؟ إذن .. هل سيدتى تعنى ؟.. تعنى اليوم ؟ » .

فقالت الأميرة الأم : « نعم ، ويسرنا أن نراك ! » .

وخيل إلى كيتى أن فى لهجة أمها شيئاً من الجفاء ، فأدارت وجهها نحو ليفين مبتسمة وقالت له ، محاولة أن تزيل أثر فتور أمها : « إلى الاقاء ، هذا المساء » .. وفى تلك اللحظة أقبل نحوهما « ستيفان أوبلونسكى » ، فوقف يتجاذب الحديث مع « حماته » برهة ، ويجيب على أسئلتها عن صحة زوجته دوللى .. ثم ودعهما ، وتناول ذراع ليفين وانطلق به إلى خارج الساحة وهو يقول : « إذن ، هيا بنا إلى مطعم إنجلترا ! » .

وفى المطعم ، انتظر ستيفان حتى أفرغ ليفين كأسه ، ثم قال له : « هناك شىء ينبغى أن أقوله لك.. هل تعرف فرونسكى؟» :: فعقد ليفين ما بين حاجبيه ، وسأل صديقه ومضيفه قائلا : « من

يكون فرونسكى هذا ؟ » .. فقال ستيفان : « هو أحد أبناء الكونت كيريل إيفانوفتش فرونسكى .. إنه من ألمع شبان بطرسبرج ، وعلى قدر كبير من الثراء والوسامة ، كما أن له صلات وطيدة بكثير من العظماء ، وهو إلى ذلك رضى الخلق ، واسع الثقافة ، بارع الذكاء ، ظريف كل الظرف .. ويشغل فى الجيش منصب ضابط أركان حرب ، والجميع يتوقعون له مستقبلا مرموقاً !.. ولكن الذى يهمنا من أمره الآن أنه غارق فى حب كيتى إلى أذنيه ، فقد تعرف إليها على أثر سفرك فى المرة السابقة ، ولعلك تعلم أن أمها .. » .

وهنا قطع ليفين كلامه قائلا، والأسى والأسف ملء صوته : « لست أعلم شيئاً على الإطلاق ! » .. فقال ستيفان : « لقد أطلعتك على ما أعرف ، وأعتقد – برغم دقة الموقف – أن فرصتك فى الفوز أكبر ، بشرط أن تعجل بالبت فى الأمر وتطلب يد الفتاة فوراً ، ولكن ليس الليلة على أية حال ، بل غداً صباحاً ! »

– ٤ –

● منذ فرغت كيتى من تناول الغداء ، وحتى بداية الأمسية ، أحست انفعالا شبيهاً بانفعال الشاب المقبل على خوض معركة !.. كان قلبها ينبض بعنف وشدة ، وأفكارها تأبى أن تستقر على شىء ! لقد أحست أن تلك الليلة سوف تكون نقطة التحول فى

حياتها ، ففيها سيلتقى لأول مرة الرجلان اللذان يريدان الزواج منها !.. وكان خيالها دائب المقارنة بينهما ، يستعرضهما آناً على انفراد ، وآونة مجتمعين !.. وعادت بأفكارها إلى الماضى ، واستقرت هذه الأفكار – فى شىء من البهجة والحنين – على ذكريات صلاتها مع ليفين : ذكريات طفولتها ، وصداقة ليفين لأخيها ، ولهو ثلاثتهم معاً ، وغير ذلك من الصور التى أضفت جاذبية شعرية خاصة على شعورها نحو ليفين . ومن ثم لذ لها أن تفكر فيه ، وفى حبه لها ، ذلك الحب الذى توقن منه ، وإن لم يبح لها به !.. هذا إلى أنها فى حضرته كانت تحس جواً من البساطة والصفاء ، ورفع الكلفة .. بعكس حالها مع « فرونسكى » ، الذى كان وجوده يضفى على الجو شيئاً من التوتر والارتباك . لكنها – برغم ذلك – كانت لا تفكر فى فرونسكى إلا وينبسط أمامها الأمل فى مستقبل سعيد ، فإذا انتقلت بتفكيرها إلى ليفين أحست كأن المستقبل قد شابته فجأة سحابة من الغموض !

وحين صعدت إلى غرفتها لتتزين ، تأهباً لاستقبال ضيوفها ، ونظرت إلى صورتها فى المرآة ، سرها أن وجدت وجهها يتألق بنضارة العافية والشباب . ولم تكد تهبط إلى غرفة الاستقبال ، فى منتصف الساعة الثامنة ، حتى أعلن الخادم قدوم «كونستانتين ديمتريفتش ليفين » . وكانت الأم ما تزال فى غرفتها ، وفرونسكى لم يصل بعد ، فأدركت كيتى والدم يندفع إلى قلبها بقوة أن ليفين

تعمد التبكير فى الحضور ليخلو إليهـا ويكاشفها بنيته ! وعندئذ فقط تنبهت إلى أن الأمر ليس أمر البت فى مستقبلها وسعادتها هى وحدها ، بل فى مستقبل وسعادة شخص آخر ، تفرض عليها الظروف أن تجرحه وتؤلمه ، لا لشىء سوى أنه يحبها ، ويخلص لهـا الحب !.. فراحت تحدث نفسها قائلة : « يا إلهى ، هل يجب على حقاً أن أقولها له ؟ هل أستطيع أن أصارحه بأنى لا أحبه ؟ إننى أكون كاذبة . إذ ماذا أقول له ؟ هل أقول له أنى أحب شخصاً آخر ؟.. كلا ! هذا مستحيل .. مستحيل ! » .

وكانت قد بلغت الباب ، فسمعت خطواته تقترب .. وما لبث أن أشرق عليها وجهه القوى الخجول ، وعيناه اللتان ركزهما عليها ، فرفعت إليه بصرها كأنما تناشده أن يجنبها الموقف الحرج ، بينما مدت يدها إليه مصافحة ، فقال وهو يجيل نظره فى الغرفة الخالية : « لعلى بكرت فى الحضور ، قبل الموعد المناسب ؟ » ، وأظلم وجهه إذ تبين أن اللحظة الخطيرة الفاصلة قد حانت ، ولم يعد ثمة ما يمنعه من الإفصاح !.. فأجابت كيتى وهى تجلس : « أوه ! كلا ! » .. لكنه لم يجلس ، بل أردف يقول وهو يتجنب النظر إليها ، كى لا يفقد شجاعته : « على كل حال ، هذا ما أريده تماماً : أن أجدك وحدك ! » .

فقالت دون أن تحول عنه عينيها المتوسلتين : « بعد هنيهة ، تهبط أمى من غرفتها . لقد كانت تعبة للغاية أمس ! » وعندئذ نظر

إليها ، فتورد وجهها ، وتوقفت عن الكلام .. بينما استأنف هو كلامه قائلا : « ذكرت لك أن مدة إقامتى هنا تتوقف .. عليك . وقد قصدت أن أقول .. قصدت أن أقول .. أنى جئت خصيصاً .. كى أعرض عليك .. أن تكونى زوجتى ! » .

ولم يدر ماذا قال على وجه التحقيق ، لكنه أحس أن العبارة الخطيرة قيلت ، وأنه قد اجتاز العقبة الكأداء .. فتوقف عن الكلام ، ونظر إليها !.. وكانت هى تتجنب النظر إليه ، ولكن أنفاسها تلاحقت ، وأحست بنشوة عجيبة ، وبسعادة هائلة تغمرها . ولم يدر قط بخلدها من قبل أن مجرد ذكر الحب يكون له عليها هذا التأثير القوى ! لكن شعورها هذا لم يطل أكثر من لحظة ، تذكرت بعدها « فرونسكى » ، فرفعت عينيها الصافيتين الصادقتين إلى « ليفين » ، وإذ رأت وجه اليائس أجابت فى عجلة :

— عفواً .. هذا غير ممكن !

وبهت المسكين ! إنها منذ لحظة واحدة كانت قريبة منه كل القرب ، لها فى حياته كل الأهمية . أما الآن ، فما أبعدها ، وأضأل نصيبه منها !.. وأجاب دون أن ينظر إليها : « كان ينبغى أن أتوقع هذا ! » .. ثم انحنى تأهباً للانصراف . ولكن حدث فى هذه اللحظة أن دخلت الأميرة الأم عليهما ، وما كادت تراهما منفردين ، وفى هيئتهما ما ينم عن الاضطراب ، حتى ارتسم الفزع

فى عينيها ! وانحنى ليفين لها دون أن ينطق بكلمة ، أما كيتى فلم ترفع عينيها إلى أمها . وإذ ذاك حدثت هذه نفسها قائلة : « حمداً لله ، لقد رفضته ! » .. وأضاءت وجهها ابتسامة الترحيب التقليدية التى تستقبل بها زوارها كل يوم خميس ، ثم جلست ، وبدأت تسأل ليفين عن حياته فى الريف ، بينما جلس هو على مضض فى انتظار قدوم زائرين آخرين ، كى يتسنى له أن ينسحب غير ملحوظ !

ولم تمض خمس دقائق حتى أقبلت الكونتة « نوردستون » صديقة كيتى ، وكانت قد تزوجت فى الشتاء الأسبق وتريد أن تكفل لصديقتها زيجة موفقة تحقق لها فى حياتها السعادة المنشودة – وتلك عادة النساء المتزوجات مع الفتيات اللواتى على أهبة الزواج ! – وكان الزوج المثالى لفتاة مثل كيتى ، فى رأى الكونتة صديقتها ، هو « فرونسكى » .. أما « ليفين » ، الذى طالما التقت به فى بيت تشرباتسكى فى بداية الشتاء ، فلم يظفر بإعجابها ، بل إنها جعلت همها أن تسخر منه وتسفه شخصه ، سواء فى حضوره أو غيبته !.. وكان هو أيضاً قد استثقل ظلها ، ولم يدخر وسعاً فى إظهار كرهه لها !.. وهكذا انتهى الأمر بهما إلى أن صارا يحتقر كلاهما الآخر ، إلى الدرجة التى تجعله لا يحمل آراءه على محمل الجد ، ولا يغضب من إساءته !

وبدأت الكونتة تحرشها بليفين ، وهى تبتسم فى تهكم : « هيه؟

إذن لقد عدت ثانية إلى مدينتنا التى تسميها عاصمة الفساد ؟ ترى هل موسكو هى التى اهتدت من ضلالها ، أم أنت الذى انحلت أخلاقك ؟! » .. فأجابها متهكماً هو الآخر : « إنه ليرضى غرورى يا سيدتى أن تهتمى بتسجيل آرائى وتذكر أقوالى بهذه الدقة ! لابد أنها تترك فى نفسك تأثيراً كبيراً ؟! » .. فقالت : « أعتقد ذلك ، فإنى أحرص على تدوينها بنصها ! » .. ثم استدارت لتتحدث إلى كيتى فى شتى الموضوعات . ومضت لحظات قضاها ليفين صامتاً حائراً ، وكيتى ترمقه بين حين وآخر بنظرة خاطفة ، ثم تعود فتتجنب عينيه !

.. وأخيراً قرر أن ينهض لينصرف ، كى ينجو بنفسه من ذلك الجو الخانق . وقبل أن ينفذ عزمه هذا دخلت ضيفة جديدة ، ودخل فى أثرها ضابط ، لا يعرفه ليفين ، لكنه حدث نفسه قائلا : « لابد أن يكون هذا فرونسكى ! » .. ولكى يتثبت من الأمر اختلس نظرة إلى كيتى ، فرأى عينيها قد تألقتا حين وقع بصرها على ذلك الضابط ! ولم يجد ليفين بداً من أن يعدل عن الانصراف ، وأن يبقى لكى يرى ، ويسمع ، ويعرف المزيد عن شخصية غريمه !.. إن بعض الناس يميلون فى مثل هذه الظروف إلى تجاهل كل ما لمنافسهم الظافر من صفات حسنة ، ولا يرون غير صفاته السيئة .. وهناك آخرون يميلون بطبعهم إلى اكتشاف حسنات الغريم المحظوظ التى تفوق عليهم بها ، حتى لا يكادون

يرون غيرها ، وإن كانت قلوبهم تعانى أثناء ذلك ألماً موجعاً !.. وقد كان ليفين من هذا الفريق الأخير ، لكنه لم يجد صعوبة فى الاهتداء إلى مواطن جاذبية فرونسكى ، فقد كانت بادية للعيان لأول وهلة !.. كان قوى البنيان، أسمر البشرة، متوسط الطول، ذا وجه وسيم ينم عن الهدوء والحزم فى وقت واحد !.. وكان كل ما فيه – من شعره الأسود المصفف ، ووجهه الحليق ، وسترته العسكرية – يجمع بين الأناقة والبساطة !

واتجه « فرونسكى » أول ما اتجه إلى الأم ، فانحنى لها فى احترام .. ثم يمم شطر الابنة وقد لمعت فى عينيه الجميلتين نظرة خاصة رقيقة ، وابتسامة ظافرة سعيدة ، فأعطاها يده الصغيرة العريضة مصافحاً .. ثم حيا بقية الموجودين ببضع كلمات ، واتخذ مكانه فى المجلس بعد أن قدمته الأميرة إلى ليفين . ثم اشترك الجميع فى حديث متشعب كان فرونسكى فارسه المبرز . كان يوجه كلامه بصفة خاصة إلى كيتى وليفين ، متنقلا بنظرته الودية من أحدهما إلى الآخر على التوالى ، بحيث لم تكد الأميرة أو الكونتة تجدان فرصة للكلام ، إلا حين استدار المتحدث نحو الأخيرة كى ينتقل بحديثه إلى موضوع الحفلة الراقصة الكبرى التى تقام فى الأسبوع التالى !.. ولم يلبث ليفين أن انصرف وهو يحمل فى وعيه صورة وجه كيتى الباسم السعيد وهى تصغى إلى حديث فرونسكى !

لم يكن فرونسكى قد عرف يوماً الحياة « البيتية » الحقيقية ، فقد كانت أمه فى شبابها من نساء المجتمع اللامعات ، اللواتى يقضين أكثر وقتهن خارج البيت . وكانت لها أثناء حياة زوجها – ثم بعد وفاته خاصة – مغامرات غرامية عديدة تردد صداها السيء فى جميع أوساط المجتمع الرفيع ! أما أبوه فلا يكاد الفتى يذكر عنه شيئاً ، فقد مات وخلفه صبياً ، حيث كفلته أمه ، ثم التحق بالكلية الحربية ، فلما تخرج فيها اندمج من فوره فى بيئة ضباط بطرسبرج الأغنياء .. وبرغم دخوله فى محيط المجتمع المترف فإن مغامراته الغرامية كلها كانت بطلاتها فتيات من خارج ذلك المحيط .. فلما عرف كيتى فى موسكو هذه المرة أحس أنه يتذوق لأول مرة متعة رفع الكلفة مع فتاة بريئة عذبة ، من نفس طبقته الاجتماعية . ولم يدر بخلده قط أن فى علاقته بها أية غضاضة أو ضرر. صار يراقصها كلما التقى بها فى الحفلات والمناسبات ويتردد على بيت أسرتها بانتظام ، ويثرثر معها كما يثرثر الناس عادة فى المجتمعات ، وبرغم أنه لم يقل لها يوماً حرفاً لم يكن ليستطيع أن يقوله لها علناً على مسمع من الجميع ، فإنه شعر بأنها تزداد مع الأيام « اعتماداً » عليه ، واستمتع بذلك إلى حد كبير ! .. لكنه لم يعلم أن هذا المسلك فيما يتصل بها له وصف خاص فى قاموس المجتمع ، هو « التغرير بالفتيات دون تفكير فى الزواج منهن! » .. ولا كان يعلم أن هذا التغرير – أو المغازلة – هو من الشرور المألوفة

فى مجتمعات الشباب النابهين أمثاله.. وإنما بدا له أنه أول من استكشف متعة العلاقة التى من هذا القبيل ، وقد استمتع باستكشافه !

ولو قدر له أن يسمع ما كان أهل الفتاة يقولونه فى ذلك المساء ، من أن كيتى سوف تشقى إذا لم يتزوجها ، لدهش لذلك أبلغ الدهشة ! بل لعله ما كان ليصدقه ! .. لم يكن يستطيع أن يصدق أن ما يدخل على قلبه ـ وعلى قلب الفتاة نفسها دون ريب ـ مثل هذه البهجة والمتعة ، يمكن أن يكون « خطأ » يؤاخذ عليه .. وأكثر من ذلك لم يكن فى وسعه أن يقتنع بأنه ينبغى له أن يتزوج ، فإن الزواج لم يخطر يوماً بباله ! .. لا لبغضه للحياة العائلية والبيتية فحسب ، وإنما لأن كلمة « عائلة » أو « زوج » لم يكن لها فى عالم العزوبة الذى يعيش فيه غير معنى واحد منفر عجيب ، بل مضحك !

على أن فرونسكى برغم جهله بما كان يدور فى أذهان أفراد أسرة شرباتسكى ، شعر لدى خروجه من دارهم فى تلك الليلة بأن الرباط الروحى الخفى الذى يربط بينه وبين كيتى قد ازداد قوة ومتانة فى تلك الأمسية بالذات ، بحيث بات ينبغى له أن يتخذ فى صدده خطوة ما . ولكن ما هى هذه الخطوة على وجه التحديد ؟ إنه لا يستطيع أن يعرف ، أو يتخيل ! .. على أنه وهو عائد من دار آل شرباتسكى ، فى ذلك المساء ، أخذ يحدث نفسه قائلا وقلبه مفعم بالنشوة والانشراح : « الشائق فى الأمر كله أن أحداً منا لم يوجه إلى الآخر كلمة ما ، لكننا نتفاهم برغم ذلك أوضح التفاهم

بتلك اللغة الغامضة السرية ، لغة النظرات والنبرات .. إنها أفصحت لى الليلة ، أكثر من أية مرة سابقة ، أنها تحبنى ! وإنى لأشعر بأنى صرت مخلوقاً أفضل وأطهر ، وبأن لى قلباً ينطوى على قدر كبير من الحب والخير ! .. يا لعينيها العاشقتين ، العذبتين ! ».

ومضى يسائل نفسه وهو سائر فى الطريق : « أين أمضى بقية السهرة ؟ .. أفى اللعب وشرب الشمبانيا مع صديقى « أجناتوف » فى النادى ؟ أم فى ملهى « قصر الزهور » مع أوبلونسكى ، فى الرقص والغناء ؟ » .. وشعر بأنه سئم كل تلك المتع ، وبأن ما أعجبه فى بيت شرباتسكى أنهم يجعلون منه شخصاً أفضل ! .. وعلى هذا فقد اتجه رأساً إلى غرفته فى فندق « دوسو » حيث تناول عشاءه ثم خلع ثيابه . ولم يكد رأسه يلمس الوسادة حتى غرق فى نوم عميق !

— ٥ —

• فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى مضى فرونسكى إلى محطة السكة الحديدية فى بطرسبرج ليستقبل أمه . وهناك التقى على سلم المحطة بصديقه ستيفان أوبلونسكى ، الذى كان ينتظر قدوم أخته فى القطار ذاته . وبعد أن تصافحا قال فرونسكى : « ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ »

— جئت لأستقبل امرأة جميلة !

— حقاً ؟

— حذار أن تسىء بى الظن .. إنها أختى « أنا » !

— آه ، تعنى مدام كارنينا ؟

— أنت تعرفها إذن ؟

— أعتقد ذلك ، أو ربما لا . لست متأكداً فى الواقع ، وإن كنت سمعت هذا الاسم فى مناسبة لست أذكرها الآن !

— لكنك تعرف زوجها ولاشك : « أليكسى الكسندروفتش » المشهور ! الدنيا كلها تعرفه !

— أعرف أنه ذكى ، مثقف ، ومتدين إلى حد ما !

— نعم إنه رجل ممتاز . قد يكون محافظاً بعض الشىء ، لكنه شخص رائع .. رائع حقاً !

ثم انتقل الرجلان بثرثرتهما إلى أخبار « ليفين » . فعلم فرونسكى أثناء الحديث أن غريمه يحب كيتى منذ زمن ، وأن سر اكتئابه فى الليلة السابقة وتبكيره فى الانصراف هو — فى الغالب — أنه طلب يدها فلم يلق منها ترحيباً أو تشجيعاً ! .. فانتفخت أوداج فرونسكى زهواً ، دون وعى منه ، ولمعت عيناه ببريق الانتصار .. وفى تلك اللحظة وصل القطار ، وجاء من ينبئه بأن الكونتة فرونسكى — أمه — تنتظره فى مقصورتها ، فانتزعه هذا القول من تفكيره فى كيتى إلى التفكير فى أمه التى سيلقاها بعد لحظات : أنه ، فى قرارة نفسه لم يكن يحترم أمه ، بل لم يكن يحبها — وإن لم يعترف بذلك لنفسه ! — لكن تقاليد البيئة التى يعيش فيها كانت تضطره إلى أن يظهر لها كل الطاعة والاحترام !

ومضى مع الدليل إلى عربة القطار التى كانت أمه تحتل إحدى مقاصيرها . وعند باب المقصورة توقف ليفسح مكاناً تمر منه سيدة تبغى الخروج . ومن نظرة واحدة إلى مظهر تلك المرأة ، وبفطنة الرجل الخبير بطبقات المجتمع ، أدرجها فرونسكى فى عداد المنتميات إلى المجتمع الرفيع ، فسألها المعذرة ودلف داخل العربة . لكنه أحس أنه ينبغى أن يرمق تلك المرأة بنظرة أخرى ، لا لأنها كانت خارقة الجمال ، ولا بسبب أناقتها وجلالها الباديين فى مظهرها كله .. ولكن لأنه لحظ أن تعبير وجهها الفاتن وهى تمرق بجواره ، له طابع خاص ، جديد ، جذاب ! .. والتفتت هى ، فى اللحظة التى التفت فيها ، فاستراحت على وجهه عيناها اللامعتان الغبراوان ، اللتان زادتهما سواداً كثافة أهدابهما ، ثم حولت بصرها بسرعة نحو الجماهير المتزاحمة وكأنها تبحث عن شخص معين . ولكن خلال تلك النظرة الخاطفة القصيرة ، وجد فرونسكى الوقت الكافى كى يلحظ اللهفة المكبوتة التى تشيع فى وجه تلك المرأة وتتأرجح بين عينيها اللامعتين .. والابتسامة الخفيفة التى ترف على شفتيها الحمراوين ! .. إن طبيعتها تطفح بشىء يظهر — برغم إرادتها — فى بريق عينيها آونة ، وفى ابتسامتها آونة أخرى ، بحيث إذا أفلحت فى إطفاء نوره فى عينيها ، شع برغمها فى الابتسامة الواهنة التى يدركها الناظر ؛ بحسه لا بعينيه !

ودلف فرونسكى إلى داخل المقصورة ، حيث كانت أمه



وهناك أدرك فرونسكى أنه أمام (مدام كارنينا)
فانتهز الفرصة ودخل فى الحديث ..

العجوز التى جف عودها وتغضن وجهها . وكانت قد نهضت من مقعدها وناولت خادمتها حقيبة صغيرة . فلما لمحت ابنها ابتسمت ابتسامة خفيفة بشفتيها الرقيقتين ، ومدت إليه يدها الصغيرة المغضنة كى يقبلها ، ثم رفعت رأسه عن يدها وقبلته بدورها على خده ، وقالت له :

– إذن فقد تلقيت برقيتى ؟ حمداً لله !

فغمغم قائلا : « لعل الرحلة كانت مريحة لك؟» ثم جلس إلى جوارها يستمع لحديثها ، لكنه كان يصغى دون قصد إلى صوت امرأة أخرى ينبعث خارج المقصورة . إنه ولا شك صوت المرأة التى التقى بها عند الباب .. كان أحدهم يقول لها : « اسمحى لى أن أقبل يدك .. » ، فأجابته إلى طلبه وأردفت قائلة له : « وداعاً يا إيفان بتروفتش .. ولهذه المناسبة ، هلا تكرمت بالبحث عن أخى على الرصيف وإرشاده إلى مكانى ؟ » ثم قفلت راجعة إلى داخل المقصورة نفسها ، فلما رأتها أمه قالت لها متسائلة : « هل وجدت أخاك ؟ » . وهنا أدرك فرونسكى أنه أمام « مدام كارنينا » ، فانتهز الفرصة ودخل فى الحديث . قال للمرأة وهو ينهض وينحنى لها : « أخوك هنا ياسيدتى . أرجو المعذرة إذ لم أعرفك منذ البداية ، فقد كان تعارفنا عابراً فى المرة السابقة .. بحيث لا أشك فى أنك لا تذكريننى » .. فأجابت وهى تطلق لهفتها المكبوتة ، فى ابتسامتها : « أوه ، كلا . الواقع أننى كان ينبغى أن أعرفك ، لأنى وأمك لم

نكن نتحدث إلا عنك طيلة الرحلة . عجباً لأخى ، لم يظهر بعد ! » .

وهنا قالت له أمه : « اذهب وناده يا أليكس » .

فهبط فرونسكى إلى الرصيف وأخذ يصيح : « أوبلونسكى أوبلونسكى ! » .. ولم تنتظر مدام كارنينا وصول أخيها ، فما كادت تلمحه قادماً حتى خرجت لاقائه بخطواتها الخفيفة الحازمة ، فلما بلغ مكانها ألقت ذراعها اليسرى حول رقبته — بحركة لفتت نظر فرونسكى من فرط جلالها ورشاقتها — ثم جذبته بسرعة إليها وقبلته فى حرارة .. بينما ظل فرونسكى محدقاً فيها ، لا يرفع عنها بصره ، ثم ابتسم .. دون أن يدرى لماذا ؟

. . وتذكر أن أمه فى انتظاره ، فقفل عائداً إلى العربة ، فاستقبلته أمه قائلة : « إنها عذبة للغاية ، أليس كذلك ؟ لقد أجلسها زوجها معى فى المقصورة ، وكم سرنى أن تؤنسنى . إننا لم نكف عن الكلام لحظة .. وكذلك فعلت أنت فيما يبدو . أنك تتقن الغزل . لا بأس يابنى .. لا بأس ! » .. فأجاب فى فتور : « لست أدرى ماذا تقصدين يا أماه .. هيا فلنذهب ! » .

وفى تلك اللحظة دخلت مدام كارنينا العربة كى تودع الكونتة بقولها : « لقد التقيت أنت بابنك ، وأنا بأخى ، واستنفدنا كل حديث ! » ، فقطعت الكونتة كلامها وهى تتناول يدها قائلة : « أوه ، كلا ! .. أن بوسعى أن أطوف العالم كله معك دون أن أشعر بالملل . إنك واحدة من النساء الساحرات اللواتى يحلو للإنسان

فى حضرتهن أن يصمت أو يتحدث على السواء ! .. والآن رجائى إليك ألا تطيلى التفكير فى طفلك ، فما كان يمكن ألا تفترقا قط ! » . ثم التفتت إلى ابنها وقالت له موضحة : « إن لمدام كارنينا إبناً فى الثامنة ، وهى لا تقوى على فراقه ! » .

فقالت « أنا » وقد أضاءت وجهها ابتسامة جذابة : « نعم ، لقد قضينا — الكونتة وأنا — الوقت كله نثرثر : أنا عن ابنى ، وهى عن ابنها ! » .. فابتسم فرونسكى وقال يرد لها الدعابة : « أخشى إذن أن تكونا قد شعرتما بأشد الملل ! » . ثم تصافحت المرأتان ، وطبعت أمه على خد « أنا » قبلة وداع وهى تقول لها : « أصارحك ياعزيزتى بأنى قد وقعت فى هواك ! » ، فاحمر وجه « أنا » غبطة وزهواً بمديح محدثتها .. وحين جاء دور فرونسكى فى مصافحتها كانت ترف على شفتيها وفى عينيها تلك الابتسامة الحلوة التى تقبلت بها تحية أمه ، فضغط الشاب اليد الصغيرة التى قدمتها إليه وقد أمتعته الحرارة التى أظهرتها فى مصافحته ، والتى كأنما خصته بها ! .. ثم انفلتت تلحق بأخيها فى خطاها السريعة الخفيفة ، فتبعتها عينا فرونسكى حتى غابت طلعتها الرائعة عن ناظريه ، لكن الابتسامة بقيت على شفتيه فترة .. ثم استدار إلى أمه وراح يسألها عن أخبار الأسرة ، فاندفعت تسردها عليه فى إسهاب واهتمام ، وهو لاه عنها بفكره ، حتى أقبل رئيس خدمها وخادمتها الخاصة ينهيان إليها

أن الأمتعة كلها قد نقلت من القطار ، فأعطى فرونسكى ذراعه لأمه وهبطا من العربة !

.. وفى تلك اللحظة رأيا بضعة رجال ، على رأسهم ناظر المحطة ، يهرعون فى اتجاه القاطرة بوجوه مذعورة .. وسرعان ما انتشرت الجلبة والضوضاء على الرصيف ، وسمعت أصوات مختلطة تتساءل فى لهفة : « ماذا ؟ ماذا ؟ أين ألقى بنفسه ؟ سحق رأسه ؟ » .. وعندئذ عاد أوبلونسكى وشقيقته نحو القطار كى يتجنبا الزحام ، وقد بدا عليهما شيء من الخوف ، فالتقيا بفرونسكى وأمه من جديد . وصعدت المرأتان إلى العربة ، بينما ذهب الرجلان ، يستطلعان نبأ ما حدث : إن واحداً من عمال المحطة كان ثملا ، أو شغله الضباب الكثيف عن نفسه ، فلم يسمع صوت القاطرة وهى تتحرك إلى الوراء ، فسحقته تحت عجلاتها ! .. وعاد الرجلان يرويان القصة ويصفان بشاعة منظر الجثة الممزقة التى رأياها ، ثم أضاف أوبلونسكى قائلا :

— المؤلم أن زوجته كانت هناك ! كم كان مؤثراً منظرها وهى تلقى بنفسها على أشلاء زوجها ! .. ثم أنهم يقولون إنه كان العائل الوحيد لأسرة كثيرة العدد !

فقالت مدام كارنينا فى همسة منفعلة : « أليس فى الإمكان مساعدة التعسة بشيء ؟ » .

ونظر فرونسكى إليها . ثم قال لأمه وهو يدلف إلى خارج

العربة : « سوف أعود بعد لحظة » . وحين عاد بعد دقائق ، مضى الأربعة نحو باب الخروج فلما بلغوه استوقف ناظر المحطة فرونسكى متسائلا : « لقد أعطيت مساعدى مائتى روبية ، فلمن تتبرع بها ؟ » . فأجابه هذا وهو يهز كتفيه : « للأرملة طبعاً . كنت أحسبنى فى غنى عن الإيضاح ! »

واستقل فرونسكى وأمه عربتهما ، بينما بقى أوبلونسكى وأخته ينتظران خادمتها الخاصة . وفى أثناء ذلك كان المارة بهما يعلقون على الحادث كل حسب رأيه : قال أحدهم : « يا لها من ميتة رهيبة ! » . فأجابه الثانى : « على العكس ، أعتقد أنها أسهل ميتة وأسرعها ! » .. وحين استقرت مدام كارنينا فى العربة لاحظ أخوها أن شفتيها ترتجفان ، وأنها تحبس دمعها بصعوبة .. فسألها منزعجاً : « ماذا بك يا أنا ؟ ».

— أنه فأل سيء !

— هراء ! .. المهم فى الأمر أنك جئت . إنك لا تتصورين إلى أى حد أعلق آمالى عليك !

— هل تعرف فرونسكى منذ زمن ؟

— نعم .. ونحن نأمل أن يتزوج من كيتى !

— حقاً ؟ .. ولكن دعنا نتحدث عن أحوالك أنت .. قص على ما حدث !

وأخذ يروى لها قصة الخلاف بينه وبين زوجته .. وحين وقفت

بهما العربة أمام البيت ، عاون شقيقته على النزول ، وضغط يدها زتهد . ثم مضى بالعربة إلى مكتبه .

• • •

● حين وصلت « أنا » إلى منزل أخيها أوبلونسكى ، كانت « دوللى » زوجته جالسة تعطى ابنها « جريشا » درساً فى الفرنسية ، بينما يداها منهمكتان فى بعض أشغال الإبرة التى تستعين بها على التخفيف من حدة انفعالها فى لحظات الترقب المرهقة للأعصاب . وكانت قد عقدت العزم على ألا تصغى لأية محاولة تبذلها ضيفتها لإقناعها بالصفح عن زوجها الخائن، وإن سرها أنهاستجد الفرصة لكى تنفس بالتحدث إليها عن بعض الحقد الذى يعتمل فى صدرها نحوه !

واستقبلت دوللى ضيفتها بقبلة ترحيب ودية ، وبعد أن حيتها « أنا » وعانقت أطفالها جميعاً ، انفردت المرأتان فى غرفة الاستقبال تشربان القهوة وتتحدثان .. وبعد لحظات ابتدرت أنا مضيفتها قائلة : « دوللى .. لقد قص على ستيفان كل شىء ! ولست أريد أن أدافع عنه أو أواسيك أنت . لكنى آسفة حقاً ياعزيزتى من أجلك ! » .. ولمعت الدموع فجأة تحت أهدابها الوطف الكثيفة ، واقتربت من زوجة أخيها تتناول يدها فى عطف وحنان ، فلم تجفل هذه ، لكن وجهها لم يفقد تعبيره الصارم .. وقالت لمحدثتها : « من المستحيل أن تواسينى ، فقد ضاع كل شىء بعدما حدث ..

كل شىء انتهى ! :. وأسوأ ما فى الأمر أننى مقيدة ، بسبب الأطفال ، بحيث لا أستطيع أن أنبذه .. فى حين لا أستطيع أن أعيش معه . إن رؤيته وحدها تعذبنى ! » .

فقالت لها أنا : « لقد سمعت القصة منه ، لكنى أريد أن أسمعها منك .. قصى على كل شىء » !

قالت : « حسناً ، لكنى سأقصها من البداية : تعلمين أنى حين تزوجت كنت — بحكم تربية أمى — بريئة غاية البراءة ، إلى حد الغباء . لم أكن أعرف من حقائق الحياة شيئاً . والناس يقولون عادة إن الأزواج يروون لزوجاتهم كل شىء عن ماضيهم ، لكن « ستيفا » لم يرو شيئاً .. فظللت حتى الآن أعتقد أننى المرأة الوحيدة التى عرفها . وعشت هكذا ثمانية أعوام ، أبعد ما أكون عن الارتياب فى خيانته لى . كنت أعتبر ذلك أمراً مستحيلا .. لذلك يمكنك تصور مبلغ الهلع الذى أصابنى حين وقفت فجأة على الحقيقة المرة ! .. حاولى أن تضعى نفسك مكانى : امرأة فى قمة سعادتها تعثر يوماً على خطاب من زوجها إلى عشيقته ، ومن تكون ؟ .. خادمتها ! إنه لأمر فظيع .. وأحسبك تقدرين موقفى ! » .

وكانت وهى تتكلم تحاول جاهدة أن تقمع دموعها .. لكنها فشلت ، فأخرجت منديلها ودفنت فيه وجهها .. بينما أجابتها « أنا » وهى تضغط يدها بين راحتيها : « نعم ، أقدر موقفك ياعزيزتى .. أقدره تماماً ! » .. فقالت دوللى وهى تغالب الدموع : « لكنه هو

لايدرك حرج موقفه ! .. بل إنه سعيد للغاية ! » .. فقالت أنا : « كلا ! .. إنه جدير بالرثاء .. إن الندم يثقل ضميره ! » .. فأردفت دوللى وهى تنظر إليها متسائلة : « أتحسبينه قديراً على الشعور بالندم ؟ ! » .

قالت « أنا » : « نعم ، أنا أعرفه جيداً . إنه طيب القلب ، لكنه متكبر .. أما الآن فقد صار ذليلا ! .. وأكثر ما يعذبه أمران : أحدهما خجله من نفسه أمام أولاده . والآخر شعوره بأنه قد طعنك فى الصميم بينما هو يحبك أكثر من أى شىء آخر فى دنياه ! .. نعم ، صدقينى إن موقفه سيء للغاية ! »

أخذت دوللى تنظر إلى بعيد كالحالمة ، وهى تصغى إلى كلمات شقيقة زوجها ، ثم قالت وقد لانت لهجتها : « نعم ، أنا مقتنعة بأن موقفه سيء ، وأن المذنب فى هذه الأمور يكون أسوأ حالا من البرىء — هذا إذا كان يشعر بخطئه ، وبأنه المسئول وحده عن كل هذه التعاسة — ولكن كيف أستطيع أن أصفح عنه ؟ .. كيف أستمر زوجة له ، بعد تلك الخيانة ؟ .. إن الحياة معه أمست بالنسبة لى الآن عذاباً مقيماً ، ولا سيما أنى شديدة التعلق بحبى الماضى له ! » وغلبها البكاء فسكتت ، حتى تمالكت نفسها ، ثم استطردت قائلة : « إنها شابة ، وجميلة على أية حال .. أما أنا فإن شبابى وجمالى قد وليا .. لكن من الذى استهلكهما ؟ . إنه هو ، وأولاده ! .. لقد أفنيت نفسى ونضارتى فى خدمته ، والآن باتت أى فتاة فى زهرة

العمر ، ولو كانت سوقية ، تفتنه أكثر منى . ومن يدرى ماذا قالا عنى ، وأية أحاديث تبادلاها فى شأنى ؟ وبعد هذا سوف يقول لى .. كلا .. لن أستطيع تصديقه مطلقاً ! .. بل لقد انتهى كل شىء . وأفظع ما فى الأمر أن قلبى تحول فجأة ، وبدلا من الحب والحنان لم يعد عندى له غير الكراهية .. نعم ، الكراهية فى أشد صورها .. حتى ليخيل إلى أنى أود لو أقتله ! » .

فقالت لها « أنا » فى لهجة ملؤها الحنان : « ياعزيزتى دوللى ، إنى أفهم موقفك . ولكن لا تعذبى نفسك هكذا . إن يأسك البالغ يجعلك تنظرين إلى أشياء كثيرة نظرة خاطئة . ولست أنا بالتى تجهل آلامك التى تقاسينها ، لكن هناك شيئاً واحداً أحسبنى أجهله : أى قدر من الحب بقى فى قلبك نحوه ؟ وهل يكفى هذا القدر من الحب كى تصفحى عنه ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فاصفحى ! .. إنى أعلم من أمور الدنيا وحقائق الحياة أكثر مما تعلمين . أعلم أن أمثال ستيفان قد يخونون زوجاتهم ، لكن خيانتهم لا تؤثر فى شعورهم نحو هؤلاء الزوجات بما يشبه التقديس ، ونظرتهم إلى عشيقاتهم نظرة ملؤها الاحتقار ! .. إنهم لا يخونون زوجاتهم بقلوبهم . ولقد كنت أنت دائماً فى نظر ستيفان موضع إعزازه وتقديسه ، ومازلت كذلك ! ».

— ولكن إذا تكرر الأمر ؟

— هذا شىء لا يمكن أن يحدث ، فيما أعتقد !

— ضعى نفسك فى مكانى .. هل كنت تصفحين عنه؟

— نعم ، وأصفح كما لو كان شيئاً من الأمر لم يحدث على الإطلاق !

ثم نهضت الزوجة فقبلت ضيفتها وهى تقول لها منبسطة الأسارير : « هيا ياعزيزتى ، دعينى آخذك إلى غرفتك . لكم يسرنى أنك جئت ! لقد جعل مجيئك الأمور خيراً مما كانت . خيراً منها إلى حد بعيد ! » .

● قضت « أنا » طيلة ذلك اليوم فى البيت ، فلم تخرج ، ولم تستقبل أحداً ، برغم أن بعض من تعرف سمعن بوصولها فحضرن لزيارتها فى اليوم ذاته ، ، لكنها آثرت أن تنفق الصباح كله مع دوللى وأولادها ، بعد أن أرسلت إلى أخيها رسالة صغيرة توصيه فيها بضرورة العودة لتناول الغداء فى بيته ، ثم ختمت رسالتها بقولها : « تعال ، فإن الله رحيم ! » .

وتناول ستيفان أوبلونسكى الغداء فى بيته ، واشتركت زوجته فى الأحاديث العامة التى دارت على المائدة ، فأدرك الزوج إمكان الوصول إلى تسوية . وبعد الغداء مباشرة جاءت كيتى شقيقة الزوجة ، ولم تكن قد عرفت « أنا » من قبل إلا لماماً ، فجاءت لتشبع فضولها إلى لقاء هذه السيدة المترفة ذات المكانة المرموقة فى مجتمعات (سانت بطرسبرج) . وبدا على الفور أن « أنا » أعجبت بجمال « كيتى » وشبابها ، فى الوقت الذى شغفت هى فيه حباً بأنا ، كما تشغف الفتيات عادة بالزوجات اللواتى يكبرنهن سناً ، وإن لم يبد على أنا فى الواقع أنها قد جاوزت العشرين ، بفضل مرونة حركاتها ونضارة

وجهها ، والحيوية الدافقة التى تبدو على محياها ، وفى ابتسامتها ونظراتها !

وحين مضت دوللى بعد الغداء إلى غرفتها ، نهضت أنا واتجهت مسرعة إلى أخيها ، فوجدته يشعل سيجاراً ، وإذ ذاك ابتدرته قائلة وهى تغمز له بعينيها : « ستيفا .. اذهب ، كان الله فى عونك ! » .. فألقى السيجار من فوره وقد فهم قصدها ، ومضى دون إبطاء .. بينما عادت هى فاستلقت على الكنبة إلى جوار كيتى وأخذت تداعب أطفال شقيقها الذين أحبوها فالتفوا حولها يمرحون ويعبثون .. وفى أثناء حديثها مع كيتى وجدت الفرصة مناسبة كى تقول لها : « لقد أنبأنى ستيفا بشىء عنك ، وأنا أهنئك .. لقد التقيت بفرونسكى فى المحطة وأعجبت به جداً ! » .. فتورد وجه كيتى حياء وسألتها : « أوه ؟ هل كان هناك حقاً ؟ .. وماذا قال لك ستيفا ؟ » .

— حدثنى عن الشائعات الرائجة ، فسررت بها . لقد صحبتنى فى القطار والدة فرونسكى فلم تكف عن إطرائه . إنه ابنها المفضل !

— وماذا قالت لك أمه عنه ؟

— قالت الكثير .. من ذلك مثلا أنه كان يرغب فى التنازل عن كل أملاكه لأخيه .. وأنه حين كان غلاماً يافعاً أنقذ امرأة من الغرق ، وقد ألحت على كى أزورها ، وسوف يسرنى أن أذهب إليها غداً .

ثم أضافت مغيرة دفة الحديث وهى تنهض لتمضى إلى مخدعها : « لقد طال مقام « ستيفا » فى حجرة دوللى .. حمداً لله ! »

● خرجت دوللى من حجرتها بمفردها عندما حان وقت تناول الشاى ، ولما رأت أنا ابتدرتها قائلة : « أخشى أن تكون غرفتك التى فى الطابق العلوى باردة ياعزيزتى. سوف أنقلك إلى هذا الطابق، كى تكونى قريبةمنى » .. فأجابتها «أنا» وهى تتفرس فى وجهها لتتبين مدى التسوية التى تمت بفضلها بين الزوجين المتخاصمين : «أوه !. لا داعى لأن تزعجى نفسك بسببى . إن أى مكان يناسبنى !؟ » .. وفى تلك اللحظة خرج الزوج من الغرفة وأقبل يتحدث إلى زوجته، فأدركت أنا من لهجته أنهما تصالحا ، فهمست لنفسها وقد سرها أنها كانت الوسيط فى الصلح : « حمداً لله ! » .. ثم مضت إلى دوللى فقبلتها !

وطيلة الأمسية كانت لهجة دوللى مع زوجها تغلب عليها — كعادتها — مسحة من السخرية .. فى حين كان ستيفان بادى السعادة والمرح ، ولكن ليس إلى الحد الذى يوحى بأنه قد نسى غلطته ! .. وفى نحو الساعة العاشرة فى لموعد الذى ألفت فيه «أنا» أن تودع ابنها « سريوشا » فراشه قبل أن تخرج للسهرة ، أحست شيئاً من الانقباض ، لفراقها عنه ، واشتاقت إلى التحدث عنه وتأمل صورته فاقتنصت أول فرصة ونهضت كى تحضر « ألبوم » الصور لتعرضه على أفراد الأسرة .. وفيما هى تعبر الردهة دق جرس الباب الخارجى ، فتساءلت دوللى : « ترى من يكون الطارق ؟ » .. وقالت كيتى : « لم يحن بعد وقت إرسال من يصحبنى فى عودتى إلى البيت .. كما

أن الوقت متأخر بالنسبة إلى أى زائر غريب ! » .. أما ستيفان فرجح أن يكون القادم أحد السعاة فى مكتبه أحضر له أوراقاً تتعلق بعمله .

وكانت أنا قد بلغت قمة السلم حين عاد الخادم الذى فتح الباب يعلن اسم الزائر الذى حضر .. بينما وقف الزائر نفسه فى وسط الردهة تحت أحد المصابيح ، فعرفته « أنا » على الفور : لم يكن غير فرونسكى ! .. وتملكها شعور غريب بالغبطة الممزوجة فى الوقت نفسه بالخوف من شىء مجهول ! .. وفى اللحظة التى استدارت فيها لتعبر الممشى العلوى للسلم رفع الشاب عينيه .. فرآها .. وعندئذ ظللت وجهه سحابة من الارتباك والإجفال ، فأومأت له برأسها إيماءة خفيفة ومضت ، وقد بلغ سمعها فيما بعد صوت شقيقها يرحب بالقادم فى حرارة ويدعوه للدخول ، وصوت هذا يعتذر رافضاً فى هدوء ورزانة !

وحين عادت أنا تحمل « ألبوم » الصور ، كان فرونسكى قد ذهب ، وستيفان يقول لهم موضحاً : « أنه جاء ليستفسر عن مأدبة العشاء التى تقررت إقامتها فى الغد لشخصية مشهورة حلت بالمدينة . وقد حاولت عبثاً إقناعه بالدخول الآن لقضاء بعض الوقت !» .

وتورد وجه كيتى ، وحسبت أنها وحدها قد أدركت سبب مجيئه فى تلك الساعة ، وسبب امتناعه عن الدخول . وقالت تحدث

نفسها : « لاشك أنه ذهب إلى البيت فلم يجدنى ، وأدرك أننى هنا ، لكنه لم يجرؤ على الدخول لأن الوقت متأخر ، ولوجود « أنا » بيننا ، وهى غريبة عنه ! » .

-٦-

● حل موعد الحفلة الراقصة الكبرى التى تواعدت كيتى وفرونسكى – يوم التقى فى بيتها بغريمه ليفين – على الذهاب إليها . ولم يكد الرقص يبدأ حتى كانت كيتى ووالدتها الأميرة شرباتسكى تصعدان سلم القصر الذى أقيمت فيه الحفلة ، وقد غمرته الأنوار الزاهية من كل جانب وامتلأت جنباته بأصص الأزهار وبالخدم ذوى السترات الحمراء ، وانبعث من حجراته طنين أشبه بطنين خلية نحل !

وفيما كانت المرأتان تلقيان على هندامهما وشعرهما نظرة أخيرة أمام المرآة ، قبل أن تدلفا إلى القاعة الكبرى ، بلغت مسامعهما أنغام الكمان تبدأ رقصة «الفالس» الأولى .. ثم أحاط بكيتى المعجبون ، من الشيوخ والشباب ، وطلب أحدهم منها وعداً بإحدى رقصاتها ، وكانت قد وعدت فرونسكى بأن تمنحه الرقصة « الرباعية » الأولى ، فوعدت هذا بالثانية .. ثم مشت إلى داخل القاعة فى بساطة لا تشوبها خيلاء أو شعور بمبلغ حسنها الرائع وأناقة ثوبها الوردى الذى يحليه حول الرقبة إطار من القطيفة السوداء . وكانت كتفاها العاريتان وذراعاها أشبه بالمرمر الناصع ، وعيناها تلمعان وشفتاها الورديتان تبتسمان ، فيكتمل بذلك كله مظهرها الفاتن ..



وعندئذ ظللت وجهه سحابة من الارتباك والإجفال فأومأت له برأسها إيماءة خفيفة ومضت ..

ولم تكد تتقدم فى القاعة خطوات حتى طلب مراقصتها رجل من أبرع الراقصين يدعى « كورسانسكى » ، وكان ذا وجه وسيم وجسم رشيق متناسب البناء ، فلم تشعر إلا وهو يحيط خصرها الدقيق بذراعه دون أن ينتظر موافقتها ! وتلفتت حولها تبحث عن شخص تودع معه مروحتها فلم تجد إلا مضيفتها ، التى ابتسمت وهى تتناولها منها .. وأطرى الرجل براعتها فى الرقص ، بالعبارة نفسها التى يقولها لكل امرأة يراقصها ، فابتسمت لإطرائه ومضت تدير عينيها فى أرجاء القاعة من فوق كتفه . لم يكن ذلك أول مرقص تحضره ، لكنها لم تكن تكثر من حضور المراقص ، فاستطاعت أن تراقب ما يجرى فى الحفلة فى استمتاع هادىء . فهناك فى ركن القاعة الأيسر نخبة من كواكب المجتمع الرفيع ، بينهن مدام كورسانسكى الفاتنة — زوجة الرجل الذى يراقصها — وكانت ترتدى زياً فاضحاً يجعلها شبه عارية ! .. ثم ربة القصر .. وستيفان ، زوج أختها دوللى .. وأنا كارنينا ، فى ثوب من القطيفة السوداء تبرز منه رقبتها كتمثال من العاج .. ثم فرونسكى ، ولم تكن قد رأته منذ تواعدا على حضور هذه الحفلة ، فى الليلة التى رفضت فيها الزواج من ليفين ! .. ولحظت كيتى أنه يطيل النظر إليها الآن وهى ترقص . فلما انتهت الرقصة قادها مراقصها إلى ذلك الركن المرموق ، حسب اختيارها . ولم يكد يخلى سبيلها هناك حتى التفت إلى أنا كارنينا قائلا فى جرأة وهو ينحنى لها :

— هل تشاركيننى هذا الفالس يا « أنا » ؟

فسألته ربة القصر : « ماذا ؟ هل تعارفتما ؟ »

— هل هناك من لم نتعارف معه ؟ إن زوجتى وأنا مثل الذئاب البيض .. كل الناس تعرفنا ! .. هذه الرقصة يا أنا ؟

فأجابت أنا : « أنا لا أرقص حين لا أستطيع الرقص ! »

— ولكن من المستحيل ألا يرقص المرء الليلة !

وفى تلك اللحظة أقبل فرونسكى ، فانحنى لها انحناءة غير ملحوظة ، فقالت وهى تضع يدها على كتف كورسانسكى : « حسناً ، ما دام ذلك مستحيلا الليلة ، فهيا بنا ! » .

وحدثت كيتى نفسها قائلة : « لماذا تعمدت « أنا » تجاهل انحناءة فرونسكى ؟ ترى ما الذى يحنقها عليه ؟ ! » .. أما هو فاقترب من كيتى يذكرها بالرقصة الرباعية التى وعدته بها ، ويعرب عن أسفه لأنه لم يتنبه إلى وجودها إلا الآن ، فأصغت إليه بأذنيها بينما كانت عيناها تتابعان « أنا » فى شغف وهى ترقص ، وانتظرت كيتى أن يطلب فرونسكى منها أن تراقصه الفالس ، لكنه لم يفعل ، فنظرت إليه مدهوشة .. وإذ ذاك تورد وجهه قليلا وبادر يسألها أن تراقصه .. لكنه لم يكد يضع ذراعه حول خصرها ويتأهب للخطوة الأولى ، حتى انتهت الرقصة وصمتت الموسيقى ، فرفعت كيتى عينيها إليه — وكان وجهه قريباً من وجهها — بنظرة ملؤها الحب والشغف .. لكنه لم يستجب لنظرتها ! وقد ظلت كيتى سنوات

طويلة تذكر هذا الحادث الذى حز فى نفسها وغمرها بموجة من الخجل !

وقد رقص فرونسكى وكيتى « الفالس » عدة مرات فى تلك الليلة .. ثم جاء دور الرقصة « الرباعية » فاشتركا فيها معاً . وطيلة هذه الرقصات لم يدر بينهما حديث ذو قيمة فى نظر الفتاة ، إلا حين سألها فرونسكى عن « ليفين » ، وهل حضر الحفلة ، ثم أضاف إلى ذلك أنه قد مال إليه وأعجب به !

على أن كيتى لم تتوقع نتيجة تذكر من أحاديثهما أثناء تلك الرقصات السريعة الحركة ، بل علقت كل آمالها على رقصة « المازوركا » التالية ، التى تتيح الفرصة لتبادل الكلام فى تؤدة وهدوء ، فصورت لنفسها أنه لا بد سيفاتحها بحبه فى صراحة أثناء هذه الرقصة . وكانت واثقة من أنه سيشاركها « المازوركا » هذه المرة كما رقصها وإياها فى حفلات أخرى سابقة ، فرفضت عروض خمسة شبان تقدموا إليها طالبين مشاركتها فيها ، معتذرة بأنها قد ارتبطت بصددها مع شخص آخر قبلهم ! .. وفيما كانت ترقص الرقصة الأخيرة السابقة للمازوركا ، بصحبة أحد الشبان الملحين الذين يتعذر على الفتيات رفض طلبهم ، وجدت نفسها مصادفة وجهاً لوجه أمام فرونسكى وأنا ! .. وكانت أنا تبدو كالثملة من الانفعال والغبطة : تختلج عيناها ، وتلمعان ، وترف على فمها ابتسامة السعادة الخالصة ، وتتسم حركاتها فى وقت واحد بالجلال

والاتزان ، والليونة والخفة ! .. فلم تملك كيتى إلا أن تسأل نفسها : « ترى أهى نشوة الإعجاب بالحفلة كلها ، التى تبعث فى أوصالها هذا الانفعال ، أم نشوة الإعجاب بشخص معين ؟ ومن يكون ؟ هل يمكن أن يكون .. هو ؟ إن الفرحة تلمع فى عينيها كلما وجه إليها كلمة ، وابتسامة الهناءة ترتسم على شفتيها الحمراوين .. ولكأنها تبذل مجهوداً كى تسيطر على نفسها ، فلا تظهر إمارات غبطتها للعيان ، لكن هذه الدلائل تأبى مع ذلك إلا أن تطفو على محياها ! » .

ومضت تسائل نفسها : ترى ما هو موقفه هو ؟ ثم اتجهت ببصرها إليه ، وسرعان ما ذعرت ، إذ رأت فى وجهه ما رأته فى وجه « أنا » ! ماذا جرى لتحفظه المألوف ، وتعبير وجهه الرزين ، غير المبالى ؟ إنه الآن كلما استدار نحوها يخفض رأسه ، كما لو كان يوشك أن يخر راكعاً عند قدميها ، وفى نظراته معنى الخضوع والرهبة ! إن نظرته كأنها تقول لأنا : « لست أريد أن أسىء إليك ، وإنما أريد أن أنقذ نفسى .. ولست أدرى كيف ! » .. وكان الحديث الذى يتبادلانه تافهاً فى ذاته ، ولكن بدا لكيتى كأن كل كلمة يقولانها إنما تقرر مصيرهما ومصيرها .. فغامت الدنيا كلها فى ناظريها ، واضطربت موازين الأشياء ! ولولا التربية القويمة الصارمة التى نشأت عليها لما استطاعت أن تحتفظ بثباتها وتواجه مقتضيات موقفها ، أى أن ترقص ، وتجيب عن سئلة مراقصها ، وتبتسم ! .. ولكن حين بدأت الاستعدادات لرقصة المازوركا

أدركت كيتى حرج مركزها : لقد رفضت عروض خمسة من الراقصين طلبوها ، اعتماداً منها على مراقصة فرونسكى ، وها هى ذى الرقصة تبدأ وهى لم تشترك فيها ، ولا ينتظر أن تفعل ، فقد كانت من النجاح فى المجتمع بحيث لن يخطر ببال أحد أنها لا تجد من تراقصه ، ومن ثم لن يجرؤ شخص آخر على التقدم لها !

وودت لو تزعم لأمها أنها تشعر بتعب مفاجىء وتنصرف إلى بيتها ، فمضت إلى أقصى غرفة الانتظار الصغيرة وتهالكت على مقعد مريح ، ثم راحت تهز مروحتها هزات سريعة قصيرة ، بغية التخفيف من حرارة الانفعال التى تلهب وجهها ، وقد عض قلبها يأس مروع ! .. ومرة أخرى استعادت فى ذهنها كل ما حدث ، ومضت تحدث نفسها قائلة : « لعلنى مخطئة ، لعل الأمر ليس كما استنتجت ! » .

وفجأة اقتحمت عليها الكونتة « نوردستون » عزلتها وبادرتها متسائلة : « كيتى ، ماذا جرى ؟ لست أفهم ! ألا ترقصين ؟ » .. فبدأت شفة كيتى السفلى تختلج انفعالا ، وأجابت بصوت يشرق بالدموع : « كلا ، كلا .. » ، وعندئذ قالت الكونتة تواسيها : « لقد طلب من « أنا » أن يراقصها المازوركا على مسمع منى ، كما سمعتها تسأله : ماذا ؟ ألا تنوى أن ترقصها مع كيتى ؟ » .. وهنا قطعت كيتى كلام محدثتها متبرمة وقالت : « أوه ! هذا لا يهمنى ! » .. لكن الكونتة أدركت حرج موقف الفتاة ، فطلبت من الراقص

كورسانسكى — الذى كان مقدراً أن يرقص معها — أن يراقص كيتى بدلا منها . وكان من حسن حظ كيتى أن مراقصها لم يشتبك معها فى ثرثرة تفرض عليها أن تتكلم فتفضح انفعالها . وأثناء الرقصة التقت بفرونسكى و « أنا » من قريب ، فازدادت شعوراً بتعاستها التامة . كان يبدو عليهما مظهر اللذين يحسان نفسيهما وحيدين فى القاعة الغاصة بالناس ! .. وعلى وجه فرونسكى لمحت كيتى تلك النظرة الخاضعة الحائرة التى ترتسم فى عينى الكلب الذكى حين يدرك أنه قد ارتكب فعلة حمقاء !

ثم ابتسمت « أنا » فانعكست ابتسامتها على فمه . وعادت فبدت عليها سمة التفكير ، فبدا هو بدوره جاداً ! .. وأحست كيتى أن قوة خارقة تجذب نظرها إلى أنا . ورأتها فاتنة فى كل شىء : فى جمالها ، وثيابها ، وحليها ، وحركاتها ، وشعرها المرسل .. لكن فتنتها كانت تنطوى على طابع يجمع بين الرهبة والقسوة ! .. وأعجبت كيتى بها أكثر من أى وقت مضى ، لكنها تألمت منها أيضاً ألماً حاداً ممزقاً نمت عنه ملامح وجهها ، فلما حاذاها فرونسكى أثناء الرقصة لم يعرفها فى البداية من فرط تغيرها ، وحين عرفها بادرها : « يا لها من حفلة ممتعة ! » ، فلم تزد على أن غمغمت قائلة : « نعم ! » .

ولما انتهت الرقصة أعربت « أنا » عن رغبتها فى الانصراف ، فألح عليها مضيفوها كى تبقى للعشاء ، وللرقصة التالية ، لكنها أصرت قائلة : « لقد رقصت الليلة فى موسكو أكثر مما رقصت طيلة الشتاء

فى بطرسبرج ! » .. ثم دارت ببصرها باحثة عن فرونسكى ، الذى وقف بالقرب منها ، واستطردت فقالت : « ينبغى أن أستريح بعض الوقت قبل أن أسافر » . فسألها فرونسكى على الفور : « إذن فأنت تصرين على السفر غداً ! » .. فأجابته وهى تعجب لجرأته ، وترمقه بنظرة وابتسامة أشعلتا فى كيانه النار : « أعتقد ذلك » .. ثم انصرفت !

-٧-

● أبرقت « أنا » إلى زوجها فى صباح اليوم التالى منبئة إياه باعتزامها مبارحة موسكو فى اليوم نفسه . وأنفقت الضحى كله فى إعداد أمتعتها تأهباً للرحيل ، وبعد الغداء مضت إلى حجرتها لترتدى ثيابها ، فتبعتها إليها زوجة أخيها « دوللى » — وقد لاحظت اكتئابها وغرابة أطوارها — وابتدرتها بقولها : « ما أغرب حالك اليوم يا أنا ! » ، فأجابتها هذه وهى تنحنى على حقيبتها تعبث بها لتخفى انفعالها : « أنا ؟ أتظنين ذلك ؟ هذا يحدث لى أحياناً . أحس بميل إلى البكاء ، لكنها نوبة لن تلبث أن تنقضى . قبيل مغادرتى بطرسبرج أحسست بإشفاق من السفر ، واليوم أشفق من العودة ! »

وطفت الدموع فوق مقلتى « أنا » وهى تتكلم ، فنظرت إليها مضيفتها بإمعان ، وقالت : « لقد صنعت خيراً بمجيئك » .. فواجهتها « أنا » بعينيها المبللتين بالدمع ، وأجابت : « لا تقولى هذا

يادوللى ، أنا لم أصنع شيئاً . وإنما هو الحب الذى مكنك من الصفح ، وصنع كل شىء ! »

— بل لولاك لحدث ما لا يعلم غير الله ! .. ما أسعدك ياأنا ، كل شئ صاف وطيب فى قلبك .

— لكل قلب منغصاته ، كما يقول الإنجليز !

— لكن شيئاً ما لا ينغصك أنت فيما أحسب .. كل ما فيك صفاء ونقاء !

.. فصمتت أنا هنيهة ، ثم قالت فجأة وقد رفت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، وتهالكت على مقعد مريح : « بل عندى ما ينغصنى . أتعلمين لماذا أرحل اليوم بدلا من غد؟ إنه اعتراف يثقل على قلبى ، وقد قررت أن أكاشفك به ! » .. وأدهش دوللى أن ترى محدثتها وقد صعد الدم إلى وجهها فجأة ، وهى تردف قائلة : « نعم ، وهل تعلمين لم لم تأت كيتى اليوم للغداء ؟ لأنها تغار منى ! .. لقد أفسدت عليها متعة سهرة الأمس . ولكن صدقينى إنها لم تكن غلطتى ، أو قولى إن نصيبى فيها كان ضئيلا ! » .. فقالت لها دوللى ، تهون عليها الأمر : « لقد ذكر لى ستيفان أنك رقصت المازوركا مع فرونسكى ، وأنه .. » .. فقطعت « أنا » كلامها قائلة : « إن الأمر كله حدث دون قصد .. بدأ بمزحة ثم انقلب فى النهاية جداً ، ربما برغم إرادتى ! .. والواقع أنى أكون غاية فى التعاسة لو كان هو قد نظر إلى المسألة نظرة جدية .. لكنى واثقة

أن كل شيء سوف ينسى ، ولن تعود كيتى تحس نحوى بالكراهية ! »

— دعينى أصارحك بدورى يا أنا ، إنى لم أعد متحمسة لزواج فرونسكى من كيتى ، مادام قديراً على أن يقع فى هواك بهـــذه السرعة !

— إنها حماقة كبرى فى الواقع . وها أنذا أغادر موسكو بعد أن كسبت عداء كيتى ، التى أحبها وأعجب بها . حقاً ما أعذبها ! لكنك ستصلحين الأمر كله بلباقتك ، أليس كذلك يا دوللى ؟

وفاضت الدموع من عينيها ، فأجابتها مضيفتها قائلة : « عداء كيتى ؟ لا تغالى يا عزيزتى » .. وجففت أنا دمعها بمنديلها ثم نهضت لتكمل ارتداء ثيابها للسفر . وحين أزف وقت الرحيل وصل ستيفان ليرافق شقيقته إلى المحطة ، وعانقت دوللى ضيفتها هامسة لها : « تذكرى يا أنا أنى لن أنسى صنيعك من أجلى ما حييت ! إنى أحبك وسوف أعتبرك دائماً أعز صديقة لى ! » .

.. وفى القطار تنفست أنا الصعداء ، بعد أن ودعها أخوها ودوى صفير القاطرة إيذاناً بالرحيل . ثم حدثت نفسها قائلة : « لقـد انتهى كل شيء ، والحمد لله ، وغداً أكون بين ابنى سيريوشا وزوجى أليكسى ، وتعود حياتى سيرتها الأولى ، لطيفة كالمعتاد » .. ثم فتحت إحدى حقائبها فأخرجت منها وسادة صغيرة وضعتهـا على ركبتيها ودثرت ساقيها بغطاء سميك ، وإذ استراحت إلى هـذا الوضع أخرجت كتاباً يتضمن قصة إنجليزية وشرعت تقرأ . لكنها

لم تتقدم فى القراءة وتفهم ما تقرأ إلا بعد أن ابتعد القطار عن ضجيج المحطة وسكتت مناقشات الركاب بصدد العاصفة الثلجية التى كانت تضرب زجاج النوافذ بكرات الثلج الثقيلة . وكان من عادة « أنا » إذا انهمكت فى قراءة قصة أن تعيش مع بطلاتها وأبطالها بكل مشاعرها ، فلما رافقت بطل القصة هذه المرة حتى حصل على أمنيتيه فى السعادة المنشودة — حسب عقليته الإنجليزية — وهما : لقب « سير » ، وضيعة من الأرض ، ثم تأهبت لأن تمضى معه إلى ضيعته الجديدة .. أحست فجأة أنه ينبغى أن يخجل من نفسه ، وأن تخجل هى منه ، ولكن ما هو الشيء الذى ينبغى له ولها أن يخجلا منه ؟

سألت نفسها هذا السؤال كالمدهوشة ، ثم ألقت الكتاب جانباً وغاصت فى مقعدها ، وأخذت تستعيد ذكريات أيامها فى موسكو : تذكرت حفلة الأمس ، وتذكرت فرونسكى بوجهه الناطق بالشغف والوله ، ثم تذكرت كل تصرفاتها معه . لم يكن فى شيء من ذلك ما يخجل ، ومع ذلك فقد ازداد شعورها بالخجل حدة وإلحاحاً ، وكأن صوتاً يهمس لها كلما فكرت فى فرونسكى : « دافئ ، دافئ جداً ، ساخن ! » .. فلبثت تسائل نفسها فى عزم وجرأة : « ماذا ، أيمكن أن توجد — الآن أو فى المستقبل — بينى وبين هذا الضابط الشاب أية علاقة غير التى تربطنى بكل من أعرف ؟ » .

وضحكت فى احتقار لهذا الظن ، ثم تناولت كتابها من جديد ، لكنها فى هذه المرة عجزت عن حصر ذهنها فيما تقرأ ، وإنما راحت

تعبث بسكين الورق التى فضت بها صفحات الكتاب ، فألصقت سطحها الناعم البارد بخدها . وكادت تضحك بصوت عال لهذا الشعور بالغبطة والنشوة الذى تملكها على حين غرة . أحست شيئاً فى داخلها يضغط أنفاسها ، بينما اتخذت كل الأشكال والأصوات فى وعيها طابعاً « حاداً » غير مألوف .. ولم تفق من شرودها إلا حين بلغ القطار المحطة التالية ، فنهضت بعد أن تدثرت ، ومضت إلى باب المقصورة تنشد الهواء . وحين فتحت الباب اندفع منه الجليد والهواء اللاذع ليصارعاها على عتبته ، لكنها استمتعت بالصراع وهبطت إلى الرصيف . وهنا فقط وجدت فى حمى العربات أماناً من الريح العاصفة ، فجذبت بضعة أنفاس عميقة من النسمات المثلوجة وراحت تجيل بصرها فى أرجاء المحطة المضاءة بالأنوار . كان الرصيف مأهولا بالمسافرين والوافدين والمودعين ، وقد كساهم الجليد بلونه الناصع الشبيه بلون القطن المندوف ، كما كسا جميع معالم المحطة وعجلات القطار وعربات نقل البضائع التى تروح وتجىء على الرصيف .. والناس يهرعون كل إلى وجهته مسرعاً لا يلوى على شىء ، هرباً من العاصفة العاتية . وكانت الريح قد اشتدت ، فجذبت « أنا » نفساً أخيراً طويلا من الهواء النظيف المنعش وأخرجت يديها من فراء كميها كى تمسك بمقبض العربة وتدخل إلى مقصورتها .. ولكن فى تلك اللحظة برز أمامها ضابط ، تبينت فيه على الفور فرونسكى !

ومد الشاب أصابعه إلى طرف قبعته ثم انحنى لها متسائلا : « هل ترغب السيدة فى شىء ؟ وهل أستطيع خدمة ما ؟ » .. وحدقت فيه « أنا » طويلا دون أن تجيب ، وبرغم أنه كان واقفاً فى ظل الضوء ، فإنها لمحت التعبير الذى لاح فى وجهه وعينيه . كان هو ذلك التعبير النشوان الذى ينم فى الوقت نفسه عن التوقير والتحية ، التعبير الذى كان له أكبر الأثر فى نفسها خلال الليلة السابقة ! .. ونسيت ما كانت قد زعمته لنفسها منذ هنيهة ، من كونه لا يزيد فى نظرها على أى رجل آخر ممن تعرف ، بحيث لا يستحق منها أن تفكر فيه لحظة ، وبدلا من ذلك تملكها شعور بالفرحة الطاغية غير الإرادية .. ووجدت صوتها أخيراً لتسأله ، وإن كانت فى غنى عن جوابه الذى تعرفه سلفاً : « لم أكن أعلم أنك مسافر فى القطار نفسه .. إلى أين ؟ ! » .. وأشرق فى وجهها الهناء والشوق وهى تتكلم ، فأجابها فرونسكى وهو ينظر فى عينيها عن كثب : «ما الذى جاء بى ؟ تعرفين جيداً أنى جئت لأكون حيث تكونين . إنه أمر لا حيلة لى فيه ! »

وفى تلك اللحظة بلغت العاصفة أشدها ، فراحت تنتزع الأشياء الخفيفة من أماكنها ، وتلطم الوجوه بقسوة . ولكنها برغم ضراوتها بدت لأنا رائعة ممتعة ! .. كيف لا وقد خاطبها فرونسكى بالعبارات التى كانت روحها تتوق إلى سماعها ، وإن خشيتها بعقلها ؟ ! .. ومضت لحظات ، قبل أن تستطيع هى الإجابة قائلة : « إنه غير لائق هذا الذى تقوله ، ورجائى إليك – إذا كنت رجلا فاضلا – أن

تنسى العبارة التى تفوهت بها ، كما سأنساها أنا ! » .. ولكنه مضى فى كلامه بلهجة العناد والحزم نفسها فقال : « ما من كلمة من كلماتك ، أو حركة من حركاتك ، يمكن أن أنساها يوماً ! إن هذا فوق استطاعتى ! » .. فقالت مغمغمة « كفى ! : كفى ! » . وحاولت وهى تصيح به أن تضفى مسحة صارمة على وجهها ، الذى كان الشاب يحدق فيه بشراهة . ثم صعدت مسرعة إلى العربة ومرقت إلى الممر المؤدى إلى مقصورتها .. لكنها فى وسط الممر تمهلت ، تسترجع فى ذهنها ماحدث . وبوحى من غريزتها أدركت أن ذلك الحديث القصير قد قرب بينهما إلى حد مخيف ! .. وبقدر ما أفزعها الأمر ، أمتعها هذا وسرها ، فاستأنفت سيرها إلى مقصورتها ، حيث جلست فى مكانها وقد استبد بها انفعال حاد يفوق كل ما أحسته من قبل ! .. وطيلة الليلة لم تذق للنوم طعماً ، لكن المشاعر التى تجاذبت حواسها ، والرؤى التى ملأت خيالها ، لم تكن كئيبة بغيضة ، بل كانت على العكس مشرقة ، بهيجة ، مباركة !

وحين غادرت القطار ، كان أول من وقع عليه بصرها فى محطة بطرسبرج : زوجها ! .. رباه ، لم تبدو أذناه بهذه الهيئة ؟ وأقبل هو نحوها وعلى فمه ابتسامته الساخرة المعهودة ، وعيناه الكبيرتان المتعبتان ترمقانها . ونهش قلبها شعور بالضيق وعدم الارتياح ، كأنما توقعت أن تراه على غير ما عهدت وعرفت ! .. ولأول مرة تنبهت إلى النفور الذى أحسته نحوه حين لقيته ! أما هو فاستقبلها

متظرفاً ، يقول : « إن الشوق إليك يلهب — كما ترين — زوجك الرقيق المخلص » .. فسألته : « هل سيريوشا بخير ؟ » .. فقال : « أهذه كل مكافأتى على أشواقى ؟ .. إنه بأتم خير ! »

● لم يحاول فرونسكى أن ينام طيلة تلك الليلة ، وإنما جلس فى مقعده بالقطار ينظر إلى ما يجرى أمامه دون أن يلقى بالا إليه أو إلى الناس الذين حوله ، وكأنهم فى نظره ليسوا من البشر ! .. بل لعله فى شروده لم ير أحداً ، أو شيئاً ما ، وإنما أحس بنفسه ملكاً ، لا لكونه اطمأن إلى أنه قد ترك فى نفس « أنا » أثراً — ولم يكن فى الواقع قد اطمأن إلى ذلك بعد ! — بل لأن الأثر الذى تركته هى فى نفسه قد أفعم قلبه غبطة وزهواً ! .. ولم يكن يدرى ماذا ستكون نتيجة هذا كله ، لكنه لم يفكر فى ذلك قط ، مكتفياً بإحساسه أن كل قواه — التى كانت حتى الآن مشتتة ضائعة — قد تركزت اليوم فى شيء واحد ، وسعت فى نشاط مخيف إلى هدف واحد منشود .. وإنه لسعيد بذلك ! .. إنه لا يعلم سوى أنه قد ذكر لها الحقيقة حين قال لها إنه جاء ليكون حيث تكون ، فإن كل سعادته — أو المعنى الوحيد للحياة عنده — قد انحصرا الآن فى رؤيتها ، وسماع صوتها . وحين غادر مقصورته فى محطة (بولوجوفا) ليبحث عن زجاجة من المياه المعدنية ، ووقع نظره على أنا ، أفصحت كلمته الأولى لها عما يختلج فى قلبه . ولكم يسره أنه قد فعل ، وأنها تعرف ذلك الآن ، وتفكر فيه ! .. إنه لم ينم طيلة الليلة ، فحين عاد إلى مقعده — بعد

أن التقيا – لبث يسترجع فى ذهنه كل صورة رآها عليها منذ عرفها وكل كلمة نطقت بها . وأمام خياله سبحت صور مستقبلهما المحتمل معاً ، فاختلج قلبه انفعالا بعاطفته !

وحين غادر القطار فى بطرسبرج ، بعد ليلته المؤرقة ، أحس نشاطاً وانتعاشاً كما لو كان خارجاً لتوه من حمام بارد ! .. فتمهل قرب مقصورتها ينتظر خروجها ، وقد أخذ يحدث نفسه وهو يبتسم دون وعى : « مرة أخرى سأراها ، أرى مشيتها ووجها .. سوف تقول شيئاً ، أو تدير رأسها ، أو ترمقنى بنظرة ، وربما تبتسم ! » .. لكنه قبل أن يراها تخرج ، رأى زوجها ، الذى كان ناظر المحطة يرافقه فى إجلال ويفسح له الطريق بين الجماهير . وعندئذ ، ولأول مرة ، أدرك فرونسكى بوضوح أنها تمت بصلة إلى شخص غيره ، إلى زوج !

نعم ، كان يعلم من قبل أن لها زوجاً ، لكنه كان لا يكاد يؤمن بوجوده .. أما الآن فقد آمن بوجوده ، ولا سيما حين رآه يأخذ ذراعها فى ذراعه ! .. وضايقه أن يرى « غريمه » ، وأحس أن أحداً غيره ليس من حقه أن يحب « أنا » ! .. فحزم جرأته واقترب منها ، وخيل إليه وهو يرقب اللقاء الأول بين الزوجين أن المرأة تخاطب زوجها بشىء من التحفظ ، فحدث نفسه : « إنها لا تحبه .. ولا يمكن أن تحبه ! » .. وفى اللحظة التى أوشك أن يحاذيها لاحظ مزهواً أنها تنبهت إلى اقترابه وأدارت رأسها نحوه ، فلما رأته استدارت مرة أخرى إلى زوجها .. فخاطبها الشاب وهو ينحنى لها ولزوجها معاً :

« هل قضيت ليلة مريحة ؟ » فأجابته : « نعم ، أشكرك » ، ونظرت إلى زوجها لترى ما إذا كان يعرف فرونسكى ، فنظر الزوج إليه فى فتور وهو لا يكاد يذكر أنه رآه من قبل . فابتدرته « أنا » تقدم إليه صديقها الجديد : « الكونت فرونسكى » .

فقال أليكسى وهو يمد يده إلى الشاب فى غير احتفال « آه ، أعتقد أننا لسنا غريبين . إذن فقد ذهبت « أنا » فى رفقة الأم ، وعادت فى رفقة الابن ! » ، ثم خاطب فرونسكى قائلا : « لعلك عائد من الأجازة ؟ » .. وقبل أن يدع له فرصة الرد استدار ثانية إلى زوجته فى لهجة المزاح : « وهل ذرف مودعوك الدموع الغزار فى موسكو عند سفرك ؟ » .. وبهذا التصرف أفهم الزوج فرونسكى أنه يود أن ينفرد بزوجته ، ثم لم يكتف بذلك بل نظر إليه ورفع يده إلى قبعته مودعاً . لكن فرونسكى التفت إلى أنا قائلا : « أرجو أن يكون لى شرف زيارتك فى منزلك » ، فرمقه أليكسى بنظرة باردة وقال فى تكلف : « بكل سرور . نحن نستقبل ضيوفنا كل يوم اثنين » .. وعندئذ ودعهما فرونسكى وانصرف !

وهنا بدأت « أنا » تسائل زوجها عن ابنهما سربوشا ، وكيف كانت حاله أثناء غيابها ، فأجابها : « على خير ما يرام . والواقع أنه لم يتألم لفراقك مثل ما فعل زوجك ! حمداً لله ، إنى لن أجلس إلى مائدة العشاء وحدى بعد الآن » .. ثم ضغط يدها طويلا وابتسم ، وهو يعينها على الصعود إلى عربتهما !

الفصل الثانى

- ٨ -

• كان أفراد الطبقة الرفيعة المترفة فى مجتمعات (بطرسبرج) – كلهم أو أكثرهم – يعرف بعضهم بعضاً ويتزاورون . وكانوا منقسمين إلى جماعات ، توطدت صلات أنا كارنينا بثلاث منها : إحداها جماعة زملاء زوجها ومرؤوسيه من رجال الحكومة ، لكن هذه الجماعة التى لا هم لها غير التحدث فى السياسة وشئون الرجال ، لم تكن تلقى اهتماماً من « أنا » ، فكانت تتجنب مجالستها فى أكثر الأحيان !

وكانت الجماعة الثانية هى التى أعانت زوجها على الارتقاء فى عمله ومنصبه ، وتتزعمها الكونتة « ليديا إيفانوفا » ، وهى تضم خليطاً من عجائز النساء المحسنات ، القبيحات الخلقة ، والرجال النابهين الطموحين . وقد استطاعت أنا – بمرونتها ولباقتها – أن تجعل لنفسها مركزا ممتازاً بين أفراد هذه الجماعة ، فكان لها بينهم أصدقاء وصديقات . لكنها على أثر عودتها من رحلتها الأخيرة إلى موسكو نفرت كذلك من هذه الجماعة التى يسودها النفاق ، ولم تعد تتردد على الكونتة ليديا إلا فيما ندر !

أما الجماعة الثالثة ، فكان أفرادها يركزون جل همهم فى حضور المراقص ، وإقامة المآدب ، والتنافس فى مظاهر الأناقة والزينة

والأزياء . وكانت تربط « أنا » بهذه الجماعة زوجة ابن عمها الأميرة « بتسى تفرسكوى » التى كان دخلها السنوى يزيد على مائة وعشرين ألف روبية ! .. وقد حاولت أنا فى البداية أن تتجنب مجتمع الأميرة « بتسى » قدر طاقتها ، فراراً من التورط فى نفقات لا قبل لها بها ، لكنها على أثر عودتها من موسكو فعلت عكس ذلك : تجنبت المجتمعات الجادة ، وأكثرت من ترددها على مجتمعات الأغنياء والمترفين ! ..وهناك صارت تلتقى بفرونسكى ، ولاسيما فى بيت الأميرة بتسى ابنة عمه . وكان فرونسكى يغشى كل مكان يحتمل أن يرى فيه أنا ، ويتحدث إليها عن حبه ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ! ورغم أنها – من ناحيتها – لم تشجعه ، لكنها فى كل مرة التقيا فيها ، كان ينتابها ذلك الانفعال الغامض البهيج الذى أحسته حين رأته لأول مرة فى القطار ! وفى البداية اعتقدت « أنا » – مخلصة – أنها تكره منه جرأته على مطاردتها على هذه الصورة . لكنها حين ذهبت إلى إحدى السهرات التى كانت تتوقع أن تراه فيها ، ولم تجده ، أحست بخيبة أمل ، أشعرتها بمدى مغالطتها لنفسها وبأن مطاردة الشاب لها لم تكن بغيضة إليها !

وفى إحدى حفلات الأوبرا التى ضمت علية القوم ، التقى فرونسكى بابنة عمه الأميرة بتسى فى مقصورتها ، فابتدرته متسائلة « لم لم تحضر مأدبة العشاء هذه الليلة ؟ » . ثم أضافت إلى ذلك قائلة فى صوت هامس وهى تبتسم : « إنى لأعجب لبعد نظر العشاق

وصدق إحساسهم بالغيب . إنها لم تحضر أيضاً ! » . فرمقها فرونسكى بنظرة تساؤل ، متجاهلا مغزى عبارتها ، بينما استطردت هى : « ها قد وقعت فى الفخ يا بطل ! » . فقال لها : « إن رغبتى الكبرى هى أن أقع فيه ! وإذا كان لى ما أشكو منه فهو أنى لم أقع فيه كل الوقوع . لقد بدأت أفقد الأمل ! » . ثم تناول المنظار المكبر فوضعه أمام عينيه وراح يذرع ببصره مقاعد المسرح ، كأنما يبحث عن شخص معين ، فلما لم يجد هذا الشخص ، قال للأميرة : « أخشى أن يكون موقفى مثيراً للسخرية ! » .

لكنه كان على يقين من أن مخاوفه لا تستند إلى أساس ، وأن المجتمع قد يسخر من العاشق الذى يفشل فى حبه لفتاة ، أو لامرأة غير متزوجة ، لكنه لا يسخر البتة — بل قد يصفق ! — للرجل الذى يطارد بحبه ، فى استهتار ، زوجة رجل آخر .. ويجعل هدفه الأول فى الحياة أن يغريها بالسقوط !

ولم تنتظر الأميرة بتسى حتى تنتهى الرواية ، بل خرجت قبل الفصل الأخير فاستقلت عربتها إلى بيتها ، كى تكون فى استقبال ضيوفها . فلما بلغت البيت ، بادرت إلى إبدال ثيابها وإصلاح زينتها . ثم أمرت بإعداد الشاى فى حجرة الصالون الكبرى . ولم يمض قليل حتى تقاطرت عربات الضيوف على باب البيت ، ثم دخلوا يتبع بعضهم بعضاً إلى حيث تألفت منهم جماعتان : جماعة تتوسطها ربة الدار ، والجماعة الأخرى فى أقصى القاعة تتوسطها

زوجة أحد السفراء ، وكانت امرأة حسناء ترتدى ثوباً من القطيفة السوداء . وحاولت الأميرة بتسى أن تجمع شمل الجماعتين ، فهتفت بزوجة السفير : « أحقاً أنت زاهدة فى تناول الشاى؟ تعالى وانضمى إلينا » . فأجابتها هذه وهى تبتسم ثم تواصل ما انقطع من حديث جماعتها : « كلا ، نحن سعيدات هنا ! » . وكان حديث الجماعة فى الواقع شائقاً مثيراً ، يدور حول أنا كارنينا وزوجها ! قالت إحدى صديقات الزوجة : « لقد تغيرت « أنا » تغيراً كبيراً منذ عادت من موسكو . طرأ عليها طابع غريب ! » .. فعلقت زوجة السفير على كلامها قائلة : « فى رأيى أن أكبر تغير طرأ عليها أنها أحضرت معها ظلا لها : « فرونسكى » ! ثم توالت التعليقات من بقية الحاضرات :

— إن المرأة تكره بطبعها ألا يكون لها ظل !

— نعم ، لكن العادة جرت بأن النساء ذوات الظلال تكون نهايتهن سيئة ..

— إن مدام كارنينا امرأة رائعة . أنا لا يعجبنى زوجها ، لكنى أحبها هى .

— ولم لا يعجبك زوجها ؟ إنه رجل ممتاز ، بل إن زوجى يؤكد أنه طراز نادر من الساسة ، قل نظيره فى أوربا بأسرها !

— وزوجى أيضاً يقول عنه ذلك ، لكنى لا أصدق قوله . وفى رأيى أنه غبى كبير ، وهذا يوضح كل شىء !

— يا للسانك اللاذع ! إن « أنا » فاتنة وظريفة ، فما ذنبها إذا أحبها الرجال جميعاً ، وتبعوها مثل ظلها ؟ إذا لم يتبعنا أحد مثل ظلنا ، فليس من حقنا أن نلومها هى !

— أوه ، أنا لا ألومها البتة ..

وانتهت المناقشة عند هذا الحد ، فانضمت الجماعة إلى الحلقة الأخرى التى تتزعمها ربة البيت . ولم تلبث هذه أن هتفت تحيى فرونسكى الذى دخل فى تلك اللحظة : « آه ، ها أنت قد جئت أخيراً ! » . وكان فرونسكى يعرف كل المدعوين والمدعوات ، رغم حداثة عهده برؤيتهم جميعاً ، ولهذا دخل المكان فى هدوء الداخل على قوم كان معهم منذ لحظات . وفيما هو يجيب عن أسئلة بعضهم فى شأن الأوبرا التى شهدها ، والنظارة الذين لقيهم هناك ، وصل إلى أسماع الحاضرين والحاضرات وقع خطوات على السلم ، وكانت الأميرة بتسى تعلم أن القادمة هى أنا كارنينا ، فنظرت إلى فرونسكى ، وإذا هو يتطلع فى لهفة إلى الباب .. ثم يحدق فى الداخلة بنظرة ملؤها الفرح والانتباه ، وشىء من الخجل ! وأخيراً نهض واقفاً ، بينما دخلت أنا القاعة منتصبة القامة كعادتها ، تسير بخطوتها السريعة الحازمة الخفيفة التى ميزتها عن بقية نساء مجتمعها ! .. ولما بلغت أنا مكان مضيفتها صافحتها وابتسمت ، ثم دارت ببصرها فى القاعة وعلى شفتيها الابتسامة نفسها ، فلما التقت نظراتها بعينى فرونسكى انحنى لها إجلالا ، وقدم لها مقعداً تجلس عليه ! وقابلت

هى صنيعه بإيماءة خفيفة ، وقد تورد وجهها قليلا .. ثم لم تلبث أحاديث الجماعة أن عادت سيرتها الأولى . وحدثت « أنا » الحاضرين عما سمعته فى منزل الكونتة ليديا من تفصيلات شائقة عن الحياة فى الهند ، رواها أحد المراسلين العائدين من هناك . ثم استدارت «أنا» فجأة نحو فرونسكى ، الذى كانت حواسه معلقة بفمها ، وابتدرته قائلة : « لقد تلقيت خطاباً من موسكو ، جاء فيه أن « كيتى شرباتسكى » مريضة ، وفى حالة سيئة ! » .

فغمغم فرونسكى قائلا وقد عقد حاجبيه : « مريضة ؟ » .. ولم يزد على ذلك شيئاً ، فسألته أنا : « ألا يهمك ذلك ؟ » .. فقال : « بل يهمنى جداً .. ماذا جاء فى الخطاب ؟ ! » . لكن « أنا » تجاهلت سؤاله ، ثم نهضت ومضت نحو مائدة ربة البيت ، حيث طلبت إليها أن تصب لها قدحاً من الشاى ، ثم عادت تحمله إلى مائدة منعزلة فى أقصى القاعة ، فبادر فرونسكى إلى اللحاق بها . وعاد يسألها عما تضمنه الخطاب الذى تلقته ، فقالت متجاهلة سؤاله : « كثيراً ما أعتقد أن الرجال لا يفهمون الأمور المنافية للشرف فى تصرفاتهم ، وإن تشدقوا بالتحدث عنها دائماً ! » .. فوجم قليلا ، ثم قال لها : « لست أفهم ما تعنين تماماً . ماذا هناك؟» قالت : « لقد أخطأت فى تصرفك ، غاية الخطأ ! » . فقال : « أو تحسبيننى لا أعلم أنى أخطأت ؟ .. ولكن من كان السبب ؟ » .. ولم تستطع إخفاء اضطرابها ، فقالت وعيناها تكذبان قولها :

– هذا يظهر أنك بلا قلب !

فابتسم هو وقال : « لكن الأمر الذى تحدثيننى عنه يتعلق بخطأ كما سمعت منك الآن ، فأى دخل فى ذلك للحب ؟ ! » .. فقالت له جادة ، وقد ذهب عنها اضطرابها : « تذكر أنى منعتك من أن تنطق بهذه الكلمة الكريهة . لقد طالما أردت أن أصارحك بهذا ، وقد جئت الليلة خصيصاً لهذا الغرض » .

ونظر فرونسكى إليها وهى تتكلم ، فراعه منها جمال روحانى جديد يشع فى وجهها . وقال فى بساطة وجد : « ماذا تريديننى أن أفعل ؟ » . فقالت : « أريدك أن تسافر إلى موسكو ، وتسأل كيتى الصفح ! » . فقال : « أنت تريدين ذلك ؟ ! كلا ! لست أعتقد هذا ! » . وكان قد لمح فى عينيها أنها تقول غير ما تريده ، فأجابها بذلك فى ثقة ، لكنها أردفت قائلة : « إذا كنت تحبنى – كما تقول – فافعل ما أطلبه منك ، كى تسكن نفسى وتستريح ! » وعندئذ أشرق وجهه وهتف بها جذلا : « ألا تعلمين أنك فى حياتى كل شىء ؟ وأننى لست أنعم بسكينة النفس التى تطلبينها ، وليس فى وسعى أن أعطيك إياها ، بل ليس فى وسعى أن أفكر فيك وفى نفسى باعتبارنا شخصين مختلفين ! .. فالواقع الذى لاأشك فيه أننا شخص واحد ! ولست أرى أن هناك فرصة لسكينة النفس ، سواء لك أو لى ! نعم ، لست أرى أمامنا غير اليأس والتعاسة ، اللهم إلا إذا شئت أنت أن تفسحى لنا كلينا مجال الأمل فى السلام

المنشود ! فهل أطمع فى أن تتداركى ذلك الأمل ، قبل فوات الأوان ؟ ! » .

وكان صوته وهو ينطق بالعبارة الأخيرة أشبه بالهمس ، لايكاد يبين ، لكن أذنيها المرهفتين لم يفتهما التقاط كل حرف من حروف عبارته . ثم أجهدت كل قوى ذهنها لتقول ما ينبغى أن يقال ، لكنها بدلا من ذلك تركت عينيها تستريحان على محياه ، وقد أفعمتا حباً . ولم تجب ! .. فحدث هو نفسه قائلا : « لقد لانت ، فى الوقت الذى كنت فيه قد بدأت أيأس ! نعم ، لم تلح بعد نهاية الطريق الذى سلكته .. لكنها لانت ! » .

وانتزعته من أفكاره بقولها : « افعل هذا لأجلى . لا تقل مثل هذه الأشياء لى ، ولنكن صديقين ، وكفى ! » .. ولكن عينيها قالتا غير ما قال لسانها ، فأجابها هو : « لن يكون هذا أبداً ، وأنت تعرفين ذلك : إما أن نكون أسعد الناس ، أو أشقاهم ، فتقرير ذلك فى يدك أنت ! » ، وهمت بأن تقول شيئاً ، لكنه واصل حديثه فقال : « لست أسألك إلا شيئاً واحداً : أن تدعينى أحتفظ بالأمل والألم معاً ، كما هو شأنى الآن ! ولكن إذا تعذر ذلك ، فما عليك إلا أن تأمرينى بالاختفاء من حياتك ، وعند ذلك لا تعودين تريننى على الإطلاق ! » . وسكتت أنا هنيهة ثم قالت له : « لست أبغى أن انتزعك من محيطك ! » ، فقال : « لا تغيرى شيئاً . دعى كل شىء على حاله . هذا كل ما أريده ! » . وكان وجهه إلى باب

القاعة فشاهد فى هذه اللحظة اليكسى الكسندروفتش ، زوج أنا ، داخلا فى مشيته الهادئة الثقيلة ، فلفت نظرها إلى ذلك ، ورأى اليكسى زوجته وفرونسكى ، لكنه واصل السير إلى حيث جلست ربة الدار وسط جماعتها ، ثم جلس إلى مائدتها يحتسى قدحاً من الشاى ، وبتحدث فى السياسة !

وهمست إحدى السيدات وهى تجيل بصرها بين مدام كارنينا وزوجها ، وفرونسكى : « هذا تصرف شائن ! » . فأجابتها صديقة أنا : « ألم أقل ذلك ؟ » .. وسرعان ما صار كل من فى القاعة يختلسون نظرات خاطفة إلى حيث انزوت الزوجة وصاحبها ، ما عدا الزوج ، فإنه وحده بقى لا ينظر إلى ذلك الاتجاه ، أو يقطع الحديث الذى كان منهمكاً فيه ! وأخيراً لم تطق ربة البيت صبراً ، فأجلست مكانها من تصغى إلى الزوج وتناقشه ، وذهبت هى إلى أنا تقول لها : « يدهشنى أسلوب زوجك الواضح الدقيق فى أحاديثه . إن أعقد النظريات تصبح فى متناول فهمى حين يشرحها ! » . فأجابتها أنا وقد أشرقت على فمها ابتسامة السعادة ، دون أن تعى حرفاً من كلام مضيفتها : « حقاً ؟ ! » .. فعادت هذه إلى المائدة الرئيسية لتشارك فى الأحاديث الدائرة هناك !

وبعد أن قضى الزوج نصف ساعة ، مضى إلى زوجته يقترح عليها أن يعودا معاً إلى البيت ، لكنها أجابته — دون أن تنظر إليه — بأنها سوف تبقى لتناول العشاء ! .. فانحنى اليكسى تحية لربة البيت

والمدعوين ، ثم انصرف ، فى مثل الخطوات الهادئة الثقيلة التى دخل بها !

وإذ حان موعد انصراف « أنا » ، صحبها فرونسكى حتى الباب الخارجى وهو يهمس لها : « أنك لم تعدينى بشىء ، وأنا لم أسألك شيئاً ، لكنك تعلمين أن الصداقة ليست ما أبغيه . فالواقع ألا سعادة لى فى الحياة إلا بتلك الكلمة التى تبغضينها : « الحب » ! .. فأخذت تردد كلمة « الحب » بصوت خافت ، ثم أردفت فجأة : « إنى أبغض هذه الكلمة ، إنها تعنى الكثير بالنسبة لى ، أكثر جداً مما تظن ! » . وبعد لحظة حدقت فى وجهه وقالت : « إلى اللقاء ! » ثم مدت إليه يدها مودعة ، ومرقت مسرعة من الباب إلى حيث اختفت داخل عربتها !

— ٩ —

● لم ير « أليكسى » فى انزواء زوجته مع فرونسكى وانشغالها بالحديث شيئاً غير لائق ، إلا بعد أن لاحظ أن بقية الحاضرين قد اعتبروه كذلك ! .. ومن ثم عقد عزمه على أن يتحدث إلى زوجته فى الأمر .. فلما بلغ المنزل مضى إلى غرفة مكتبه كعادته ، حيث غاص فى مقعده المريح ولبث يقرأ ، ويفرك جبهته براحته بين الحين والآخر كأنما يحاول أن يبعد خاطراً ملحاً .. ولما مضت ساعة بعد انتصاف الليل : نهض وصعد إلى الطابق العلوى . لكنه لم يأو إلى فراشه كما ألف ، بل أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة وقد عقد

يديه خلف ظهره ! .. وإذ بدأ يدير فى رأسه الكلام الذى ينبغى أن يقوله لزوجته ، وضحت له صعوبة المهمة التى حسبها سهلة فى البداية ! إنه لا يحس بالغيرة ، فالغيرة فى رأيه تنطوى على الإهانة للزوجة ، فى حين ينبغى أن تكون للزوج ثقة كاملة فى زوجته ، واقتناع كامل بأنها ستظل تحبه دائماً ! .. لكن ، لماذا ينبغى هـذا للزوج ؟ .. إنه لم يسأل نفسه يوماً هذا السؤال ، لأنه لم يحس يوماً فقدان الثقة فى زوجته الشابة هذه ! .. ومع أن ثقته هذه لم تتغير ، ومع أن اشمئزازه من الغيرة لم يفارقه ، فإنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شىء غير منطقى ، وغير معقول ، فلم يدر ماذا يفعل ! .. إنه — لأول مرة — يواجه الحياة . يواجه احتمال أن تحب زوجته شخصاً غيره ! وقد بدا له ذلك غير معقول ، لأنه طيلة حياته عاش على هامش الحياة ، فى أجواء عمله الرسمية وحدها . وفى كل المرات التى اصطدم فيها بالحياة اصطداماً خفيفاً كان يتراجع من فوره مجفلا ، قانعاً من الغنيمة بالإياب ! أما الآن فهو يشعر بشعور الإنسان الذى يكتشف فجأة ، وهو يعبر قنطرة مقامة فوق هـوة عميقة ، أن القنطرة مكسورة ، وأن لا شىء يعصمه من السقوط من حالق ! .. تلك الهوة كانت هى الحياة ذاتها ، والقنطرة هى هامش الحياة السطحى الذى عاش هو فى نطاقه ! .. لكنه الآن يجد نفسه يواجه لأول مرة احتمال أن تحب زوجته رجلا آخر .. وقد أفزعه هذا الاحتمال ؟

وراح الزوج وهو يسير ذاهباً آيباً يحدث نفسه : « يجب أن أحسم الأمر فوراً ، وأن أضع له حداً ! .. يجب أن أصارحها برأيى فى تصرفها وقرارى فى شأنه .. ولكن ، ما هو قرارى ؟ وما الذى حدث ؟ .. لا شىء ! لقد تحدثت هى إلى الشاب طويلا ، وماذا فى ذلك ؟ .. أليس من حق النساء فى المجتمع أن يحدثن من يشأن ؟ ثم أن هذه الغيرة تحط من قدرى وقدرها . ولكن ، ما دام الجميع قد استهجنوا مسلكها فلابد أن فى الأمر شيئاً . نعم ، يجب أن أحسم الأمر وأضع له حداً .. ولكن ، ما الذى حدث ؟ ! » .

وهكذا أدرك الزوج أن أفكاره تدور فى حلقة مفرغة ، لاينتهى منها إلى جديد ، ففرك جبهته حائراً وجلس على حافة فراش زوجته وهناك وقع نظره على منضدة الكتابة الصغيرة وقد انتشرت عليها أدوات الكتابة ، فتغير اتجاه أفكاره فجأة ! بدأ يفكر فى « أنا » ، وفى حياتها ، وأفكارها ، ومشاعرها ، ورغباتها ! وكان هذا التعمق إلى باطن شخص آخر تجربة روحية جديدة عليه ، وتمريناً نفسياً لم يألف القيام به . وأزعجه احتمال أن تكون لزوجته حياة خاصة مستقلة عن حياته ! .. وقال محدثاً نفسه : « أسوأ ما فى الأمر أن هذا الشاغل المقلق يدهمنى فى الوقت الذى أضطلع فيه بمشروع عظيم — فى عملى — يتطلب منى كل نشاطى وذخيرتى من سكينة النفس وصفاء الفكر ! لكن ماذا أصنع ؟ إنى لست من الذين يستسلمون لهمومهم دون أن تكون لهم قوة الخلق التى تمكنهم من



شعر بشيء من الانفعال إزاء المهمة التي تواجهه !..

مواجهتها ! وإذن فينبغي أن أتخذ قراراً في الأمر . لكن مشاعرها الخاصة والأفكار التي تراود خاطرها ، ليست من شأني ، وإنما من شأن ضميرها ، ووازعها الديني . أما واجبي الذي تلقيه على كاهلي مسئوليتي كرب أسرة ، وزوج ، وأب ، فهو أن أقودها إلى شاطئ الأمان .. أن أنبه « أنا » إلى الخطر الذي ألمحه ، وأحذرها منه ، بل أستخدم سلطاني عليها إذا اقتضى الأمر ذلك ! .. نعم ، يجب أن أكلمها بصراحة تامة ! » .

واتخذ الحديث الذي أراد أن يفضي به إلى زوجته صورة واضحة ، دقيقة ، محددة في ذهنه – كما لو كان تقريراً وزارياً يكتبه بحكم عمله ! – واستطرد يحدث نفسه : « يجب أن أوضح لها النقط التالية :

أولا : أهمية المحافظة على سمعتها وسمعة الأسرة من أقاويل الناس !

ثانياً : المغزى الديني للزواج !

ثالثاً : الكارثة التي قد تلحق بابننا من تصدع العائلة !

رابعاً : الشقاء الذي يصيبها من جراء مسلكها المحتمل ! »

وإذ وصل أليكسي في تفكيره إلى هذا الحد ، سمع صوت عربة تقف أمام الباب الخارجي ، ثم وقع خطوات أنا وهي تصعد الدرج . وهنا – وبرغم رضاه عن خطابه الذي استعد لإلقائه – شعر بشيء من الانفعال إزاء المهمة التي تواجهه ! .. ودخلت أنا

على عادتها مرفوعة الرأس مشرقة الوجه ، فلما رأت زوجها ابتسمت ، وقالت وهى تمضى إلى غرفة الزينة الملحقة بالمخدع : « ألم تنم بعد؟ يا للعجب ! .. إن الوقت متأخر ! » .. فقال لها : « أنا ! .. يهمنى أن أحدثك فى أمر ! » .

— أى أمر ؟ وبم يتعلق يا ترى ؟ حسناً ، فلنتحدث إذا كان ذلك ضرورياً ، لكنى أفضل أن ننام !

وقد نطقت « أنا » بما توارد على لسانها . وعجبت على أثر ذلك من مقدرتها على الكذب ! حقاً ما أبسط عبارتها وأروع مظهرها الطبيعى المجرد من التكلف وهى تجلس أمام زوجها وكأنما يغلبها النعاس ! وأحست نفسها محصنة داخل درع من الزيف لا يمكن اختراقه . بل أحست أن قوة خفية خفت إلى نجدتها وشدت من أزرها ! وعاد هو يقول لها : « أنا .. يجب أن تحذرى ! » .. فنظرت إليه فى بساطة وإشراق ، متسائلة عما يحذرها منه ! ولو أن أحداً — لا يعرفها معرفة زوجها لها — رآها حينذاك ، لما ساورته أدنى ريبة فى مسلكها ، ولا شعر بأى شىء غير طبيعى يشوب صوتها أو عبارتها . أما زوجها الذى ألف أن تحدثه عن كل صغيرة أو كبيرة فى حينها ، فإن مسلكها هذا بدا له غريباً إلى حد غير قليل ! .. أحس أليكسى أن خلجات روحها التى كانت دائماً مثل كتاب مفتوح أمامه قد أغلقت دونه ، وستظل مغلقة على الدوام ! .. لكنه حدث نفسه قائلا : « لعلى أستطيع أن أعثر على المفتاح ! » . ثم

قال لها فى صوت خفيض : « أريد أن أحذرك من اللغط الذى قد تثيرينه حولك فى المجتمع نتيجة لعدم حيطتك .. فإن حديثك الطويل مع الكونت فرونسكى الليلة — على حدة — قد لفت الأنظار ! »

وكان وهو يتكلم ينظر فى عينيها الضاحكتين ، اللتين أفزعتاه بنظراتهما الغامضة . وقبل أن يتم كلامه كان قد أدرك عقم نصائحه وعدم احتفال « أنا » بها . فلما سكت ، أجابته : « إنك دائماً هكذا تنتقد مسلكى . مرة تنتقد جمودى وعدم اختلاطى بالناس ، واليوم تنتقد اختلاطى ومرحى ، حسبك أنى لم أكن جامدة الليلة ، فهل يسيئك هذا ؟» .. فقال لها : «أنا .. أهذه أنت؟ ! لشد ما تغيرت ! .. إليك ما أردت أن أقوله لك ، ورجائى إليك أن تصغى إلى كلامى . أنت تعرفين أنى أمقت الغيرة وأحتقرها ، لكن هناك حدوداً ينبغى للزوجة ألا تتجاوزها ، إذا أرادت أن تكونى محترمة فى أعين الناس . وقد لاحظ جميع الحاضرين الليلة أن مسلكك لم يكن سليماً من الشوائب ! » .. فقالت له فى هدوء : « الواقع أنى لست أفهمك إنك تبدو على غير طبيعتك يا أليكسى ! » .. ثم نهضت متجهة إلى الباب ، لكنه خطا إلى الأمام — شأن من يعتزم اعتراض طريقها — فتوقفت ، وقد بدا زوجها فى عينيها فى تلك اللحظة أقبح وجهاً منه فى أى وقت مضى ، ثم طوحت برأسها إلى الوراء وشرعت تنزع دبابيس شعرها بحركة سريعة ، وهى تقول فى هدوء وسخرية : « حسناً ، ها أنذا مصغية فى شوق إلى ما عندك من مزيد ! » فقال

لها : « ليس من حق ، وليس مما يجدى أيضاً ، أن أدخـــل فى تفصيلات تتصل بشعورك الشخصى . إن النبش والتنقيب فى أعماق النفس قد يثير أشياء يمكن أن تظل كامنة ، غير ملحوظة .. ومن ثم فمشاعرك أمر لا شأن به لغير ضميرك ، لكن واجبى نحوك ، ونحو نفسى ، ونحو الله ، يقتضينى أن أنبهك إلى واجباتك . إن حياتنا لم يربطها البشر بل ربطها الله ، وهذا الرباط لا يمكن فصمه إلا بارتكاب جريمة .. وهذه الجريمة تحمل فى طياتها عقوبتها ! » ..

فقالت وهى تواصل نزع دبابيس شعرها ، دون أن تنظر إليه : «لست أفهم حرفاً مما تقول ، لسوء الحظ ، إذ يغلبنى النعاس ! » فقال : « كيف ؟ .. بربك لا تتكلمى بهذه اللهجة ! . . قد أكون مخطئاً فى ظنونى ، ولكن صدقينى أن هذا الذى أقوله من أجلك ، كما هو من أجلى .. وأنا زوجك ، وأحبك ! » .. وهنا اختفى من عينى أنا بريق التهكم والسخرية ، وكأنما أثارت كلمة « الحب » ما كان كامناً فى أعماقها ، فحدثت نفسها : « يحبنى ؟ .. أويستطيع هو أن يحب ؟ .. إنه لو لم يسمع أن هناك شيئاً اسمه الحب ، يتحدث الناس عنه ، لما جرت هذه الكلمة على لسانه قط ! إنه لا يعرف حتى ما هو الحب ! » .. ثم التفتت إليه قائلة :

ـ اليكسى ، الحق أنى لست أفهمك الليلة .. أوضح ماتقول !

فقال لها : « عفواً ! دعينى أفرغ كل ما فى جعبتى . قلت إنى أحبك ، لكنى لست أنصح لك بما أنصح من أجل نفسى ، وإنما

من أجل ابننا ، ومن أجلك أنت ! » .. فقالت من فورها وهى تقمع ابتسامة تغالبها : « ليس عندى ما أفضى به . ثم أن وقت النوم قد حان » .. فتنهد اليكسى ، ومضى إلى مخدعه دون أن ينطق بكلمة !

.. وحين لحقت به بعد دقائق كان قد لاذ بفراشه وأطبق شفتيه ، ووجه نظره بعيداً عن اتجاهها . وانتظرت هى طويلا بلا حراك ، وقد شردت بأفكارها إلى الرجل الآخر ، مستعيدة صورته لنفسها ، ثم أحست مدى ما فاض به قلبها من عاطفة وغبطة آثمة وهى تفكر فيه ! .. ولم تلبث أن سمعت شخير زوجها ينبعث فى لحن منتظم رتيب ، فهمست لنفسها وهى تبتسم : « إن الوقت متأخر .. كادت الليلة تنقضى ! » .

لكنها ظلت زمناً راقدة بلا حراك ، وعيناها مفتوحتان ، يخيل إليها أنها تكاد ترى بريقهما فى الظلام !

ـ ١٠ ـ

● بدأ الزوجان منذ تلك الليلة حياة جديدة لا عهد لهما بها من قبل ، فاستمرت « أنا » تغشى المجتمعات ، وترى فرونسكى فى كل مكان ! بينما كان اليكسى يرى ذلك ولا يستطيع أن يفعـل شيئاً ، فقد حرصت هى على أن تقيم فى وجه كل محاولة منـه لاستدراجها إلى النقاش فى الموضوع حاجزاً من البلبلة المحيرة ،

عجز عن اختراقه ! .. وظلت صلتهما أمام الناس على حالها ، أما علاقاتهما الحقيقية فقد طرأ عليها تبدل كبير !

وكان اليكسى ذا نفوذ عظيم فى دنيا السياسة ، لكنه أحس نفسه عاجزاً كل العجز عن أن يسوس امرأته كما يشتهى ، فانتظر مستسلما – كالثور المنكس الرأس – السوط الذى شعر بأنه قد أشهر على ظهره ! .. وفى كل مرة حاول فيها أن يفكر فى أمره ، كانت نفسه تحدثه بأن يبذل محاولة أخيرة ، لعله يستطيع باللطف واللين والإقناع أن ينقذها ، لكنه كان دائماً يقول لها غير ما اعتزم أن يقول ، وما ينبغى أن يقول !

ووقعت الواقعة .. أخيرا !

تحققت الرغبة التى ظل فرونسكى زهاء عام كامل يتخذها هدفه الأول فى الحياة ، وينسى فى سبيلها كل هدف آخر ، وكل رغبة أخرى ! .. تحقق الأمر الذى كانت « أنا » تعده مستحيلا رهيباً ، وإن كان هو حلم حياتها الممتع الأخاذ ! .. ووقف فرونسكى أمامها ، شاحب الوجه ، وفكه الأسفل يختلج ، وراح يناشدها أن تهدأ ، وإن لم يدر كيف ، أو لماذا ! ثم هتف بصوت راعش : « أنا ! .. أنا ! .. ينبغى أن تهدئى ! » .. لكنها نكست رأسها ، شاعرة بأنها لا تستطيع أن تبقيه كما كان ، بعد أن أثقله الخزى والعار ! .. ثم هبطت من الكنبة التى كانت عليها إلى الأرض ،

وركعت عند قدميه ، ثم أخذت تشهق بالبكاء وتضغط يديه على صدرها قائلة : « يا إلهى ! .. اغفر لى ! » .

لقد أحست ببشاعة خطيئتها ، وبأن لم يبق لها غير أن تذل نفسها وتطلب الصفح . ولما لم يعد لها فى دنياها غير عشيقها ، فقد توجهت إليه بتوسلاتها . نظرت إليه وقد أحست ألماً من مذلتها .. ثم لم تستطيع أن تنطق بحرف ! .. أحست ما يحسه القاتل حين يرى جثة ضحيته التى سلبها الحياة . ولم تكن تلك الضحية التى قتلها هو ، سوى حبهما المتبادل .. المرحلة الأولى من ذلك الحب ! .. كان رهيباً أن تفكر فى الغاية التى دفعت فى سبيلها هذا الثمن الغالى المخيف من الخزى والعار .. ذلك الخزى من عريهما الروحى ، الذى سحقها ، وامتدت عدواه إليه هو !

ولكن القاتل برغم فزعه أمام جثة ضحيته ، كثيراً ما يجد نفسه مدفوعاً إلى أن يجثم على الجثة ويجذبها ، ثم ينهال عليها نهشاً وتقطيعاً ، وأخيراً يخفيها .. كى ينتفع بما جناه من قتلها ! .. وهكذا اندفع فرونسكى يغطى وجه « أنا » وكتفيها ، بقبلاته .. فتناولت هى يده ورفعتها إلى شفتيها ، وقبلتها .. أما هو فركع على ركبتيه وحاول أن يرى وجهها . ولكنها أخفته ، ولم تنبس بكلمة ! .. وأخيراً تحاملت على نفسها فنهضت ، ودفعته عنها بعيداً ، وكان وجهها ما زال كعهده جميلا ، فكان ذلك أدعى إلى الحسرة والرثاء .. وقالت له : « لقد انتهى كل شىء ، ولم يعد لى سواك . تذكر ذلك ! » ..

فأجابها : « وكيف أنسى يوماً خيانى بأكملها ؟ إن لحظة واحدة من هذه السعادة .. » ، لكنها قاطعته فى رعب واشمئزاز : « السعادة ؟ بحق الرحمة كفى . لا تنطق بكلمة أخرى ! » . لقد أحست فى تلك اللحظة أنها عاجزة عن التعبير بالكلمات عما يخالجها من إحساس بالخجل ، والذهول ، والذعر ، أمام عتبة الحياة الجديدة التى تدخلها .. فلم تشأ أن تتحدث فى الأمر ، حتى لا تشوه شعورها أو تبتذله !

لكنها حتى فيما بعد ، فى اليوم التالى والثالث ، ظلت عاجزة عن أن تجد الكلمات التى تعبر عن مشاعرها التى باتت معقدة . بل إنها لم تجد الأفكار التى تعبر بها عما يصطرع فى أعماقها ، فحدثت نفسها : « كلا ! .. لست أستطيع التفكير فى الأمر الآن ، فلأدع ذلك حتى أسترد هدوئى .. » .

لكن هذا الهدوء المنشود لم يواتها أبداً ! .. وفى كل مرة مثل فى خاطرها ما فعلته ، وما قد يجره من نتائج ، كان الرعب يتملكها ، فتطرد هذه الأفكار بعيداً ، معللة نفسها بقولها : « فيما بعد ، حين أغدو أهدأ بالا ! » .. لكنها فى أحلامها ، حيث لا سيطرة لها على أفكارها ، كان موقفها يمثل أمامها عارياً مخيفاً ، على حقيقته ! وكان أخص ما يطاردها من هذه الأحلام كابوس رهيب طفق يتراءى لها كل ليلة ! فكانت ترى نفسها زوجة للرجلين فى وقت معاً ، وكلاهما يغمر جسدها بالقبلات !

وكان فرونسكى — برغم أن غرامه استغرق كل حياته الخاصة —

يتابع سيره فى حياته العامة فى طريقه المرسوم ، سواء فى صلاته بالمجتمع أو صلاته بفرقته فى سلاح الفرسان . وكان شغوفاً بفرقته هذه ، كما كانت فرقته شغوفة به ، تحترمه وتفخر به ، بسبب ولائه لها وخدماته لأفرادها ، برغم ثرائه العريض وثقافته العالية ومؤهلاته العديدة التى كانت جديرة بأن تفتح أمامه السبيل إلى النجاح والشهرة والمجد ، ومن ثم إلى الغرور وما يستتبعه من الإهمال لزملائه ! .. ولم يكن هو يجهل حب إخوانه له ، وكان يعتز بهذا الحب ويحرص على استمراره . لكنه فى الوقت ذاته حرص ألا يكاشف أحداً من أولئك الزملاء بغرامه الجديد . حتى حين كانت الخمر تغريه بأن يصخب معهم فى حفلاتهم ويتبسط وإياهم ، كان يسارع إلى زجر كل من تحدثه نفسه منهم بأن يشير إلى ذلك الغرام ، ولو من طرف خفى ، أثناء المزاح !

على أنه برغم تكتمه هذا ، ما لبث غرامه بمدام كارنينا أن صار معروفاً فى كل أوساط المدينة ! وهكذا حسده أكثر الشبان ، حتى على العنصر البغيض الوحيد الذى كان يشوب غرامه فى الواقع ، وهو المركز الذى يتمتع به زوج عشيقته ، مما يهدد العاشقين بفضيحة « ممتازة » أيضاً فى المجتمع ! .. أما النساء ، فأكثرهن كن لا يحسدن « أنا » ، بعد أن مللن سماع الناس يلقبونها بالمرأة الفاضلة العفيفة ، وفرحن بتحقق نبوءاتهن فى صدد تكذيب هذا الصيت ..

وإن بقى هناك نفر من ذوى الشخصيات البارزة ساءهم ما لاح فى الأفق من نذر الفضيحة المدوية !

وعندما سمعت والدة فرونسكى بصلة ابنها بمدام كارنينا ، سرت بالنبأ وطربت له فى البداية ، فقد كانت ترى ألا شىء يوطد مستقبل الشاب الذكى مثل صلة وثقى تربطه بإحدى نساء المجتمع الرفيع .. كما سر الكونتة فرونسكى ألا تكون أنا – التى أعجبت بها وسمعتها تبدى تعلقها الشديد بطفلها – أفضل أو أعف من مثيلاتها من سيدات المجتمع ذوات الجمال البارع والأصل العريق ! .. لكن الأم عادت فغيرت نظرتها إلى غرام ابنها حين وصل إلى سمعها أنه رفض منصباً كبيراً عرض عليه ، كى يبقى قريباً من عشيقته ، مما أحنق عليه بعض ذوى النفوذ من الشخصيات الكبيرة ! .. وعند هذا أرسلت الأم ابنها الأكبر إلى (بطرسبرج) ليبلغ أخاه رغبة أمهما فى أن تراه وتتحدث إليه . وكان هذا الأخ الأكبر غير راض عن مسلك فرونسكى – لا غيرة منه على مبادىء الأخلاق ، فقد كانت له هو الآخر عشيقته ، برغم كونه زوجاً ورب أسرة ! – وإنما خوفاً على مستقبل أخيه من أن يعوقه ذلك الغرام الطائش !

وكانت لفرونسكى – إلى جانب عشيقته ، والمجتمع ، وفرقته بالجيش – هواية أخرى تستحوذ على اهتمامه ، هى جياد السباق ! وكان قد استعد للاشتراك فى موسم السباق لذلك العام بشراء جواد إنجليزى أصيل ، والإشراف على تدريبه وإعداده . وفى اليوم المحدد

للسباق ، جلس فرونسكى فى مطعم نادى الضباط يفكر فى وعد « أنا » له بأن تلقاه فى هذا اليوم بعد انتهاء السباق . وتذكر أنها قطعت له هذا الوعد منذ ثلاثة أيام ، قبل أن يعود زوجها فجأة من رحلته فى الخارج ، الأمر الذى يحتمل معه أن تعجز عن الوفاء بوعدها ! ومن ثم قرر فرونسكى أن يذهب إلى عشيقته فى منزلها الصيفى ليطمئن على مصير لقائهما الموعود ، متعللا بأن ابنة عمه الأميرة بتسى قد أرسلته ليسألها : هل تعتزم حضور السباق أم لا؟!

وأرسل من فوره يوصى بإعداد عربة وثلاثة جياد كى تقله إلى حيث يريد فى الوقت المناسب ، قبل موعد وصول الزوج من مقر عمله فى بطرسبرج . وإذ دنا من الدار ، ترجل من العربة ليقطع المسافة الباقية سيراً على قدميه ، تجنباً للفت الأنظار .. وبدلا من أن يتجه إلى الباب الرئيسى دخل من باب الحديقة ، وسأل البستانى : « هل وصل سيدك ؟ » ، فلما أجابه بأنه لم يصل بعد ، وبأن سيدته موجودة وحدها فى البيت ، واصل سيره فى حذر نحو المدخل الخلفى للدار .. وفيما هو يضع قدمه على السلم الخشبى للشرفة ، متجنباً أن يحدث أدنى صوت ، فوجىء بتذكر العامل الذى طالما نسيه من العوامل التى تكتنف صلته بأنا – مع أنه أكثرها مضايقة له وتعذيباً – وهو : « سريوشا » ابن مدام كارنينا ، ذو العينين المتسائلتين ، العدائيتين له فيما يخيل إليه !

كان الصبى فى كثير من الأحيان عائقاً يحد من حرية العاشقين ،

فكانا يتجنبان — فى وجوده — أن يتبادلا أية عبارة لا يجرؤان أن يتبادلاها أمام الملأ .. ويحرصان على تجنب أية إشارة غامضة لا يستطيع الغلام أن يفهمها ! .. ولكن فرونسكى برغم هذا الاحتياط لاحظ ، أكثر من مرة ، أن نظرات سريوشا اليقظة الحائرة تستقر عليه .. كما لاحظ فى مسلك الصبى نحوه حياء غريباً وخليطاً من الشك ، والفتور والتحفظ ! .. والواقع أن سريوشا عجز عن أن يحدد الشعور الذى ينبغى له أن يشعر به نحو فرونسكى ، سيما وقد تناقض شعور أهله نحوه : فبينما كان أبوه ومربيته وخادمته يظهرون نفورهم منه بل وكراهيتهم له ، وإن لم يفصحوا عن ذلك كله بكلمة ، كانت أمه تعتبره صديقها الأول ! .. ومن ثم لبث الصبى يسائل نفسه فى حيرة : « ما معنى ذلك ؟ ومن هو فى حقيقته؟ هل ينبغى لى أن أحبه ؟ لئن كنت لا أعرف الجواب فلا شك أنها غلطتى ! » .. وفى الوقت نفسه كان وجود الصبى يثير فى نفس أمه ونفس فرونسكى مثل شعور البحار الذى يرى فى البوصلة أن الاتجاه الذى يسير فيه أبعد ما يكون عن الاتجاه الصائب ، لكنه يشعر بعجزه عن تغيير ذلك الاتجاه ، فيأبى أن يعترف لنفسه بالخطر الداهم الذى يترصده !

لكن الصبى لم يكن فى البيت هذه المرة ، وكانت « أنا » وحدها ، جالسة فى الشرفة تنتظر أوبة ولدها من نزهته ، وقد أزعجها أن المطر انهمر على أثر خروجه ، فاتكأت برأسها على

آنية كبيرة من أوانى الأزهار ، وشردت مع أفكارها .. حتى سمعت وقع خطوات فرونسكى تدنو منها ، فرفعت رأسها .. وهنا ابتدرها هو قلقاً : « ماذا ؟ هل أنت مريضة ؟ » .. فأجابته وهى تنهض وتضغط يده الممتدة نحوها : « كلا ، إنى بخير .. لكنى لم أكن أنتظر حضورك » .

— اغفرى لى حضورى ، فإنى لم أستطع أن أقضى اليوم بغير أن أراك !

— أغفر لك ؟ بل إنى على العكس سعيدة !

وبينما اندفع فرونسكى يروى لها متحمساً أنباء السباق المزمع إقامته ، طفقت هى تسائل نفسها : « هل أخبره ، أو أكتم الأمر عنه ؟ .. أنه يبدو جد سعيد ، بحيث يغلب على الظن أنه يقدر جسامة الأمر بالنسبة لنا .. ولو لم يفعل لما غفرت له ذلك، فلم أضعه موضع الامتحان والتجربة ؟ » .. ولاحظ هو شرودها ، فقطع قصته ليسألها : « لكنك لم تذكرى لى فيم كنت تفكرين وقت مجيئى . يخيل إلى أن شيئاً قد حدث ، فهل يدور بخلدك أننى أجد راحة أو سكينة وأنا أعلم أن عندك هماً لا أشاركك إياه ؟ » .

ولم تجب هى فى البداية ، وإنما أطرقت قليلا ، ثم نظرت إليه من تحت حاجبيها وقد أشرقت عيناها من خلال أهدابهما الطويلة ، وارتجفت يدها وهى تعبث بورقة انتزعتها من آنية الزهر .. فارتسم على محياها ذلك الشغف الحنون الذى كان له نصيب كبير فى



فاتكأت برأسها على آنية كبيرة من أوانى الأزهار ..

استمالتها إليه .. وتناول يدها المرتجفة ، وعاد يقول لها :

– بربك أفصحى ؟ !

– هل أفعل ؟

– نعم ، نعم ..

– إن فى أحشائى جنيناً !

واشتد اهتزاز ورقة الشجر التى فى يدها ، لكنها لم تخفض عينيها عن وجهه ، كى ترقب وقع النبأ عليه .. فرأته قد شحب وجهه ، وتهيأ لأن يقول شيئاً ، ثم عدل .. وترك يدها من يده ، وسقط رأسه على صدره ! فحدثت نفسها : « نعم ، لقد أدرك جسامة الأمر » . وضغطت يده شاكرة ، فقبل يدها ونهض ، صامتاً ، ثم جعل يذرع الشرفة ذهاباً وجيئة ، وأخيراً اتجه نحوها قائلا فى لهجة حازمة : « إن أحداً منا لم ينظر إلى علاقتنا هذه كمتعة عابرة ، والآن هذا هو مصيرنا قد تحدد ، وبات من المحتم أن نضع حداً للخداع الذى نعيش فيه ! »

فسألته فى لطف وقد أشرقت على وجهها ابتسامة لطيفة :

– كيف نضع له حداً يا فرونسكى ؟

– بأن تتركى زوجك ونجعل حياتنا « واحدة » !

– إنها لكذلك الآن !

– أعنى ، تماماً .. بكل معنى الكلمة !

– ولكن كيف ؟ قل لى كيف ؟ هل هناك أى مخرج من مثل هذا الموقف ؟ ألست زوجة زوجى ؟

– هناك مخرج من كل موقف . وأى حل خير من الموقف الذى نحن فيه . لكنى أرى كيف تعذبين نفسك بالتفكير فى آراء الناس ، ومصير ابنك وزوجك !

– كلا ! فلست أفكر فى زوجى البتة ، إنى لا أعرفه .. إنه غير موجود !

– إنك لست مخلصة فى كلامك . أنا أعرفك .. أنت تقلقين عليه !

– أوه ، إنه لا يعرف شيئاً محدداً عن علاقتنا !

وفجأة تورد وجهها واندفع الدم حاراً إلى خديها وعنقها ، ولمعت عيناها .. ثم أردفت قائلة : « دعنا من الكلام عنه ! » .

وكان فرونسكى قد حاول مراراً من قبل أن يحملها على أن تتدبر موقفهما الراهن ، لكنه كان يصطدم فى كل مرة بمثل ما قابلت به محاولته هذه المرة . وكان يخيل إليه أن « أنا » التى يعرفها تختفى حينذاك لتبرز مكانها امرأة أخرى لا يحبها بل يخافها ، امرأة تعارض رغبته وتتصدى له . لكنه اعتزم أن يجبرها على مواجهة الموقف ، فقال معلقاً على عبارتها الأخيرة : « سواء أكان زوجك يعلم بعلاقتنا أم لا يعلم بها فليس هذا ما يعنينا ، وإنما أريد القول إننا لا نستطيع البقاء فى هذا الوضع ، ولاسيما بعد الآن ! » .

– وماذا فى وسعنا أن نفعل ؟

– صارحيه بكل شيء ، واتركيه !

– حسناً ، لنفترض أنى فعلت .. أتعرف ماذا تكون النتيجة؟ دعنى أصورها لك : إنه سيقول لى ، بلهجته الصارمة : « إذن أنت تحبين رجلا آخر ، ولك به علاقة إجرامية ؟ لقد حذرتك من النتائج من وجهة النظر الدينية والمدنية والعائلية ، لكنك لم تصغى إلى . والآن لا أستطيع أن أدعك تلوثين اسمى و .. » .

ولم تقو على أن تضيف كلمة « وابنى » فعدلت عنها وواصلت حديثها قائلة : « وبالاختصار ، سوف يؤكد لى أنه لا يستطيع أن يدعنى أذهب ، وأنه سوف يتخذ كل الإجراءات التى يسعه اتخاذها كى يمنع الفضيحة .. ثم ينفذ كلامه حرفياً بكل هدوء وصرامة .. هذا ما سوف يحدث . إنه ليس إنساناً ، بل آلة صماء . وآلة حقود فى حالة الغضب ! » .

– ولكن يا أنا ، لا مفر لنا من أن نصارحه بالأمر ، ثم نتصرف وفقاً للطريق الذى يسلكه !

– أتعنى أن نفر معاً ؟

– ولم لا ؟! .. لست أرى كيف يمكن أن نستمر على هذا المنوال ، لا أقول هذا من أجلى أنا ، بل من أجلك أنت .. فلست بغافل عن أنك تتألمين !

– نعم ، نفر معاً وأصبح خليلتك ، أليس هذا ما تبغى ؟

— « أنا » !

— نعم ، أصبح خليلتك ، وأدمر مستقبل ..

ومرة أخرى عجزت عن أن تنطق بلفظ « ابنى » ، فلم تكمل عبارتها ! .. أما فرونسكى فقد عجز عن أن يفهم كيف تحتمل — وهى على ما هى عليه من طبيعة قوية تمقت الكذب — أن تمضى فى حياة الخداع والتدليس على هذا النحو ، وكيف لا تتوق إلى الخلاص منها ؟ لكنه رجح أخيراً أن العامل الرئيسى الذى يملى عليها تصرفها هو .. ابنها .. الذى لم تستطع الإشارة إليه ! فهى إذن حين تفكر فى هذا الابن وفى مسلكه فى المستقبل نحو أمه التى « هجرت أباه » ، ينتابها الرعب والفزع مما فعلت ، بحيث تعجز عن مواجهته ، فتعمد — كامرأة — إلى محاولة التخفيف مما بها زاعمة لنفسها أن كل شىء سوف يظل على حاله ، وإن فى الإمكان نسيان السؤال المخيف بشأن علاقتها المقبلة بابنها !

وفجأة استطردت قائلة ، وهى تتناول يده وتتكلم فى لهجة مغايرة ، مخلصة ورقيقة : « أرجو منك وأتوسل إليك ، ألا تحدثنى فى هذا الأمر مرة أخرى ؟ ! »

— ولكن يا أنا ..

— دع الأمر لى . إنى أدرك فظاعة موقفى وما ينطوى عليه من ضعة . لكن المسألة ليست بالتى يسهل تدبيرها كما تحسب ، فاتركها

لى وافعل ما أقوله لك : إياك أن تحدثنى عن هذه الفكرة مرة أخرى . هل تعدنى ؟

— أعدك بكل ما تطلبين ، لكنى لن أستريح أو أحس بالسكينة ، ولا سيما بعد ما ذكرته لى الآن . لن أستريح ما دمت أنت غير مستريحة !

— أنا ؟ إنى أكون مهمومة أحياناً ، لكن هذا كله سوف ينقضى إذا كففت أنت عن أن تحدثنى فى هذا الأمر !

— لست أفهم ..

— أنا أعلم كم يصعب على طبيعتك المخلصة الصريحة أن تضطر إلى الكذب ، بل أنا أرثى لك .. وكثيراً ما أفكر فى أنك قد دمرت حياتك كلها من أجلى !

— وأنا كنت أسائل نفسى السؤال بعينه : كيف استطعت أن تضحى بكل شىء من أجلى ؟ لست أغفر لنفسى أنك شقية !

— أنا شقية ؟

واقتربت منه ، ونظرت إليه وهى تبتسم ابتسامة العاشقة النشوانة ، ثم قالت : « إنى مثل رجل جائع أعطى طعاماً ليأكل . إنه قد يكون معذباً من البرد ، يرتدى الأسمال البالية ويجلل حياته بالعار ، لكنه ليس بشقى . كلا ! لست شقية . هذا هو شقائى ! » ..

وبلغ سمعها صوت ابنها يقترب منهما ، فاختلست نظرة سريعة إلى ما حول الشرفة ثم نهضت على عجل وقد التمعت عيناها بالنار التى

عرفها فرونسكى وخبرها جيداً ، وبحركة سريعة رفعت يديها الجميلتين المثقلتين بالخواتم ، وأخذت رأس معشوقها بينهما ثم نظرت إلى وجهه نظرة طويلة وابتسمت . وبعد أن غمرت فمه وعينيه بالقبلات ، دفعته عنها بعيداً ! .. وإذ تهيأت لتنطلق ، عاقها عن الذهاب ، هامساً فى لهفة محمومة : « متى ؟ » ، فقالت : « اليوم الساعة الواحدة ! » . ثم تنهدت وسارت بخطوتها الخفيفة السريعة لتلقى ابنها ، متعمدة أن تخاطب فرونسكى بصوت مسموع : « حسناً ، إلى اللقاء ، إذ يجب أن أستعد لحضور السباق ، فقد وعدتنى « بتسى » بأن تمر لتأخذنى معها ! »

وإذ ذاك نظر فرونسكى إلى ساعته وانصرف على عجل !

- ١١ -

● وصل فرونسكى إلى حلبة السباق وقد بدأ الشوط الثانى ، فمضى إلى « المظلة » التى احتشدت تحتها الجماهير ، تتابع السباق بأعين ملهوفة ! ثم عرج على حظائر الخيل حيث كانت فرسه « فروفرو » تعد للاشتراك فى السباق ، فقفز فوقها ووضع قدمه اليمنى فى المهماز ، وأحكم وضع العنان بين أصابعه ، فى انتظار إشارة بدء الشوط . كان طول حلبة السباق ثلاثة أميال ، بثت خلالها تسعة عوائق متنوعة ، منها حاجز ارتفاعه خمسة أقدام ، وفجوة جافة ، ثم أخرى مغمورة بالماء ، ومنحدر سريع الانحدار ، وأكمة عالية تتلوها مباشرة هوة لا تبدو لعين الجواد إلا وهو

يعبرها — وهذا العائق « الأيرلندى » أخطر العوائق على حياة الجياد — ثم حفرتان مملوءتان بالماء ، وأخرى جافة . وكانت نهاية الحلبة تواجه أماكن النظارة المحتشدين ..

وانطلقت الجياد ، فتبعتها الأعين والمناظير المكبرة ، وتأخرت فرس فرونسكى فى البداية ، لكنها لم تلبث أن تخطت ثلاثة من الجياد التى سبقتها ، ولم يبق أمامها غير الفرس « ديانا » فى المقدمة ، وخلفها الجواد « جلاديتور » . وبعد العائق الثالث جاوزت فروفرو « جلاديتور » ، ثم طرحت ديانا راكبها عن ظهرها وهو يعبر بها عائقاً عالياً ، وهكذا أمسى فرونسكى فى المقدمة ، وقوى أمله فى الفوز ! وزادت من غبطته وحماسته هتافات التشجيع من أصدقائه بين المتفرجين .. وبدأ العرق يتصبب من رأس « فروفرو » ، وأذنيها ، وناصيتها ، وتتابعت أنفاسها لاهثة ، لكنه أيقن أن مابقى من قواها يكفى لتخطى العائق الأخير وقطع الخمسمائة ياردة التى تليه . وسره أن اجتازت الفرس ذلك العائق فى خفة الطائر المنطلق فى الفضاء .. على أنه فى اللحظة نفسها أحس أنه ارتكب خطأ كبيراً وهو يسترد مكانه فوق صهوة الفرس ، بعد أن ارتفع جسمه عنها قليلا أثناء القفزة العالية . وفى ثوان كان قد هوى من فوقها إلى الأرض على إحدى قدميه ، بينما سقطت الفرس على جنبها ، تئن وتتلوى ، وقد كسر ظهرها ، نتيجة لذلك الخطأ !

وغمغم فرونسكى فى غيظ محتدم : « ضاع السباق ! يا لها من غلطة مخجلة لا تغتفر .. والفرس العزيزة المحطمة !.. آه ، ماذا فعلت ؟ ! » .. وسرعان ما التأم جمع غفير ، بينه الطبيب ومساعده . وتبين فرونسكى أنه لم يصب بأى سوء ، أما الفرس المكسورة فقد تقرر رميها بالرصاص ! واستدار الفارس المنكود مشيحاً بوجهه عن أسئلة الفضوليين ، تاركاً قبعته حيث سقطت بجانب فرسه ، ثم مضى لا يلوى على شىء ، ولا يدرى إلى أين يتجه ، بل لم يكن يرى ما حوله ! .. لقد أحس بتعاسة لا مثيل لها ، وشعر — لأول مرة فى حياته — بأنه أصيب بنكبة لا طاقة له بتحملها !

ورافقه زميل له إلى بيته . وبعد نصف ساعة كان قد تمالك نفسه ..

• • •

● كان يوم السباق من أحفل أيام « أليكسى كارينين » بالعمل ، لكنه مع هذا حرص على أن يذهب بعد الغداء مباشرة إلى بيته الريفى ليلقى زوجته ، كعادته كل أسبوع ، محافظة على المظاهر ، وليعطيها بعض المال لنفقاتها .. ثم يتوجه بعد ذلك إلى حلبة السباق ، حيث يقتضيه مركزه أن يكون بجانب علية القوم ..

وحين وصل الحلبة كانت « أنا » جالسة فى المدرج بجانب الأميرة بتسى ، ورأته وهو قادم يشق طريقه وسط الزحام ،

وينحنى لهذا ويرد على تحية ذاك ، فحدثت نفسها فى مقت مكبوت : « إنه لا يعرف غير الطموح ، وليس فى دنياه غير الترقى والوصول إلى قمة المجد . وما آراؤه السامية المترفعة ، وولعه بالثقافة وتعلقه بالدين ، غير بعض الوسائل إلى مطامعه ! » .

وأدركت أنا من نظراته نحو الجناح المخصص للنساء أنه يبحث عنها ، وأن عينيه قد ضلتا هدفهما وسط البحر الذى يموج بأثواب الموسلين الزاهية ، والشرائط الملونة ، وريش القبعات ، والمظلات والأزهار .. لكنها تعمدت ألا تلفته إليها ! وبعد لحظات صاحت به بتسى : « اليكسى ، أعتقد أنك تبحث عن زوجتك ، هذه هى » ، فاتجه نحوهما ، وابتسم لزوجته ابتسامة الزوج الذى فارقها منذ برهة قصيرة ، ثم حيا الأميرة ومن حولها ممن يعرف .. ولم يلبث أن انهمك فى الحديث مع أحد ذوى المناصب العالية !

وحين بدأ السباق ، انحنت أنا إلى الأمام وهى تتابع عشيقها فرونسكى بعينين ملهوفتين ، وصوت زوجها فى حديثه الطويل الممل يطرق سمعها ، بنبراته الهادئة البغيضة .. فلم تملك أن حدثت نفسها : « إنى امرأة آثمة ، امرأة ضائعة ، لكنى أمقت الكذب ولا أطيق الزيف . أما هو ، فالزيف عصب حياته وقوامها ! ماذا يهمه من أمرنا ما دام يستطيع أن يتكلم بهذا الهدوء ؟ » .

وفى تلك اللحظة بدأ السباق ، وصمت النظارة وتطلعوا إلى

الجياد المنطلقة يتابعون عدوها . ولما لم يكن أليكسى شغوفاً بالسباق فقد راح يجيل بصره فيما حوله فى إعياء وكلال ، حتى استقرت عيناه على زوجته ! كان وجهها شاحباً جامداً، يوحى بأنها لا ترى غير شىء أو شخص واحد ، وكانت يداها متقلصتين تضغطان مروحتها فى عصبية ، وقد أمسكت أنفاسها ! .. وحاول أليكسى أن يقنع نفسه بأن النظارة جميعاً فى مثل انفعالها ، وأن يحول بصره عنها ، كى لا يقرأ ما كتب على وجهها بوضوح تام ! لكن بصره أبى أن يتحول ، وطفق يرتد إليها فى إصرار ! .. وهكذا قرأ على محياها – وهو مرتاع – الشىء الذى أراد أن يجهله ! .. فعندما سقط أحد المتسابقين عن جواده ، ذعر النظارة جميعاً ، لكن أليكسى قرأ على وجه « أنا » أن الرجل الذى تتابعه ببصرها لم يسقط ! .. وحين سقط متسابق آخر عند اجتيازه أحد العوائق العالية ، وأصيب إصابة بالغة قفز المتفرجون جميعاً من مقاعدهم ، ما عدا « أنا » . وأخيراً أحست أنا بنظرة زوجها الباردة الملحة مثبتة عليها ، فاختلست إليه نظرة خاطفة ، أيدت ظنونها ، ثم أغضت عنه ، قائلة لنفسها : « لست أعبأ بالأمر » . ولم تنظر إليه مرة أخرى !

وكان السباق مشئوماً ، فحين اقترب من نهايته كان نصف المتسابقين تقريباً قد سقطوا وأصيبوا ، فاشتد انفعال النظارة ، وراحوا يتبادلون التعليقات فى عصبية واهتمام . فلما سقط فرونسكى

أخيراً ، وشهقت أنا بصوت مسموع من فرط انزعاجها ، لم يكن فى شهقتها ما يلفت الأنظار أو يثير الانتباه . لكنها لم تلبث أن فقدت اتزانها تماماً ، فبدأت تتململ كطائر حبيس ، ثم التفتت هامسة إلى صديقتها بتسى : « هيا بنا نذهب .. هيا نذهب ! » .. لكن بتسى لم تسمعها ، فقد كانت تصغى إلى حديث جار لها ..

وفى اللحظة التالية كان اليكسى قد اتجه إلى حيث جلست زوجته ، فانحنى لها ، وقدم لها ذراعه قائلا : « فلنذهب إذا أردت » . لكن هذه كانت ذاهلة عنه ، تصغى إلى جار صديقتها يقول « يبدو أن ساقه قد كسرت . إن هذا كثير ! » . ودون أن ترد أنا على عبارة زوجها رفعت المنظار المكبر إلى عينيها وسلطته على المكان الذى سقط فيه عشيقها ، لكنها لم تستطيع أن تتبين شيئاً .. فعاد زوجها يقول وهو يتلمس يدها : « مرة أخرى أقدم لك ذراعى إذا أردت الانصراف ! » .. لكنها تراجعت فى إجفال ، وأجابت بغير أن تنظر إليه : « كلا ، دعنى . إنى باقية » . وعلى أثر ذلك أقبل ضابط يحمل الخبر اليقين قائلا : « إن فرونسكى لم يقتل ، لكن فرسه أصيبت » .

وهنا أخفت « أنا » وجهها فى مروحتها ، ورأى زوجها بوضوح أنها تبكى ، فوقف بإزائها جامداً ، تاركاً لها الفرصة حتى تتمالك نفسها . ثم عاد بعد حين يقول لها : « للمرة الثالثة أقدم

لك ذراعى ! » . وفى هذه المرة حدقت أنا فيه ولم تدر بماذا تجيب ؟ .. فخفت بتسى إلى نجدتها قائلة له: « لا يا أليكسى . لقد حضرت « أنا » معى وستعود معى » . فأجابها بابتسامة مؤدبة ونظرة حازمة : « أرجو المعذرة يا صاحبة السمو ، لكنى أرى أن « أنا » ليست بخير ، وأرغب فى أن تعود معى إلى البيت ! » .. وعند هذا نهضت أنا مستسلمة ، ووضعت يدها فى ذراع زوجها ، بينما همست لها بتسى : « سوف أستفسر عن أنبائه ثم أخطرك ! » .

وأخذت « أنا » مكانها فى العربة إلى جوار زوجها وهى صامتة . وكان أليكسى — برغم كل ما رآه — ما يزال ينكر على نفسه حقيقة حال زوجته . إنه لم ير غير الأعراض الخارجية . رأى أنها تتصرف تصرفاً غير لائق ، وأن واجبه يقتضيه مصارحتها بذلك ، ولكن كان من العسير أن يضيف مزيداً . وأخيراً فتح فه وقال لها : « أرانى مضطراً إلى القول بأن تصرفك اليوم لم يكن لائقاً ! » .. فالتفتت إليه وقالت وهى ترمقه بنظرة حازمة ، أخفت وراءها بكل صعوبة شعورها بالضيق والاضطراب : « أى شىء فى تصرفى لم يكن لائقاً ؟ » ، وكان صوتها عالياً ، فأشار إلى النافذة المفتوحة التى تفصلهما عن الحوذى وهمس قائلا : «صه!»، ثم مد يده فأحكم إغلاق النافذة ، وقال لها : « لم يكن لائقاً ذلك اليأس الذى عجزت عن إخفائه حين أصيب أحد المتبارين ! » . وانتظر أن تجيب ، لكنها لاذت بالصمت ، وهى تنظر إلى

ما أمامها ! .. فاستطرد : « لقد رجوتك من قبل أن تحرصى على مسلكك فى المجتمع بحيث لا تدعى مجالا حتى لأخبث الألسنة أن تخوض فى سيرتك . وكنت وقتئذ أعنى مسلكك الباطنى ، لكنى اليوم أقصر كلامى على مسلكك الخارجى ، الذى أرجو ألا يتكرر بعد اليوم ! » .

ولم تسمع هى نصف ما قال ، إذ كانت شاردة تفكر فيما عساه يكون قد حدث لفرونسكى ، فاكتفت بأن ابتسمت فى سخرية متكلفة حين فرغ من كلامه ! وأراد هو أن يتعلق بخيط من الأمل الكاذب ، لعله يبدد شكوكه ، فقال لها : « لعلنى أكون مخطئاً . فإذا صح ذلك فإنى أرجو معذرتك ! » .. لكنها أجابته قائلة وهى تحدق بائسة فى وجهه البارد : « كلا ، إنك لم تكن مخطئاً . فالواقع أنى انزعجت فعلا ، ولم أستطع أن أكتم انزعاجى ! إنى أسمعك ، لكنى أفكر فيه ! .. إنى أحبه .. إنى خليلته ! .. ولست أستطيع احتمالك . إنى أخافك ، أكرهك! » .

.. ثم غاصت إلى الوراء فى ركن العربة وانخرطت فى البكاء بحرقة ، وهى تخفى وجهها بين يديها . أما أليكسى فبقى صامتاً — ينظر أمامه كالتمثال ! — حتى وصلا إلى بيتهما ، وعندئذ التفت إليها قائلا ، وعلى وجهه ذلك التعبير الصارم نفسه ، وإن اختلج صوته قليلا : « حسناً . لكنى أطالبك بأن تراعى مقتضيات المظاهر

الخارجية على الأقل، حتى أتخذ الإجراءات الكفيلة بصيانة شرفى !». ثم هبط من العربة وأعانها على الهبوط ، وأمام الخدم ضغط يدها مودعاً ، ثم ركب العربة من جديد وانطلق إلى بيته فى بطرسبرج !.. وعلى أثر ذهابه وصل رسول من خدم الأميرة بتسى يحمل إلى « أنا » رسالة جاء فيها : « لقد أرسلت إلى فرونسكى أسأله عما أصابه فأجابنى بأنه بخير ، لم يصب بسوء ، سوى اليأس الذى استولى عليه بسبب فشله » .. فحدثت أنا نفسها فرحة : « إذن فسوف يأتى . حسناً فعلت إذ صارحت أليكسى بكل شىء ! » .

الفصل الثالث

- ١٢ -

● لم يكن هناك غير قليلين من أخص أصدقاء أليكسى يعلمون ما يخفى وراء مظهره الهادىء الرزين ! كانت فى أعماقه ناحية ضعف خفية ، هى عجزه التام عن تحمل رؤية الدموع فى عينى طفل أو امرأة . وقد يسلمه منظر هذه الدموع إلى انفعال عصبى يفقده كل قدرة على التفكير ! .. ومن هنا كان تذرعه بالصمت المطبق حين باحت له زوجته بخيانتها ثم أجهشت بالبكاء، فقد أدرك أن أى تعبير عن شعوره الحقيقى إزاء تلك الكارثة سوف يفسده ضعفه أمام دموعها ، فلا يجىء مناسباً لما يقتضيه المقام .. ومن ثم لاذ بالجمود !

فلما خلا إلى نفسه فى العربة بعد افتراقه عن زوجته ، أدهشه أنه شعر براحة كاملة من شكوكه السابقة وغيرته الموجعة ، أو من جزعه وإشفاقه وتأثره بدموعها ! .. بل انتابه شعور الشخص الذى خلع ضرسه الذى كان يسبب له آلاماً فظيعة ، فأحس فجأة أن ذلك الشىء الضخم قد فارقه ، بعد أن كان يثقل رأسه وفكه ، ويسمم حياته ، ويستأثر بحواسه ! .. وأنه يستطيع بعد ذلك أن يعيش ويفكر ويهتم بأمور أخرى عدا ضرسه الذى خلع ، أو زوجته التى خانته ! .. وأخذ أليكسى يقول لنفسه والعربة تنهب به الطريق إلى بيته :

« يا لها من امرأة فاسدة ، لا شرف لها ، ولا قلب ، ولا دين ! .. لقد طالما أحسست بذلك وأدركته ، لكنى حاولت أن أخدع نفسى كى أجنبها هذه العاقبة ! » .. وعاودته ذكريات من تصرفاتها أكدت له أنها كانت زوجة فاسدة منذ البداية ، فاستطرد يحدث نفسه : « لقد أخطأت بربط حياتى بحياتها ، لكنى لست الملوم .. بل هى ! والآن ، فلأكف عن التفكير فيها ، إذ لم يعد لها وجود فى نظرى ! » .. وهكذا لم يعد يهمه أو يشغل باله غير التفكير لإيجاد وسيلة عادلة ، شريفة ، مريحة ، ينتزع بها نفسه من الوحل الذى نثرته عليه فى سقطتها ، ثم يواصل طريق حياته النظيفة النشيطة النافعة ! .. ومضى يحدث نفسه : « لا ينبغى أن يشقينى إقدام امرأة حقيرة على ارتكاب جريمة كهذه ، وكل ما يجب على عمله هو أن أفكر فى أحسن مخرج من المأزق الذى وضعتنى فيه .. وسوف أهتدى إلى هذا المخرج .. فما أنا بالزوج الأول المخدوع .. ولا الأخير ! » .

.. ثم راح يستعرض قائمة أمثاله من الأزواج الذين خانتهم زوجاتهم ، سواء أكان ذلك فى عصور التاريخ المنصرمة ، أم فى المجتمع العصرى الذى يعيش فيه .. وخلص من ذلك إلى استعراض مختلف الحلول التى تخلصه من مأزقه : ففكر أولا فى مبارزة غريمه ، لكنه استبعد هذا الحل على الفور بدون أن يناقشه ، فهو أولا ليس من أنصار استعمال العنف أو استخدام السلاح ، فضلا عن جهله

بطريقة استخدامه .. ثم أنه لا يستطيع أن يفهم أو يهضم احتمال أن يذهب — وهو البرىء — ضحية الجريمة التى هو فيها فى مركز المجنى عليه ، سواء قتل أو جرح ! .. وأخيراً فإن أصدقاءه الكثيرين لن يسمحوا له بتعريض حياته للخطر وهو السياسى الذى يحتاج إليه وطنه أشد الحاجة !

وهكذا انتهى إلى استبعاد فكرة المبارزة ، ومناقشة الفكرة التالية لها فى قائمة الحلول الميسورة ، وهى : الطلاق ! .. ولكنه لم يكد يفعل حتى تبين أن طلاق زوجته — حتى على فرض حصوله على الأدلة التى تثبت خيانتها — لن يؤدى إلا إلى إثارة فضيحة علنية فى المجتمع ، سرعان ما يتلقفها خصومه السياسيون لمحاولة هدمه .. هذا إلى أن هذا الحل يحقق للزوجة وعشيقها الحرية التى ينشدانها ، وبذلك يكافئهما على جريمتهما ، بدلا من أن يعاقبهما !

وفكر فى حل ثالث هو الانفصال عن زوجته بغير طلاق .. لكن هذا أيضاً يثير الفضيحة نفسها التى يرى اجتنابها ، ويزيد الزوجة ارتماء فى أحضان عشيقها ، وإذا كان هو لا يستحق أن يشقى بسببهما ، فهما كذلك لا يستحقان أن يسعدا على حساب شقائه !

والواقع أن أليكسى وهو يستعرض هذه الحلول تملكته رغبة قوية فى ألا يتيح لزوجته فرصة للخروج من خيانتها ظافرة ، وحرص على أن تلقى عقاب جريمتها ، وعلى أن يراها تقاسى ، جزاء تدميرها

سكينة نفسه ، واغتيالها شرفه ! واقتنع أخيراً ، بعد استعراض كل هذه الحلول ، بأن أجداها عليه هو أن يبقى زوجته معه ، وأن يخفى عن أسماع الناس ما حدث ، ويستخدم كل وسيلة فى مقدوره كى يحبط مؤامرة العاشقين ! .. وبعد أن ركن إلى هذا المخرج ، سره أن وجده كذلك متفقاً مع أحكام الدين ، فحدث نفسه قائلا : « نعم ، إننى باتباعى هذا المسلك لا أكون قد نبذت الزوجة الخاطئة ، بل أكون أعطيتها فرصة للتوبة والتكفير عن خطيئتها ، ولا شك أنى — برغم صعوبة المهمة — سوف أخصص جانباً من نشاطى لمحاولة إصلاحها وهدايتها . وستمضى الأيام ، ويصلح الزمن كل شىء .. وتعود العلاقة القديمة بيننا سيرتها الأولى ! » .

وحين أشرف أليكسى على (بطرسبرج) ، كان قد استراح إلى قراره . وصاغ فى ذهنه عبارات الخطاب الذى اعتزم أن يكتبه إلى زوجته ، فلما وصل إلى منزله دخل من فوره غرفة مكتبه ، حيث كانت تضيئها ست شمعات ، وجلس هنيهة معتمداً برأسه على إحدى راحتيه ، ثم شرع فى كتابة الخطاب التالى : « فى لقائنا الأخير وعدتك بأن أخبرك بقرارى فيما يتصل بموضوع اللقاء . وها أنذا أفى بوعدى ، بعد أن تدبرت كل شىء ، وإليك ما قررته : أياً كان مسلكك فإنى لا أرانى فى حل من أن أفصم الروابط التى عقدتها بيننا قوة علوية . إن الأسرة لا يمكن أن تحطم بفعل نزوة — أو خطيئة — لأحد الزوجين ، ومن ثم ينبغى أن تستمر حياتنا كما

كانت فى الماضى ، الأمر الذى هو جوهرى بالنسبة لى ، ولك ، ولابننا . وإنى لمقتنع كل الاقتناع بأنك قد ندمت وتندمين الآن على الأمر الذى دعانى إلى إرسال هذا الخطاب ، وإنك سوف تتعاونين معى على إزالة سبب النفور الذى بيننا ، ونسيان الماضى . وإذا لم يكن اعتقادى هذا صحيحاً فإنك تستطيعين أن تتصورى المصير الذى ينتظرك أنت وابنك — وأرجو أن أوفق إلى شرح ذلك كله لك بتفصيل أوفى فى مقابلة خاصة — ولما كان الموسم يوشك أن ينتهى ، فإنى أرجو منك أن تعودى إلى بطرسبرج بأسرع ما تستطيعين قبل يوم الثلاثاء ، وسوف تعد جميع التدابير اللازمة لاستقبالك . وسأطوى هذا الخطاب على بعض المال لعلك تحتاجين إليه لسد نفقاتك » .

« أ . كارنين »

وقرأ الخطاب مرة أخرى ، فشعر بالارتياح ، سيما لكونه قد تذكر أن يرسل إليها بعض المال ، ولأنه لم يضمن الخطاب أية عبارة نابية أو كلمة تقريع ، بل كان فيه متسامحاً أكثر مما ينبغى له . فجاء الخطاب من أجل ذلك كله صالحاً لأن يكون قنطرة للتراجع الكريم ! .. وطوى أليكسى الخطاب ، ثم وضعه فى ظرف أغلقه ، ودق الجرس ، فلما جاءه أحد الخدم ، ناوله المظروف المغلق وقال له : « سلم هذا الخطاب للساعى كى يوصله إلى زوجتى غداً فى المنزل الصيفى ! » .

• • •

● كانت أنا كارنينا تطل من نافذة المنزل الصيفى ، حين رأت رسول زوجها يصعد السلم ويدق الجرس ، فجلست على مقعد منخفض وعقدت يديها على ركبتيها ، ووطنت نفسها على استقبال ما يحمله الرسول ، أياً كان ! ولم يلبث خادم أن دخل يحمل إليها الرسالة وهو يقول : « إن حاملها ينتظر رداً » . فأجابته : « حسناً ، دعه ينتظر » . ثم فضت المظروف ، فتساقطت منه حزمة أوراق النقد ، وقرأت الخطاب مرة ، واثنتين .. فلما استوعبته ، أحست بالبرودة تسعى إلى أطرافها ، وكأن خطباً قد دهمها على غير انتظار ؟ كانت قد أسفت فى الصباح على أنها صارحت زوجها بكل شىء . وودت لو أنها لم تنطق بكلمة مما قالته له مساء أمس . ولكن ها هو ذا خطابه يعتبر كلماتها كأن لم تكن ، ويحقق بذلك رغبتها . فما لها تعتبر الخطاب أبشع من كل احتمال توقعته ؟ .. وراحت تحدث نفسها : « يا للمخلوق الشرير الوضيع ! إنه يتظاهر بأنه متدين وكريم . لكن أحداً لا يفهمه غيرى ! إن الذين يمتدحون صفاته لا يرون ما رأيته . ولا يعرفون كيف سحق حياتى طيلة ثمانية أعوام ، سحق كل شىء كان حياً فى ! إنه لم يفكر يوماً فى أنى امرأة على قيد الحياة ، ينبغى لها أن تجد الحب الذى تنشده كل امرأة ! بل إن الناس لا يعلمون كيف أذلنى فى كل خطوة ، وأمتعه أن يفعل ذلك؟ أو لم أكافح أنا بكل قواى لكى أحبه ، وأجد شيئاً يكسب حياتى طعماً ومعنى ؟ .. ولكنى عجزت عن أن أحبه ، فركزت حبى

كله فى ابنى ! .. ثم جاء الوقت الذى أدركت فيه عجزى عن المضى فى خداعى لنفسى . أدركت أنى حية ، وأنى غير ملومة ! إن الله خلقنى كى أحب وأعيش ، والآن ماذا فعل الآثم ؟ لو أنه قتلنى ، أو قتل فرونسكى ، إذن لكان ذلك أكرم وأحسن ! .. ولكن كلا ! كيف غاب عنى أن أتوقع ما سوف يفعله ؟ ! إنه يهددنى بانتزاع ابنى منى ، وقد يحكم له القانون بذلك . لكنه يعلم جيداً أنى لن أتخلى عن طفلى أو أهجره ، وألا حياة لى بغيره ، حتى مع حبيبى ! وإنه ليعلم أيضاً أنى لست من ذوات القلوب المتحجرة الوضيعة ، اللواتى تترك الواحدة منهن طفلها وتفر مع عشيقها ! » .

وتذكرت « أنا » ما ذكرها به أليكسى فى خطابه بقوله : « ومن ثم ينبغى أن تستمر حياتنا كما كانت فى الماضى ! » ، فاستطردت تحدث نفسها : « هل كانت حياتنا فى الماضى غير شقاء مرير ! لكنه يريدها أن تستمر ، لكى يمضى فى تعذيبى . إنه يكون سعيداً فى صحبة الغش والنفاق ، كما تسعد السمكة فى الماء ! كلا ! لن أمنحه هذه السعادة ، سأمزق نسيج الأكاذيب الذى يريد أن يحبسنى فيه ، كما يحبس العنكبوت الذبابة ! إن أى شىء أفضل عندى من الكذب والغش ! .. ولكن كيف ! يا إلهى ! هل توجد امرأة أشقى منى ؟ لكنى سأنجو بنفسى .. نعم سأنجو ! » .

وقفزت من مكانها وهى تمسح دموعها ، ثم اتجهت إلى منضدة الكتابة لتكتب إليه . لكنها فى أعماق قلبها كانت تشعر بأنها أضعف

من أن تستطيع التخلص من مأزقها ، برغم الزيف والعار اللذين يكتنفان حياتها ، فجلست إلى منضدة الكتابة ، لكنها بدلا من أن تكتب ، بقيت هنيهة متكئة بمرفقيها على المنضدة ورأسها بين كفيها.. ثم انخرطت فى البكاء ، وتوالت شهقاتها كالطفل العاجز ! كانت تبكى تبدد أملها فى تسوية موقفها وجلائه . إنها تعلم الآن أن كل شىء سوف يستمر على حاله ، بل لعله سيزداد سوءاً ! وهى تحس أنها لا تستطيع التفريط فى مكانتها الاجتماعية التى بدت لها فى الصباح ضئيلة القيمة ، ولن تقوى على أن تستبدل بها تلك المكانة المزرية التى يعطيها المجتمع للمرأة التى تهجر زوجها وطفلها كى تلحق بعشيقها ! .. إنها لن تستمتع قط بحريتها فى الحب . وإنما ستظل دائماً زوجة آثمة ، وسيظل سيف العقاب مصلتاً فوق رأسها فى كل وقت . إنها تخون زوجها من أجل صلة مخجلة برجل آخر يعيش بعيداً عنها ، ولا أمل فى أن يشاركها حياتها .. بل إنها لا تعرف إلى أية نهاية سوف ينتهى بها المطاف !

وبقيت « أنا » تبكى فى حرقة دون أى تحفظ . بكت كما تبكى الطفلة حين تعاقب . ولم تفق من بكائها إلا حينما سمعت وقع خطوات الخادم يقترب منها ، فأخفت وجهها متظاهرة بالكتابة . ثم سمعته يقول : « الرسول بالباب يسأل : هل هناك رد ؟ » ، فقالت له : « رد ؟ نعم ، فلينتظر حتى أقرع لك الجرس ! » . ثم ساءلت نفسها حائرة : « ماذا أكتب ؟ ماذا أستطيع أن أقرر وحدى ؟ ماذا

أعرف ؟ ماذا أريد ؟ » .. وأحست كأن روحها توشك أن تفلق إلى شطرين ، فأفزعها هذا الإحساس ، وودت لو تشغل نفسها بأى شىء يحول بينها وبين التفكير فى أمرها ، وقالت لنفسها : « يجب أن أرى فرونسكى . لا أحد غيره يستطيع أن يشير على بما ينبغى أن أفعل . فلأذهب إلى « بتسى » ، لعلنى أجده هناك » !

لكنها بعد أن أمعنت فكرها فى الأمر ، عادت فانحنت على الورق ، وراحت تكتب إلى فرونسكى : « يجب أن أراك اليوم لأمر ضرورى . تعال إلى حديقة (فريدى) . حوالى الساعة السادسة » . ثم ختمت الرسالة وسلمتها لمن يوصلها ..

• • •

● كان فرونسكى يسير فى حياته وفق دستور خاص وضعه لنفسه : دستور يحرم على الرجل أن يكذب على رجل مثله ، لكنه يجيز له أن يكذب على امرأة ! ويحرم على المرأة أن تغش أحداً سوى زوجها ! .. ويحرم على الإنسان أن يغفر إهانة ، لكنه يجيز له أن يوجه الإهانة إلى غيره ! .. وكانت مبادىء هذا الدستور - برغم مجافاتها للمنطق والأخلاق - تسمح لفرونسكى بما يبغى من سكينة النفس وشموخ الأنف ، ووفقاً لها كانت صلته الحالية مع « أنا » وزوجها غاية فى الوضوح والبساطة : فهو على ضوئها يرى « أنا » امرأة شريفة ، أسبغت عليه حبها ، وأحبها هو ، ومن ثم فهى فى نظره تستحق من الاحترام والتبجيل مثل ما تستحق الزوجة

الوفية ، وربما أكثر ! .. وإن يده لتقطع قبل أن يسمح لنفسه بحركة أو كلمة فيها ما يذلها أو يشعرها بأنه يضن عليها بأقصى ما تطمع فيه المرأة من احترام الرجل !

وفيما يختص بالمجتمع ، كان دستور فرونسكى يوحى إليه بأحكام هى الأخرى غاية فى الوضوح : فهو يرى أن من حق كل فرد فى المجتمع أن يعلم بأمر علاقته بمدام كارنينا ، أو يرتاب فى ذلك ، ولكن ليس من حقه أن يتحدث عنها علانية ! فإذا جرؤ على ذلك فإنه مستعد لأن يجبره على الصمت ، وعلى احترام « الشرف المفقود » للمرأة التى يحبها !

على أن أوضح أحكام ذلك « الدستور » كانت تلك التى تتعلق بزوج « أنا » المخدوع : فمنذ اللحظة التى أحبت فيها « أنا » فرونسكى ، اعتبر هذا حقوقه عليها بمثابة أمر مفروغ منه ، ولم يعد زوجها فى نظره غير شخص يجلب الضيق ، ولا لزوم له البتة ! .. وصحيح أن هذا الزوج بات فى موقف لا يحسد عليه ، ولكن كيف السبيل إلى معالجة ذلك ؟ إن الشىء الوحيد الذى من حق الزوج أن يفعله هو أن يطلب ترضية من غريمه ، بالمبارزة والسلاح ، وقد كان فرونسكى على أتم استعداد لهذا الأمر !

لكن ثمة غيوماً جديدة بدأت تتكاثف فى جو العلاقة بين فرونسكى وأنا ، فتسبب له شيئاً من الانزعاج : فهى مثلا قد أنبأته بأمر الجنين الذى تحمله فى أحشائها منه ! وقد كان رد الفعل المباشر

الذى أوحى له به قلبه إزاء هذا النبأ المفاجىء أنه طالبها بترك زوجها إلى غير رجعة . لكنه ما لبث أن ندم على تسرعه ، وود لو يستطيع تجنب هذه النتيجة ، وجعل يسائل نفسه : « إن هجرها زوجها إجابة لطلبى معناه أن أقرن حياتى بحياتها . فهل أنا مستعد لهذه الخطوة ؟ هناك عقبتان تعترضان تنفيذها : إحداهما تدبير المال الكافى لمواجهة مقتضياتها ، والأخرى اضطرارى للاستقالة من الجيش كى أذهب معها بعيداً عن هذا المجتمع الذى يعرفنا ، ولن تكف ألسنة أفراده عن أن تلوك تلك الفضيحة ! » .

وكانت العقبة الأخيرة هى العقبة الكأداء حقاً ، فقد كان فرونسكى طموحاً إلى بلوغ أعلى مناصب الجيش ، وكان هذا حلم طفولته وشبابه . وقد بلغ من طموحه هذا أنه لم يحجم عن الدخول مع غريمه ، زوج عشيقته ، فى صراع الند للند ! ومن ثم أخذ فرونسكى يقول لنفسه : « لو أننى هجرت الجيش فإنى بذلك أحرق سفنى من خلفى ، فأقطع على نفسى خط الرجعة ! أما لو بقيت فيه فلن أخسر شيئاً ! .. ثم إنها قالت بلسانها أنها لا تود تغيير الأوضاع الحالية ! » .

ثم نهض فحلق لحيته ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى موعده مع أنا ! .. وفى الطريق إلى حديقة (فيللا فيريدى) راح يحدث نفسه قائلا وهو يستعيد إلى ذاكرته صورة « أنا » كما بدت له فى لقائهما الأخير : « لست أبغى شيئاً سوى هذه السعادة ! إن حبى

لما يتضاعف كل يوم !». وحين اقترب من الحديقة قفز من العربة وصرف الحوذى ، ثم دخل الحديقة مسرعاً . وحانت منه نظرة إلى اليمين فرآها قادمة ، وقد غطت وجهها بنقاب ، فسرت فى جسمه على الفور قشعريرة كالتى تحدثها صدمة كهربائية ! وحين التقيا ضغطت يده فى قوة، وابتدرته بلهجة جادة أثارت قلقه : « إنك غير غاضب لأنى دعوتك ؟ » . ورأى من تصرفها وحركاتها أن شيئاً قد حدث ، وأن لقاءهما لن يكون بهيجاً ! وسرعان ماسرت عدوى وجومها إليه ، فإن إرادته كانت تفارقه فى حضرتها ! فسألها وهو يحاول أن يقرأ أفكارها : « ماذا بك ؟ ما الذى حدث ؟» لكنها سارت صامتة بضع خطوات وهى تجمع شتات شجاعتها ، ثم توقفت فجأة وقالت له، وهى تلتقط أنفاسها اللاهثة فى صعوبة: « فاتنى أمس أن أخبرك بأنى صارحته بكل شىء . ذكرت له أنى لا أستطيع أن أكون زوجة له ، وأنى .. بالاختصار ذكرت له كل شىء ! » .

فاعتدل فرونسكى فى وقفته وارتسم على وجهه فجأة تعبير يمتزج فيه الإباء والصرامة وقال : « هذا أفضل . أفضل ألف مرة، وإن كنت أقدر مدى الألم الذى سببه لك هذا الموقف ! » : لكنها لم تصغ إلى كلماته . كانت منشغلة بمحاولة قراءة أفكاره من تعبير وجهه ! لكم كانت تود لو قابل النبأ قائلا فى حدة وعزم ، لا يخالجهما تردد : « دعى كل شىء وتعالى معى ! » . لو أنه

فعل ، لتركت زوجها وابنها وذهبت معه ! .. فقالت فى عصبية مكتومة : « كلا ، لم يكن الموقف أليماً بالنسبة لى ، بل حدث الأمر من تلقاء ذاته . انظر ! » وأخرجت خطاب زوجها من ثنايا قفازها ، فتناول الخطاب وقال لها : « أنى أفهم كل شىء . وكل ما أتوق إليه – وطالما صليت لكى يتحقق – هو أن ينتهى هذا الموقف بأسرع وقت ، كيما أكرس حياتى لتوفير سعادتك » .. ثم نشر الخطاب وشرع يقرؤه ، فلما أتى على سطوره رفع عينيه إليها فى غير تصميم ، فقرأت هى فيهما أن أملها الأخير قد خاب ! وقالت له بصوت مختلج : « أرأيت أى رجل هو ، إنه .. » ، فقطع كلامها قائلا : « لا تؤاخذينى إذا قلت إن هذا يسرنى . دعينى بربك أتم كلامى . إنه يسرنى لأن هذه الأوضاع لا يمكن أن تستمر بحال ، ولهذا أرجو أن تتركيه ، وأن تدعينى أرتب حياتنا ، وغدا .. » .. فقالت له مقاطعة : « ولكن ماذا يكون من أمر ابنى ؟ ألم تر كيف هددنى فى خطابه بأن يسلبنى إياه ؟ » ، فقال لها : « أيهما أفضل : أن تتركى ابنك ، أو أن تظلى فى هذا الوضع المزرى ؟ » ، فسكتت هنيهة ثم قالت له : « لا تقل هذا ، هذه الكلمات لا معنى لها فى نظرى ! ألا ترى أن كل شىء قد تغير فى حياتى منذ أحببتك ؟ لقد أصبح حبك عندى هو كل شىء ! » .

وخنقتها العبرات ، فلم تستطع المضى فى حديثها ! وشعر هو بغصة فى حلقه ، ولأول مرة فى حياته انتابه ميل إلى البكاء مثلها ،

لإدراكه أنه المسئول عن شقوتها ، فقال متخاذلا : « أليس الطلاق ممكناً ؟ » . فهزت رأسها ولم تجب ، فأردف قائلا : « ألا تستطيعين أن تأخذى ابنك ؟ » . فقالت : « هذا يتوقف عليه وحده ، والآن أرانى مضطرة إلى اللحاق به ! » . فقال : « سأكون فى بطرسبرج يوم الثلاثاء . وكل شىء يمكن أن يسوى » . قالت : « حسناً ! ولكن دعنا من هذا الموضوع . فلست أحب أن نتكلم فيه ! » .

ثم ودعته واستقلت عربتها .. ومضت!

• • •

● وكان أليكسى قد نسى ، فى غمرة مشاغله ، اليوم الذى حدده لعودة زوجته .. فلما تلقى برقية تنبىء بعودتها ، صدم فى البداية ، وأحس شيئاً من الضيق . ثم أرسل العربة لتقلها إلى البيت ، دون أن يذهب لاستقبالها . وعندما بلغت البيت قيل لها إنه فى حجرة مكتبه ومعه سكرتيره . فأرسلت تنبئه بقدومها ثم مضت إلى غرفتها الخاصة . وهى تنتظر أن يلحق بها . لكن ساعة انقضت وهو لم يظهر ! .. فتوجهت إلى حجرة المائدة بحجة إصدار بعض التعليمات إلى الخدم : ورفعت صوتها عامدة كى يحس بوجودها . لكنه لم يخرج من مكتبه . حتى بعد أن ودع سكرتيره عند باب الحجرة . فقد عاد بعدها إلى الداخل ! وعندئذ لم تجد هى بدأ من أن تتجه نحوه . فلما دخلت رأته قبل أن يراها . كان متكئاً بمرفقيه على منضدة المكتب . يفكر ! إنه يفكر فيها . وما كاد يراها حتى احمر وجهه ،

على خلاف عادته ، ثم نهض مسرعاً فاتجه ليلقاها ، وهو ينظر لا إلى عينيها وإنما إلى جبهتها وشعرها ، ثم تناول يدها ودعاها إلى الجلوس ، وقال وهو يجلس بجوارها : « كم أنا مسرور لأنك حضرت ! » .

وحاول أن يضيف شيئاً آخر ، لكنه لم يدر ماذا يقول ؟ ! وكانت هى قد أعدت نفسها لتأنيبه وإظهار احتقارها له ، لكنها أحست بالرثاء لحاله ، فسكتت ، ولم تدر هى الأخرى ماذا تقول؟! وهكذا استمر الصمت بينهما دقائق . وأخيراً قطعه هو متسائلا : « هل سريوشا بخير ؟ » ، ثم أضاف دون أن ينتظر جواباً : « لن أتناول الغداء فى البيت اليوم . ثم أنى مضطر إلى الخروج فوراً ! » .

فقالت أنا : « لقد فكرت فى الذهاب إلى موسكو » .

فقال : « كلا ! إنك أحسنت صنعاً بالمجىء ! » ، ثم صمت . وإذ رأت هى عجزه عن الدخول فى الموضوع ، حزمت شجاعتها وقالت ، وهى تنظر إليه دون أن تغض من بصرها تحت وقر نظرته الملحة إلى شعرها : « اليكسى . إنى امرأة آثمة ، سيئة الخلق . وقد جئت لأقول لك إنى لا أستطيع أن أغير شيئاً من الأمور التى صارحتك بها ! » . فقال فى حزم وهو يواجهها بنظرته المنطوية على الكراهية : « أنا لم أسالك إيضاحاً عن ذلك . لكنى ، كما قلت لك وقتئذ ، وكررت لك فى خطابى ، أعود فأقول لك إنه ليس من

الحتم أن أقف على هذه الحقيقة ، ومن ثم فإنى أتجاهلها .. فليس كل الزوجات من الطيبة والرفق بحيث يهرعن إلى مصارحة أزواجهن بمثل هذه الأنباء « السارة » ! .. نعم ، إنى سوف أتجاهل الأمر ما دام مجهولا من الناس ، وما بقى اسمى غير ملوث! ومن هنا أقول لك : إن علاقتنا ينبغى أن تستمر كما كانت . وإننى لن أتخذ خطوة إيجابية لصون شرفى ، إلا إذا اضطررتنى أنت إلى ذلك ! » .

وعاودها نفورها منه ، وطغى هذا الشعور على رثائها لحاله أول الأمر ! لكنها بقيت خائفة منه ، فقالت فى صوت خجول وفى ضيق ظاهر . وقد انتوت أن توضح له موقفها كاملا ، بأى ثمن : « لكن علاقتنا لا يمكن أن تستمر كما كانت ، فلست أستطيع أن أكون زوجة لك بينما .. » ، وعندئذ ضحك ضحكة باردة خبيثة وقال : « يبدو أن مسلكك قد انعكس على أفكارك . لكنى أحترم ماضيك وأحتقر حاضرك ، بحيث أنى لم أقصد هذا الذى فسرت به كلامى ! » . فتنهدت « أنا » ونكست رأسها ، بينما تابع هو حديثه قائلا : « .. وإن كنت عاجزاً عن فهم هذا التناقض الغريب الذى يجعلك لا ترين فى خيانتك لزوجك أى غضاضة ، بينما تجدين كل الغضاضة فى القيام بواجبات الزوجية ! » .

فنظرت إليه متسائلة ثم قالت : « ما الذى تريده منى ؟ » .

فقال : « أريدك ألا تستقبلى ذلك الرجل هنا ، وأن تسلكى فى حياتك الخاصة ما لا يجعل لأحد من الناس أو الخدم سبيلا إلى لومك ! وهذا ليس بكثير فيما أرى . وفى مقابل ذلك سوف تستمتعين بكل امتيازات الزوجة الوفية ، دون أن تقومى بواجباتها ! هذا كل ما أردت أن أقوله لك ، والآن آن لى أن أذهب ، ثم أنى لن أتناول الغداء فى البيت اليوم » .

واتجه إلى الباب ، فنهضت هى أيضاً .. وإذ ذاك تركها تمر قبله وهو ينحنى لها فى أدب !

الفصل الرابع

-١٣-

• استمر الزوجان يعيشان معاً تحت سقف واحد ، ويلتقيان كل يوم ، لكنهما كانا أشبه بغريبين . وقد حرص أليكسى على أن يرى أنا كل صباح ، كيلا يجد الخدم مجالا للفروض والتقولات ، لكنه صار يتجنب تناول الغداء فى البيت . أما فرونسكى فانقطع عن التردد على بيت غريمه ، فكانت « أنا » تلقاه فى الخارج ، بعلم زوجها !

وكان الموقف أليماً لثلاثتهم ، بحيث ما كان واحد منهم ليستطيع أن يطيق استمراره يوماً واحداً ، لولا أمله فى أن يتغير ، فتزول هذه المحنة الأليمة « المؤقتة » . وكان أليكسى يعتقد أنها عاطفة عابرة سوف تمر وتنقضى ، كما ينقضى كل شىء ، وينساها ثلاثتهم ، فيبقى اسمه كالعهد به غير ملوث ! أما « أنا » — التى كان الأمر يتوقف عليها ، والتى كانت تقاسى منه أكثر من الرجلين — فإنها لم تحتمل هذا الوضع إلا وهى موقنة بأنه لن يلبث أن ينتهى إلى غايته فيتيسر تصحيحه ووضع الأمور فى نصابها ، وإن لم تكن لديها أية فكرة عن السبيل إلى ذلك ! وقد تبع فرونسكى خطاها راغماً ، وهو يأمل بدوره أن يحدث أمر — من غير جانبه هو — يحل جميع المشكلات ، وتستقيم به الأوضاع ! وذات يوم عاد فرونسكى إلى

بيته ، فوجد فى انتظاره رسالة من أنا تقول فيها : « إنى مريضة وشقية ، ولن أستطيع الخروج ، لكنى لن أستطيع أيضاً أن أبقى بغير أن أراك .. فتعال هذا المساء . وسوف يخرج زوجى إلى عمله فى السابعة ، ولن يعود قبل العاشرة ! » .

وفكر فرونسكى فى غرابة هذا الطلب من أنا ، برغم تشديد زوجها فى وجوب امتناعها عن استقباله فى بيته ، على أنه لم يجد بداً من أن يجيبها إلى طلبها ، فقرر الذهاب . لكن سنة من النوم عاقته عن الاستيقاظ فى الموعد المناسب ، فلما فتح عينيه وجد الظلام قد هبط ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ! .. فارتدى ثيابه على عجل وهو يفكر فى الكابوس الرهيب الغامض الذى رآه فى نومه ، واستقل عربته إلى دار غريمه ، فوصل إليها فى التاسعة إلا عشر دقائق . وكم كانت دهشته واستياؤه حين التقى فى مدخل البيت باليكسى خارجاً ، وقد ألقى ضوء الردهة الضئيل ظله على وجهه الشاحب الصارم وعينيه البليدتين ، فحدجه الزوج حين مر عليه بنظرة خرساء ، ثم رفع يده إلى قبعته ومضغ شفتيه ، رداً على انحناءة فرونسكى له ، ومضى إلى عربته ..

وتابع فرونسكى سيره فى الردهة وقد لمعت عيناه ببريق الكبرياء والغضب ، وأخذ يحدث نفسه : « يا له من موقف ! لو أنه بارزنى دفاعاً عن شرفه ، لاستطعت أن أتصرف ، وأعبر عن مشاعرى . لكنى لا أطيق هذا الضعف ، هذه الضعة ! إنه يضعنى

فى موضع المخادع المدلس، وأنا ما أردت هذا ، ولست أريده !» : وكانت آراء فرونسكى قد تغيرت منذ حديثه مع «أنا» فى حديقة «فيريدى» ، فاستكان دون وعى لضعف عشيقته التى أسلمت له نفسها ومصيرها تسليماً كاملا ذليلا !

وفى نهاية الردهة سمع وقع خطواتها ، فأدرك أنها كانت تنتظره وترقب حضوره فى لهفة ، ولم تكد تراه حتى صاحت به والدموع فى عينيها : « كلا ، لئن سارت الأمور على هذا المنوال فالنهاية أقرب مما تتصور ! » .

ـ ماذا جرى يا حبيبتى ؟

ـ ماذا جرى ؟ منذ ساعتين وأنا أنتظرك على جمر ! لكنى لن أتشاجر معك ، فأنت بالطبع لم تستطع الحضور قبل الآن . كلا ، لن أعاتبك !

ووضعت راحتيها على كتفيه ، ورمقته بنظرة طويلة عميقة ، حارة فاحصة ـ كأنما لتعوض ما فاتها منه فى غيابه ! ـ ثم استدارت ونزعت إبرة « الكروشيه » من قطعة الصوف التى تنسجها ، وبدأت تعمل فيها من جديد بحركة سريعة عصبية . ثم سألته : « أين التقيت بزوجى عند دخولك ؟ » ، فقال : « فى مدخل الردهة » . فنهضت وقلدت زوجها وهو ينحنى بالتحية ، ثم قالت : « أهكذا انحنى لك ؟ » ، فابتسم فرونسكى لبراعتها فى التقليد ، وضحكت هى فى مرح ، ثم أردف فرونسكى قائلا : « الواقع أنى لست أفهم على

الإطلاق : كيف يمكن أن يدع الأمور على هذا الوضع ، بعد اعترافك له بمدى الصلة التى بيننا ؟ !

فقالت : « إنه قانع بهذا الوضع ! » .

قال : « إذن ففيم ابتئاسنا جميعاً إذا كانت السعادة فى متناولنا» ؟

قالت : « أنت لا تعرفه كما أعرفه ، إنه غارق فى الزيف والنفاق حتى أذنيه . وإلا فهل يستطيع شخص عنده ذرة من الإحساس ، أن يعيش فى بيت واحد ـ كما يفعل هو ـ مع زوجته التى تخدعه ، وأن يتحدث إليها ويخاطبها بكلمة « عزيزتى » ؟ إنه فاقد الضمير والشعور ! بل إنه ليس رجلا ، ليس إنساناً على الإطلاق . إنه دمية لا أكثر ! ولو أنى كنت مكانه لقتلت ومزقت زوجة مثلى منذ أول لحظة ! أقول لك إنه ليس إنساناً ، بل آلة مصلحية . إنه لا يستطيع أن يفهم إنى قد غدوت زوجتك أنت ! أوه ، دعنا نكف عن التحدث فى أمره ! » .

فحاول فرونسكى أن يهدىء من ثائرتها وقال : « إنك ظالمة ، ظالمة جداً يا حبيبتى . ولكن دعينا من سيرته كما تقولين ، وحدثينى : ماذا كنت تفعلين ؟ ماذا أصابك ، وماذا قال الطبيب ؟ أحسبك لست مريضة ، وإنما هو الحمل الذى يسبب لك هذا التعب . متى يحين موعد الوضع ؟ » . وهنا انطفأت النظرة الساخرة فى عينيها ، وارتسمت على وجهها بدلا منها ابتسامة كئيبة غامضة ، وما عتمت أن أجابته : « قريباً . قريباً ! إنك تقول : إن موقفنا تعس جداً ،

وإننا ينبغى أن نضع له حداً . ولكن آه لو علمت كم أتألم أنا منه ؟ وماذا أبذل كى يغدو فى مقدورى أن أحبك فى حرية وجرأة ! والواقع أننى لا ينبغى أن أعذب نفسى وأعذبك بغيرتى ، ولتثق أن النهاية ستكون قريبة ، ولكن ليس على الصورة التى تنتظرها !».

وإذ تذكرت الصورة التى تتوقـع أن تكون عليها النهـاية ، تدافعت الدموع إلى عينيها وعجزت عن مواصلة الكلام ، فوضعت يدها على كمه وتشبثت به برهة، حتى استردت صوتها فاستطردت : « إن النهاية لن تكون كما نفترض . لم أكن أريد أن أقول لك ذلك ، لكنك دفعتنى إلى قوله . وقريباً سينتهى كل شىء ونتنعم جميعنا بالسكينة ولا نعود نتألم ! » .. فبدا التساؤل فى عينيه وقال لها : « لست أفهـم شيئاً ! » ، فقـالت : « ألم تسألنى متى يحين موعـد الولادة ؟ إنه سيحين قريباً ، ولن أعيش بعدها ! لا تقاطعنى ، أنا أعرف ذلك ، أعرفه عن يقين ! » .. وتساقطت الدموع من عينيها، فانحنى على يدها يقبلها ، محاولا إخفاء تأثره .. بينما أردفت هى : « إنه المخرج الوحيد الذى بقى أمامنا ! » .

وكان هو قد اعتدل واقفاً ، فرفع رأسه وقال لها : « يا للوهم! ما هذه السخافات التى تنطقين بها ؟ » .

— إنى سأموت .. لقد رأيت حلماً ؟ !

وتذكر فرونسكى الكابوس الرهيب الذى رآه فى نومه بعد الظهر ، بينما واصلت هى كلامها قائلة : « نعم ، حلمت بأنى دخلت

مخدعى لأبحث عن شىء ، فوجدت فى ركن منه قروياً ذا لحية كثة وشكل مخيف . وحاولت أن أعدو لكنه انحنى على غرارة وراح ينبش فيها بيديه ، هكذا .. » ، وأخذت تمثل حركته وقد ارتسم الرعب فى عينيها ، فتذكر فرونسكى حلمه ، وأحس برعب مماثل يستولى عليه ، بينما استطردت هى تقول : « ثم التفت الرجل المفزع إلى وقال : « سوف تموتين يا سيدتى وأنت تضعين طفلك ، ستموتين ! » ، وعندئذ استيقظت من نومى » .

— ١٤ —

● على أثر التقاء اليكسى وفرونسكى عند مدخل البيت ، مضى الأول إلى دار الأوبرا الإيطالية ، حيث شهد فصلين من الرواية ، ورأى كل من أراد أن يراهم ، ثم عاد أدراجه إلى البيت . وكان أول ما فعله حين دخل أن ألقى نظرة على المشجب ، فلما لم ير عليه معطف الضابط مضى إلى غرفته تواً . لكنه بدلا من أن يأوى إلى فراشه راح يذرع الحجرة حتى اقترب الفجر ، وقد أزعجه تحدى زوجته لتعليماته فى شأن كتمان صلتها بعشيقها ! .. وبعد أن قلب الأمر على وجوهه قرر أن يكون عند كلمته فيعاقبها بتنفيذ تهديده لها بالطلاق وانتزاع ابنها من حضانتها ، برغم كل العقبات والصعاب التى تكتنف هذا الإجراء !

ولم ينم طيلة الليل ، وظل غضبه يتفاقم حتى بلغ ذروته فى الصباح ، فنهض وارتدى ثيابه على عجل ثم مضى إلى مخدعها رأساً



واتجه دون أن يحييها إلى منضدة الكتابة التى تخصها
فتناول مفاتيحها وفتح بها أحد الأدراج ..

.. فأدهشها أن تراه يدخل عليها على هذه الصورة ، وقد زوى ما بين حاجبيه ، ولمعت عيناه بنظرة زائغة ، وفى انطباق فمه وحركاته ومشيته ونبرات صوته ما يدل على الحزم والتصميم !.. واتجه دون أن يحييها إلى منضدة الكتابة التى تخصها ، فتناول مفاتيحها وفتح بها أحد الأدراج ، فصاحت به أنا : « ماذا تريد ؟ » .

فقال دون أن ينظر إليها : « رسائل عشيقك ! » .

فقالت : « إنها ليست هنا ! » . ثم نهضت مسرعة وأغلقت الدرج ، لكنه أدرك من حركتها أنه كان على حق فى استنتاجه ، فنحاها جانباً واختطف من الدرج حافظة أوراق كان يعلم أنها تضع فيها أوراقها الخاصة ، فحاولت أن تنتزعها منه لكنه دفعها عنه فى شيء من العنف قائلا : « اجلسى ، فإنى أبغى أن أكلمك . لقد ذكرت لك أنى لن أسمح لك بأن تستقبلى عشيقك فى بيتى ! » .

فقالت : « أردت أن أراه كى .. » ، وسكتت مطرقة كأنما تبحث عن السبب ، فاستطرد هو قائلا : « لن أدخل فى تفصيلات الأسباب التى من أجلها تريد المرأة أن ترى عشيقها ! » .

— كان غرضى أن .. على أية حال فإنك تجد من السهل عليك أن تهينني ! ..

— الرجل الأمين والمرأة الأمينة يتلقيان الإهانات . أما أن يقال للص إنه لص فهذا تقرير أمر واقع وليس أكثر من ذلك !

— هذه القسوة شيء جديد لم أعهده فيك !

— أهي قسوة أن يعطى الزوج لزوجته حريتها ، ويعهد إليها بحراسة اسمه وشرفه ، لقاء شرط واحد بسيط هو المحافظة على المظاهر ؟ !

— إنها أسوأ من القسوة . إنها ضعة ، إذا أردت أن تعرف !

وكان وجهها وصوتها ينمان عن كراهية هائلة ، ثم نهضت وهمت بالخروج من الغرفة ، فاستوقفها بصرخة حادة غير مألوفة ، ثم قبض على ذراعها بقوة وعنف وأجلسها حيث كانت ، قائلا : « كلا ! إنما الضعة — إذا حرصت على استخدام هذه الكلمة — هي أن تضحى الزوجة بزوجها وطفلها من أجل عشيقها ، فى الوقت الذى تأكل فيه خبز هذا الزوج ! » .. فنكست رأسها ، ولم تقل ما قالته لعشيقها فى الليلة السابقة ، من كونه هو زوجها ، دون الزوج الحقيقى الذى صار منبوذاً من حياتها ! بل لم تشعر فى أعماقها بصحة هذا القول ، وإنما شعرت بعدالة غضبة زوجها ، وصدق كلماته .. فقالت فى نعومة : « لن تستطيع أن تصف موقفى بأسوأ مما أحسه أنا ! لكن ماذا تبغى ؟ » .

— ماذا أبغى ؟ أبغى أن تعلمى أنك ما دمت لم تنفذى رغبتى فى شأن المحافظة على المظاهر الخارجية ، فسوف أتخذ الإجراءات الكفيلة بوضع حد لهذه الحالة !

— كل شيء سينتهى قريباً على أية حال !

وإذ جال بذهنها خاطر الموت القريب المنشود ، لمعت الدموع فى عينيها .. بينما استطرد هو فقال : « إنه سينتهى بأسرع مما دبرت أنت وعشيقك ، فما دمتما تصران على إشباع غرائزكما الحيوانية .. » .

— اليكسى . لن أقول لك إن هذا مسلك غير كريم منك ، بل إنه مناف لشهامة الرجال أن تضرب ضحية خرت ساقطة !

— إنك تفكرين فى نفسك فقط ، أما آلام الرجل الذى كان زوجك فلا تعبئين بها ! لا يهمك أن تنهار حياته كلها وتصير حطاماً !

وكان يتكلم بسرعة وحدة جعلت أنفاسه تلهث ، فأحست بالرثاء له ، ولكنها لم تجد ما تقوله ، فاكتفت بأن نكست رأسها ولاذت بالصمت ! .. وصمت هو بدوره برهة ، ثم بدأ يتكلم بصوت أقل حدة وأكثر برودا : « لقد جئت لأقول لك .. » ، فنظرت إلى عينيه وحدثت نفسها : « أيمكن لمن له هاتان العينان البليدتان أن يحس أو يتألم ؟ » .

— جئت لأقول لك إنى ذاهب غداً إلى موسكو ، ولن أعود إلى هذا البيت . وسوف تصل إليك أنباء ما سوف أقرره بعد استشارة المحامى الذى سأعهد إليه فى قضية الطلاق . أما ابنى فسيذهب إلى بيت أختى .

– إنك تأخذ سريوشا لتنتقم منى ، لا لأنك تحبه . دع لى سريوشا !

– صدقت ، فلقد فقدت حتى حبى لابنى ، لأنه مرتبط بالنفور الذى أحسه نحوك . لكنى سآخذه مع ذلك ، فوداعاً !

وهم بالخروج ، لكنها عاقته هذه المرة هامسة فى ضراعة : « أليكسى ، دع لى سريوشا ! ليس عندى شىء آخر أقوله . دع سريوشا حتى يحين .. لن يطول بى الوقت حتى .. دعه لى ! » .. لكنه انتزع يده منها فى غضب رهيب ، وخرج .. دون أن يضيف حرفاً !

• • •

● فى اليوم التالى لوصول أليكسى إلى موسكو ، لقيه مصادفة « ستيفان أوبلونسكى » شقيق « أنا » ، وكانت معه زوجته «دوللى» وأطفالها ... فدعاه الزوجان إلى تناول العشاء فى ضيافتهما مساء اليوم التالى . مع نخبه من الأصدقاء ، وأصرا على دعوتهما برغم محاولته التملص منها ! .

وفيما أليكسى جالس فى اليوم التالى يعد أوراق قضية الطلاق ويضعها فى ظرف تمهيداً لإرسالها إلى محاميه ، بعد أن اتفقا على خطة السير فى الدعوى ، سمع صوت « ستيفان » مشتبكاً فى نقاش مع الخادم الذى يحول بينه وبين الدخول على سيده دون استئذان .

فهمس أليكسى محدثاً نفسه : « لا بأس ، لعل الخير فى حضوره . سأصارحه فوراً بموقفى نحو شقيقته ، وأوضح له سبب اعتذارى عن تناول الطعام عنده ! » . ولم يلبث « ستيفان » أن دخل وهو يهتف فى مرح : « كم أنا مسرور لأنى وجدتك ! أرجو أن .. » .. فقطع أليكسى كلامه قائلا فى برود ، دون أن يدعوه إلى الجلوس : « لن أستطيع الحضور ! » .

– لم لا تستطيع ؟ ماذا تعنى ؟ .. لكنك وعدت ، ونحن معتمدون عليك !

– أعنى أننى لن أستطيع تناول العشاء فى بيتك ، لأن أسباب الصلة التى كانت بيننا ينبغى أن تتوقف !

– ماذا ؟ ماذا تعنى ؟ ما السبب ؟

– لأنى شرعت فى اتخاذ إجراءات الطلاق ضد شقيقتك ، زوجتى ؟ !

.. وقبل أن يكمل أليكسى عبارته ، زفر ستيفان وتأوه ثم غاص فى مقعد مريح وهو يقول ذاهلا ، وقد بدا الألم فى وجهه : « كنى دعابة يا أليكسى ، ماذا تقول ؟ » .

– كما ذكرت لك ..

– لا تؤاخذنى ، إننى لا أستطيع تصديقك !

– لقد قادتنى الظروف الحتمية المؤلمة إلى السعى فى الطلاق !

— حسبى أن أقول لك شيئاً واحداً يا أليكسى : لقد عرفتك رجلا نابهاً ، قويم الخلق ، كما أعرف عن « أنا » أنها امرأة رائعة طيبة ، ولن أستطيع تغيير رأيى فيها . لذلك ينبغى أن تعذرنى إذا لم أصدق كلامك . لابد أن فى الأمر سوء تفاهم !

— ليته كان كذلك ؟!

— ربما استطعت أن أفهم ، ولكن يجب ألا تتعجـــل فى تصرفك !

— لست أحب العجلة فى أى شىء . لكن النصيحة لا تجدى فى مثل هذه الأمور . لقد استقر قرارى على ذلك !

— هذا فظيع ! ولكن دعنى أناشدك أن تفعل شيئاً واحــداً قبل أن تقدم على شىء : قابل زوجتى وتحدث إليها فى الأمر ، فهى تحب « أنا » كأخت ، كما تحبك أنت ، وهى امرأة حكيمة . فبربك حدثها فى الأمر ، امنحنى هذا الفضل .. أرجوك !

سكت أليكسى هنيهة ، متردداً ، فنظر إليه ستيفان فى عطف دون أن يقطع صمته .. ثم قال يسائله : « أذاهب أنت لتراها ؟ » .

— لست أدرى ، فقد كان هذا سبب إحجامى عن زيارتكم ، فإنى أحسب أن علاقتنا لابد سوف تتغير !

— ولم ؟ لست أرى رأيك . بل أعتقد أنك تكن لى — بغض النظر عن الصلة التى بيننا — مثل الشعور الودى والتقدير المخلص اللذين أكنهما لك . وحتى لو تحققت أسوأ افتراضاتك فلن ألوم

طرفاً منكما ، أو أنحاز إلى الآخر ، ولست أرى سبباً لأن تتأثر علاقتنا بشىء من هذا ! .. والآن ، افعل من أجلى هذا الصنيع ، تعال وقابل زوجتى !

— إن كلينا ينظر إلى الأمر من وجهة نظر مختلفة . وعلى أى حال ، لن نتناقش فى الأمر !

— ولم لا ؟ على كل حال ينبغى أن تحضر للعشاء معنا ، فإن زوجتى تنتظرك . وهى امرأة متزنة ، سوف ينفعك أن تحدثها فى الأمر . فبربك تعال ، إنى أستحلفك !

فقال أليكسى أخيراً وهو يتنهد : « حسناً ، ما دمت تريد ذلك ، فسأحضر ! » .

• • •

● التأم شمل المدعوين فى صالون بيت « ستيفان أوبلونسكى » منذ الغروب ، ولم يبق غائباً منهم غير « ليفين » .. فلما حضر بعد قليل أخذه ستيفان من ذراعه وقدمه لأليكسى على اعتبار أن الأخير شخصية بارزة يسر الجميع أن يتعرفوا إليها . لكن ليفين لم يكن ليلتذ فى حالة تسمح له بسرور التعرف إلى أحد ! .. فقد كانت أفكاره كلها تحوم حول « كيتى » ، شقيقة ربة الدار ، ولم يكن قد رآها منذ الليلة التى التقى فيها بفرونسكى لأول مرة ، فى دار أسرتها ؟ وقد استنتج حين دعاه ستيفان إلى العشاء أنه سوف يرى كيتى بين الحاضرين ، ومع ذلك وطن نفسه على احتمال أن لا يراها .

فلما أسر ستيفان إليه عند دخوله أنها موجودة ، شعر بمزيج من البهجة والذعر ، حتى لقد لهث قلبه بين ضلوعه من فرط الانفعال !

وكانت كيتى لا تقل عنه انفعالا وترقباً ، فلما دخل القاعة شعرت هى الأخرى بمزيج من الغبطة والقلق ، واحمر وجهها ، ثم شحب ، ثم احمر كالقرمز ، واختلجت شفتاها .. حتى لقد خشى أهلها المتابعون للموقف أن تفقد سيطرتها على أعصابها فتجهش بالبكاء ؟ .. فلما دنا ليفين منها انحنى لها ومد يده ، دون أن يتكلم .. وفيما عدا الاختلاجة الخفيفة فى الشفتين ، والندى اللامع فى العينين ، كانت ابتسامتها هادئة وهى تقول له : « منذ متى لم ير أحدنا الآخر ؟ » .. ثم ضغطت يده بيدها الباردة فى حركة يائس ، وأدارت رأسها الصغير الجميل نحوه ، وابتسمت . وبرغم أن عبارتها لم تنطو على معنى غير عادى فقد أحس ليفين فى كل نبرة من صوتها ، ورعشة من شفتيها ، ونظرة من عينيها ، توسلا من أجل الصفح ، وثقة فى شخصه ، ورقة ناعمة خجلى ، بل ووعداً وأملا وحباً له .. الأمر الذى أغرقه فى فيض من السعادة الغامرة !

ودون أن يلفت « ستيفان » الأنظار ، بل دون أن ينظر حتى إلى الشاب أو الفتاة ، أجلسهما متجاورين ، كأن ليس فى المكان مقاعد أخرى خالية ! .. وكانت السهرة ناجحة من كل وجه ، والمأدبة فاخرة الطعام والشراب ، والجماعة جذابة الحديث . وفى غرفة منعزلة التقى أليكسى ودوللى ، فابتدرت الأخيرة ضيفها

الكبير قائلة له وعلى فمها ابتسامة مشفقة : « يسرنى أنك حضرت .. فلتجلس هنا ، فإن لى معك حديثاً » .. فجلس بجانبها وهو يبتسم فى تكلف ، وعلى وجهه تعبير ينم عن عدم المبالاة ، ثم أجابها بقوله : « إن هذا من حسن حظى ، ولا سيما أنى كنت معتزماً الاعتذار والتخلف ، لأنى مسافر غداً ! » .

وكانت دوللى واثقة من براءة أنا ، فشحب وجهها ، وبدأت شفتاها تختلجان غضباً لمرأى وجه أليكسى الجامد ، الخالى من الشعور ، ثم قالت له فى عزم يائس وهى تواجهه بنظرة ثابتة : « أليكسى .. لقد سألتك أمس حين التقينا كيف حال « أنا » ، لكنك لم تجب .. فماذا هنالك يا ترى ؟ » .

— إنها فيما أعتقد بأتم خير !

— اغفر لى يا أليكسى هذا الفضول ، فليس من حقى أن أسألك : لكنى أحب زوجتك حبى لشقيقتى ، وأقدرها .. ومن ثم أرجو منك ، بل أتوسل إليك ، أن تصارحنى بما شاب العلاقة بينكما ؟ أى خطأ تنسبه إليها ؟

تجهم وجه أليكسى ، ونكس رأسه وكاد يغمض عينيه ، ثم قال : « أحسب أن زوجك حدثك عن مدى التطور الذى وصلت إليه العلاقات بينى وبينها » . فقالت له : « لكنى لست أصدق شيئاً من ذلك . لست أصدقه البتة ! » . فقال فى هدوء : « إن الإنسان لا يستطيع أن يكذب الحقائق يا دوللى ! » .

— ولكن ماذا فعلت هى .. ماذا فعلت بالضبط ؟

— ضحت بواجباتها ، وخانت زوجها .. هذا ما فعلته !

— كلا ! هذا غير ممكن ! .. أنت لا بد مخطىء !

ووضعت دوللى يديها على صدغيها وهى تتكلم ، وأغمضت عينيها ، فابتسم أليكسى فى برود ، قاصداً أن يظهر لمحدثته ولنفسه ، مبلغ اقتناعه بما يقول .. لكن هذا الدفاع الحار عن زوجته ، وإن لم يزعزع يقينه ، كان قد نكأ جرحه .. فبدأ يتكلم بحرارة أشد ، وهو يقول : « من الصعب أن يخطىء المرء حين تكون الزوجة نفسها هى التى صرحت له بخطيئتها ، وبأن ثمانية أعوام من حياتها ، وفلذة من كبدها ، كانت كلها خطأ جسيما ، وبأنها تبغى أن تبدأ حياتها من جديد ! » .

— « أنا » هى التى صرحت بخطيئتها ؟ لست أستطيع أن أصدق ذلك !

.. وعندئذ قال أليكسى وهو يواجه محدثته لأول مرة بنظرة مباشرة ، إلى وجهها الرقيق المضطرب : « ليتنى أستطيع أن أشك فى الأمر .. فعندما كنت مرتاباً فيه كنت تعساً ، لكن ذلك كان خيراً من حالى الآن . كانت عندى بقية من أمل ، أما الآن فلم يبق ثمة أمل على الإطلاق ! ومع ذلك فمازلت أرتاب فى كل شىء ، إلى حد أنى أمقت ولدى ، وأحياناً أشك فى أنه ابنى ! .. إنى شقى كل الشقاء ! » .

ولم يكن فى حاجة إلى أن يقول هذا ، فقد قرأته دوللى على وجهه ، فرثت لحاله .. وبدأ إيمانها ببراءة صديقتها يتزعزع ! لكنها عادت تقول : « إن هذا لفظيع ! ولكن ، أو تعتزم أنت الطلاق حقاً ؟ » .

— نعم ، فلم يبق أمامى مخرج آخر !

فقالت دوللى والدموع فى عينيها : « لم يبق أمامك مخرج آخر ! أوه ، لا تقل هذا ! » .. فقال : « إن أفظع ما فى الكارثة التى من هذا النوع أن الإنسان لا يستطيع فيها — كما فى خسارة المال ، أو الموت — أن يحتمل مصيبته فى سكينة ، وإنما لا بد له من أن يتخذ خطة إيجابية يخرج بها من الوضع الذليل الذى وضع فيه ! » .

— أفهم ذلك ، أفهمه جيداً .. ولكن ، انتظر قليلا : أنت رجل متدين .. فكر فيها ، وفيما عساه يكون من أمرها إذا نبذتها !

— لقد فكرت فى ذلك ، فكرت فيه ملياً . هذا ما فعلته تماماً حين كاشفتنى بمذلتى . تركت كل شىء على حاله ، ومنحتها فرصة الرجوع عن غيها .. حاولت أن أنقذها ! ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ أنها لم تعبأ بمراعاة أبسط الأشياء .. فماذا فى وسعى أن أفعل ؟ !

— أى شىء .. ما عدا الطلاق .

— وما هو هذا الشىء ؟

— كلا ، هذا فظيع : أن لا تغدو زوجة لأحد . إنها سوف تهلك !

فقال أليكسى وهــو يهز كتفيه ويرفع حاجبيــه : « وماذا أصنع ؟ » .. ثم أضاف وهو ينهض : « أنا شاكر لك عطفك واهتمامك ، لكنى يجب أن أنصرف الآن » ، فصاحت به هاتفــة فى انزعاج : « كلا ، انتظر لحظة . لا تقض عليها . أعطها فرصة أخرى .. ولأحدثك عن نفسى : كنت متزوجة ، وخاننى زوجى ، فقررت فى نوبة غضبى وغيرتى أن أدمر كل شىء . لكنى عدت إلى صوابى فى اللحظة الأخيرة . ومن الذى هدانى وأنقذنى ؟ إنهـا « أنا » نفسها ! .. وهأنذا سعيدة بأولادى وبزوجى الذى تاب وندم على حماقته . وقد صفحت عنه ، وأنت ينبغى أن تصفح أيضاً ! » .

أصغى أليكسى إليها ، لكن كلماتها لم تؤثر فيه ، فقال بصوت صارخ مرتفع ، ينضح بالكرامة : « أنا أصفح ؟ كلا ! لست أستطيع ، ولا أريد .. بل أعتبر الصفح هنا غلطة كبرى . لقــد بذلت كل شىء من أجل هذه المرأة ، لكنها نبذته جميعه وألقت به فى الوحــل الذى نبتت منه ! .. وأنا لست رجــلا حقوداً ، وما كرهت فى حياتى إنساناً ، لكنى أكرهها هى الآن من كل قلبى ، ولا أستطيع أن أغفر لها الشر الجسيم الذى فعلته بى ! » .. فناشدته دوللى هامسة ، مرددة وصية المسيح : « أحبوا أعداءكم .. أحسنوا إلى مبغضيكم ! » .. لكن أليكسى ابتسم فى اشمئزاز ، ثم أردف قائلا : « قد يستطيع الإنسان أن يحب كارهه ، أما أن يحب المكروه ، فهذا مستحيل ! » .

ثم تمالك نفسه ، ونهض فودع دوللى .. وانصرف فى هدوء !

• • •

● على أثر نهوض المدعوين من مائدة الطعام أراد ليفين أن يخلو إلى كيتى ، فتبعها إلى حيث جلست إلى إحدى الموائد الخضراء تعبث بقطعة من الطباشير الملون .. وابتدرها قائلا : « لقد طالمـا أردت أن أسألك سؤالا واحداً » .. فرفعت إليه عينيها متسائلة ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، بينما تناول هو قطعة الطباشير وكتب بها هذه العبارة : « عندما قلت لى إن الأمر مستحيل ، هل كان قصدك أنه مستحيل وقتئذ فقط ، أم على الدوام ؟ » .

توردت وجنتاها خجلا ، لكنهـا تمالكت نفسها بعد هنيهة وعادت الابتسامة إلى شفتيها ، ثم تناولت منه قطعة الطباشير وكتبت مجيبة عن سؤاله : « كان قصدى يومئذ على الدوام » ، فلم أكن أستطيع أن أقول غير ذلك . أما الآن فالأمر مختلف ! » .. فقال لها مغتبطاً : « إذن فالأمر غير مستحيل الآن ؟ ! » .. فأومأت برأسها موافقة . ثم تناولت قطعة الطباشير وهى تقول له : « اقرأ هــذه العبارة » ، ثم كتبت : « هل فى وسعك أن تنسى ، وتصفح عمـا

حدث ؟ » ، فقال لها على الفور : « ليس عندى ما أنساه أو أصفح عنه ! » .

وحين آن أوان الانصراف ، كان الاثنان قد تبادلا التفاهم على كل ما يشغل بالهما .. فأكد هو أنه يحبها ، وأكدت هى أنها تحبه ، وأنها ستخبر أباها وأمها بأنه سيزورهم فى صباح الغد !

ولم ينم ليفين ليلتها ! .. وفى الصباح الباكر خف إلى دارها فوجد باب الزائرين ما يزال مغلقاً ، فعاد أدراجه إلى فندقه وهو يتملى جمال الطبيعة فى البكور ، ويرقب الحمائم الجميلة وهى تهبط من أعشاشها إلى أرصفة الشوارع لتلتقط حبات الحنطة .. وقبيل الظهر استقل الشاب زحافة حملته إلى دار آل شرباتسكى ، حيث استقبله الخدم فى شوق ولهفة ، وقد بدا فى نظراتهم المرحبة أنهم « فهموا ما هنالك » ! .. ثم جلس ينتظر مشفقاً إقبال حبيبته التى ركز فيها كل سعادته ، بل حياته كلها .. وما لبثت أن أقبلت عليه فى خطى خفيفة طائرة ، فلم ير غير عينيها الصافيتين الصادقتين ، يشيع فيهما ذات الحب المبارك الذى يغمر قلبه هو .. ووقفت بجانبه ، وأراحت يديها على كتفيه فى خجل ونشوة ، فأحاطها بذراعيه .. وسرعان ما تلاقت شفاههما فى قبلة نمت عن حبهما المتبادل المكين .

وكانت هى أيضاً لم تنم ليلتها ، وبقيت تنتظره حتى الصباح لتخبره بأنها خاطبت أبويها فى الأمر فوافقا من فورهما مرحبين .

ثم جذبته من ذراعه وقالت له فى مرح كمرح الأطفال : « هيا بنا ، إن أمى فى انتظارنا » . وحاول هو أن يقول شيئاً ، لكنه أشفق أن يفسد عاطفته بكلمة ! وأحس أن دموع الفرح تتزاحم فى عينيه ، فتناول يدها وطبع عليها قبلة ، ثم قال أخيراً بصوت مختلج : « أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ لست أصدق أن تحبينى أيتها العزيزة الغالية » .. فابتسمت منتشية بعذوبة عبارته ونظرت إليه ، ثم أجابته مطمئنة :

— نعم ! نعم أيها العزيز ، وإنى لسعيدة كل السعادة ؟

ثم قادته من ذراعه إلى أمها ، فقبلتهما والدموع فى عينيها ، وهتفت بهما : « إذن فقد تفاهمتما ؟ إنى مسرورة يا كيتى . وأنت يا ابنى ، فلتحبيها على الدوام ! » . وقال الأب متظاهراً بعدم التأثر ، وإن لمح ليفين الدمع يرطب عينيه : « إنكما لم تضيعا وقتاً فيما أرى . لقد طالما تمنيت أنا هذه النتيجة ، حتى عندما توهمت هذه الحمقاء الصغيرة أنها .. » .. فبادرت كيتى إلى وضع يدها على فمه حتى لا يتم عبارته . فابتسم وقال : « حسناً حسناً . فلأصمت . إنى لسعيد جداً .. أوه ، كم كنت غبياً ! » .. وقبل كيتى : قبل وجهها ، ويديها ، ثم وجهها مرة أخرى . ورسم علامة الصليب على صدرها ، فانحنت كيتى على يده الجافة المعروقة وطبعت عليها قبلة رقيقة شاكرة ! .

- ١٥ -

● عاد أليكسى إلى غرفته بالفندق فوجد فى انتظاره برقية من «أنا» تقول فيها : «أنى أحتضر ! أرجو منك ، بل أتوسل إليك أن تحضر ، كى أموت ميتة أسهل ، بعد صفحك ! » .

وابتسم أليكسى فى احتقار وهو يطوى البرقية ، وقال محدثاً نفسه : «إنها حيلة مفضوحة ، وأكذوبة لن تنطلى على ! .. ولكن ترى ما غرضها ؟ إن موعد وضعها طفلها قد اقترب ، فهل فاجأتها الساعة قبل أوانها ؟ وهل تبغى بحيلتها هذه أن أعترف بأبوة المولود ، أم تراها تريد أن تساومنى كى أعدل عن الطلاق ؟ .. لكن هل هى تحتضر حقاً ؟ وهل جعلها شبح الموت تندم وتثوب ؟ لو أن ذلك كان صحيحاً ولم أستجب لدعوتها ، فإن هذا يعد غباء وقسوة منى ! »

.. ثم نادى خادمه «بيوترى» وقال له : «ادع لى عربة ، فإنى عائد تواً إلى بطرسبرج ! » . لقد قرر أن يذهب ليرى زوجته ، فإن وجد الأمر خدعة عاد أدراجه من فوره ، وإن كانت مريضة وفى حالة خطرة حقاً ، وقد أرادت أن تراه قبل موتها ، صفح عنها — إن كانت ما تزال حية — أو شيع جنازتها فى موكب ملائم ، إذا وصل بعد فوات الأوان !

ولم يفكر طول الطريق فيما عساه أن يفعل بعد وصوله . وقد وصل به القطار إلى بطرسبرج وضباب البكور يغلف المدينة بغلالة تحجب معالم الأشياء ، ولا تدع غير أشباحها . وفيما كانت العربة

تدرج به فى الطرقات المؤدية إلى داره ، لم يستطع منع نفسه من التفكير فى احتمال ألح على خاطره : «إن موتها يحل الموقف المعقد الذى بات يكتنف حياتهما ! » .. وتتابعت أمام بصره أشباح الحوانيت المغلقة ، والمخابز ، والكناسين .. وخلال ذلك لم يكف عن التفكير فى الخاطر الذى جرؤ — ولم يجرؤ ، فى الوقت عينه — على أن يتمناه ! . وفيما هو يجتاز مدخل البيت ، بعث عزمه الخائر من مرقده — فى أعمق ركن من رأسه — ونصبه أمامه مخلوقاً سوياً ، ماثلا للعيان ، ثم خاطبه قائلا : «إن كان الأمر خدعة ، فاعتصم بالهدوء المنطوى على الاحتقار ، وارحل من حيث جئت . وإن كان الأمر حقيقة ، فافعل ما ينبغى فعله ! » .

وفتح له الحارس الباب قبل أن يدق الجرس ، فسأله :

— كيف حال سيدتك ؟

— وضعت مولودها بالسلامة أمس !

فتوقف أليكسى كمن سمرت قدماه ، وشحب وجهه كالأموات ! لقد أدرك لم كان يتمنى موتها ! ، لكنه عاد فسأل الخادم : «وكيف حالها ؟ » . فقال الخادم حزيناً : «سيئة جداً يا سيدى ، وقد اجتمع الأطباء للتشاور فى أمرها أمس . ويوجد أحدهم عندها الآن ! » .. وهنا شعر أليكسى بشىء من الارتياح لبقاء الأمل فى موتها ، ثم دلف إلى الردهة الداخلية . وحانت منه نظرة إلى المشجب فإذا عليه معطف عسكرى .. فسأل الخادم : «من

هنا ؟ » ، فقال : « الطبيب والقابلة .. والكونت فرونسكى ! » .
ولم يكن هو فى حاجة إلى أن يسمع هذا الجواب ، فمضى إلى مخدع زوجته . وفى الغرفة الخارجية الملحقة بالمخدع التقى بالقابلة ، فأخذت بذراعه وهمست له وهى تقوده نحو مخدع الوالدة : « حمداً لله لكونك قد جئت . إنها تهذى باسمك بغير انقطاع ، ولا شىء غير اسمك ! » . وسمعا صوت الطبيب ينادى من الداخل : « أسرعى بالثلج فوراً ! » ، فمضى أليكسى إلى مخدع زوجته .. وكان أول من رآه قرب الباب غريمه « فرونسكى » ، جالساً على مقعد منخفض وقدأخفى وجهه بين يديه وانخرط فى بكاء صامت ، فلما سمع صوت الطبيب نهض ليلبى طلبه ، وإذ فوجىء برؤية الزوج عراه الاضطراب فغاص فى مقعده من جديد ودفن رأسه بين كتفيه ، كأنما أراد أن يختفى عن ناظريه .. ثم بذل مجهوداً حتى تمالك نفسه فنهض وقال للزوج : « إنها تحتضر ، والأطباء يقولون : ليس هناك أمل ! .. إنى تحت رحمتك تماماً ، لكنى أرجو أن تدعنى هنا .. إنى رهن تصرفك .. إنى .. » .

وإذ رأى أليكسى دموع غريمه ، أحس بوادر تلك الفورة العاطفية التى تنتابه لدى رؤية دموع الآخرين ومظاهر آلامهم ، فأشاح بوجهه عن محدثه ومضى بدون أن يسمع بقية كلامه ، متجهاً إلى فراش أنا ، وكانت هى فى تلك اللحظة تهمس بطلب شىء . كانت راقدة على ظهرها وقد اتجهت بوجهها إلى جانبها ، وكانت

وجنتاها محتقنتين بلون القرمز ، وعيناها تلمعان ، ويداها الصغيرتان الشاحبتان تعبثان باللحاف فتنقبضان عليه وتتقلصان ثم تنفرجان .. وقد أخذت تهمس بصوت خافت واضح ولهجة سريعة : « إنى أقصد أليكسى زوجى . إنه لن يرفض رجائى . ينبغى أن أنسى ، إنه لا بد أن يصفح . ولكن لم لم يأت إنه طيب ، طيب إلى درجة لا يعلمها هو ذاته ! .. آه يا إلهى ، أى عذاب هذا ؟ ! .. أعطونى ماء ، أسرعوا ؟ أوه ، هذا سوف يضرها ، ابنتى الصغيرة ! .. حسناً ، أعطوها إذن لمرضة . نعم ، أنا موافقة . هذا أفضل فى الواقع . إنه سيأتى ،وسوف يؤلمه أن يراها .. أعطوها للممرضة ! » .

وقالت لها القابلة : « أنا .. لقد جاء ، هذا هو ! » .. فأجابتها وهى لا ترى زوجها : « هراء ! كلا ! أعطونى إياها ، أعطونى صغيرتى .. إنه لم يأت بعد .. تقولون إنه لن يأتى؟ إنكم لا تعرفونه . لا أحد يعرفه غيرى ، وقد قاسيت طويلا حتى عرفته على حقيقته . إنى أعرف عينيه ، وقد ورث سريوشا عنهما نظراته ، لذلك لا أطيق أن أراها . هل تناول سريوشا غذاءه ؟ أعلم أن الجميع سوف ينسونه ، لكنه هو لن ينساه . يجب أن ينقل سريوشا إلى الغرفة التى فى الزاوية ، وقولوا لـ « ماريت » أن تنام معه ! » .. وهنا وقعت عينها على أليكسى ، فأجفلت وارتدت فى فراشها مذعورة .. ثم رفعت يديها إلى وجهها فى فزع كأنما لتدرأ عن نفسها ضربة قاضية ! وأخيراً هتفت قائلة « لا ، لا .. لست خائفة



وقعت عينها على أليكسى ، فأجفلت وارتدت
فى فراشها مذعورة ..

منه ، إنى خائفة من الموت . أليكسى ، تعال هنا ، إنى متعجلة ، لا وقت عندى أضيعه . لم يبق أمامى غير وقت قصير أحياه . ستبدأ الحمى حالا ولن أعود أفهم شيئاً . لكنى الآن فى وعي ، أفهم كل شىء وأرى كل شىء ! » .

واكتسى وجه أليكسى المغضن بطابع النزع ، فتناول يدها وحاول أن يقول شيئاً ، لكنه عجز عن أن ينطق به ، فاختلجت شفته السفلى ، وظل يصارع عاطفته — وهو ينظر إليها بين لحظة وأخرى — فيرى فى كل مرة عينيها تحدقان فيه فى لطف ورقة بالغين لم يكن له عهد بهما من قبل . وما لبثت أن خاطبته ، فى صوت متقطع ، قائلة : « انتظر لحظة . أنت لا تعرف . أمكث قليلا ، أمكث .. نعم ، نعم ، نعم . هذا ما أردت أن أقوله ، ولا تدهش له . إنى ما زلت كما كنت ، لكن هناك امرأة أخرى فى داخلى ، وأنا خائفة منها . إنها أحبت ذلك الرجل ، وأنا حاولت أن أكرهك ، لكنى عجزت عن نسيانها .. إنى لست تلك المرأة .. أنا الآن على حقيقتى . إنى الآن أحتضر ، أعلم أنى سأموت . اسأله .. إنى أشعر .. انظر هنا ، ها هى الأثقال على قدمى ، على يدى ، على أصابعى . انظر كم هى ضخمة أصابعى ! .. لكن هذا كله لن يلبث أن ينقضى . شىء واحد أريده : اغفر لى ، اغفر لى تماماً .. إنى مخطئة ، لكن الممرضة تقول لى .. الشهيدة المقدسة ، ماذا كان اسمها ؟ كانت أسوأ منى ، وأنا سأذهب إلى روما . هناك توجد

أحراش ، وهناك لن أضايق أحداً .. فقط سآخذ سريوشا والصغيرة معى .. كلا ، إنك لا تستطيع أن تغفر لى ! أنا أعلم ، إنه شىء لا يغتفر ! .. كلا ، كلا ، اذهب بعيداً ، إليك عنى .. أنت طيب أكثر مما ينبغى ! » .

وأمسكت بيده فى إحدى يديها الملتهبتين من الحمى . بينما راحت تدفعه عنها باليد الأخرى ! .. وكان انفعال أليكسى العصبى آخذاً فى الازدياد ، حتى بلغ درجة عجز معها عن مقاومته ، ثم أحس أن انفعاله تحول إلى سكينة مباركة منحته فجأة سعادة لم يكن له عهد بها طيلة حياته ! .. لم يعد يشعر بأن أحكام الدين هى التى تطالبه بأن يصفح عن أعدائه ويحبهم ، بل أحس أن الصفح والحب يملآن قلبه دون أن يفرضهما عليه عامل خارجى .. فجثا على ركبتيه وأمسك يد « أنا » ، وألصق جبينه بذراعها المتقدة بحرارة الحمى .. ثم راح ينشج باكياً ، كطفل صغير ! وأحاطت هى رأسه بذراعها ، ثم زحفت بجسمها نحوه ورفعت عينيها فى كبرياء وتحد ، وقالت : « هذا هو . إنى أعرفه . والآن فلتصفحوا عنى جميعكم ، واحداً واحداً ، وأنت ، تذكر شيئاً واحداً : هو أنى لا أريد غير الصفح ، ولا شىء غيره . لم لا يأتى هو ؟ » .. وأدارت عينيها نحو الباب ، نحو فرونسكى ، ثم أضافت : « تعال ، تعال . أعطه يدك » ! .. وأقبل فرونسكى إلى جوار الفراش ، فلما التقى بصره بأنا أخفى وجهه بين يديه ، فهتفت به : « اكشف وجهك ، انظر

إليه . إنه ملاك . أوه ، اكشف وجهك ، اكشف وجهك . أواه يا أليكسى ، اكشف وجهه ! أريد أن أراه ! » .. فأخذ أليكسى يدى فرونسكى فى يديه وأبعدهما عن وجهه ، الذى كانت ترتسم عليه أبشع تعبيرات الذعر والعار ، وإذ ذاك ناشدت « أنا » زوجها قائلة : « أعطه يدك . اصفح عنه ! » .. فمد أليكسى إليه يديه ، دون أن يحاول قمع الدموع التى هطلت من عينيه ، واستطردت هى تقول : « حمداً لله .. حمداً لله .. ! .. الآن صار كل شىء معداً . لم يبق غير أن أمد ساقى قليلا . هكذا ، هذا أفضل . ما أسوأ رسم هذه الزهور ، إنها لا تشبه البنفسج فى شىء . يا إلهى ، يا إلهى ، متى سينتهى كل شىء ؟ أعطنى حقنة « مورفين » يا دكتور . أعطنى حقنة مورفين . أوه ، يا إلهى .. يا إلهى ! » .. ومضت تتأوه وتتقلب فى الفراش . إنها حمى النفاس ، فيما قال الأطباء ، وهى تنتهى بالموت فى تسع وتسعين حالة من كل مائة ! .. واستمرت الحمى ، والهذيان ، والغيبوبة ، تتتابع على المريضة طيلة اليوم . وفى منتصف الليل فقدت المريضة وعيها تماماً ، وضعف نبضها حتى كاد لا يسمع .. وبدت النهاية متوقعة !

وانصرف فرونسكى إلى بيته .. وفى الصباح عاد ليستفسر عن الحالة ، فقال له أليكسى : « يحسن أن تبقى ، فقد تسأل عنك » .. ثم قاده بنفسه إلى حجرة الزينة الملحقة بالمخدع !

وفى اليوم الثالث تكرر الهذيان ، وفقدان الوعى ، وقال الأطباء

إن هناك بصيصا من الأمل ! .. وفى ذلك اليوم توجه أليكسى إلى حجرة الزينة حيث جلس فرونسكى ، ثم أغلق الباب وجلس فى مواجهته .. فابتدره هذا وقد توقع أن يفاتحه الزوج فى حل للموقف : « أليكسى ، أنا عاجز عن الكلام ، عاجز عن الفهم ، فجنبنى كل ذلك الآن . ومهما يكن الأمر قاسياً عليك فصدقنى إنه أكثر فظاعة بالنسبة لى ! » .. وهم بالنهوض ، لكن أليكسى جذبه من يده وقال له « أتوسل إليك أن تصغى إلى ، فهذا ضرورى . يجب أن أوضح مشاعرى ، المشاعر التى أملت على تصرفاتى وسوف تمليها على ، كيلا تقع فى خطأ يتصل بى . أنت تعلم أننى اعتزمت الطلاق ، بل شرعت فى اتخاذ إجراءاته ، ولا أخفى عليك أنى حين بدأت السير فى هذا السبيل كنت فريسة لشك وشقاء مروعين ، تحدونى الرغبة فى الانتقام لنفسى ، منك ومنها . وحين تلقيت برقيتها جئت إلى هنا تتملكنى هذه المشاعر نفسها ، بل وأعترف بأنى كنت أتمنى موتها ! » .

وتردد برهة ، حائراً بين الإفضاء بجلية مشاعره أو كتمانها ، ثم استطرد فقال : « لكنى رأيتها ، وصفحت عنها ! .. وأرشدتنى سعادتى بالغفران إلى واجبى الذى ينبغى أن أؤديه . إنى أغفر غفراناً كاملا ، بل إنى على استعداد لأن أدير خدى الآخر لمن صفعنى ! وكل ما أصلى إلى الله من أجله هو ألا ينتزع منى بركة الغفران ! » .. وتحجرت الدموع فى عينيه ، وأثرت نظرته البراقة الصافية فى نفس فرونسكى ، بينما استطرد هو فقال : « هذا هو موقفى . وفى

استطاعتك أن تمرغنى فى الوحل ، وتجعلنى أضحوكة العالم بأسره ، لكنى لن أنبذها ، ولن أتوجه إليك يوماً بكلمة لوم ! إن واجبى واضح أمامى كالشمس ، ينبغى أن أبقى بجانبها ، وسأبقى .. فإذا أرادت أن تراك فسوف أخبرك برغبتها . أما الآن فأعتقد أنه يحسن بك أن تذهب بعيداً ! » ..

ونهض ، وقد قطعت غصته الكلمات فى حلقه ، ونهض فرونسكى فى أثره ، عاجزاً عن فهم مشاعر أليكسى ، وإن أحس أنها أرفع وأسمى من أن يستطيع التحليق إلى سمائها .. ثم هبط سلم الدار ووقف عند مدخلها : لم يذكر إلا بصعوبة أين هو ؟ وإلى أين ينبغى أن يمضى ؟ .. أحس نفسه ذليلا آثماً ، مجللا بالخزى والعار ، محروماً من كل أمل أو فرصة فى أن يستطيع غسل مذلته ! .. بل أحس أن الأوضاع قد انقلبت . أحس ضعته وزيفه هو ، وسمو غريمه وصدقه ! .. وبدا أليكسى فى نظره رائعاً عظيماً ، حتى فى أساه ومحنته ، بقدر ما بدا هو وضيعاً حقيراً ، فى خداعه ! .. على أن هذا الإحساس بمذلته أمام الرجل الذى كان هو يحتقره ظلماً ، من غير حق ، لم يكن غير عامل ضئيل من عوامل شقائه الحاضر . فهو الآن يحس أنه تعس ! إن عاطفته نحو أنا ، عادت أقوى منها فى أى يوم مضى ! — وكان قد ظن أنها بدأت تفتر ويعتريها البرود — لقد أدرك أنه فقد « أنا » إلى الأبد . فقدها بعد أن رأى منها — فى مرضها — روحها ونفسها ، فبدا له أنه لم يحبها حقاً قبل ذلك !

والآن وقد عرفها كما ينبغى أن تعرف ، وأحبها كما يليق أن تحب ، ها هو يهان ويذل أمامها ، بل ها هو يفقدها إلى غير رجعة ، غير تارك معها من نفسه إلا ذكرى مخزية ؟ !

وأفاق من خواطره الموجعة على صوت الحارس يسأله : « أتريد زحافة يا سيدى ؟ » ، فغمغم قائلا : « نعم ، أريد زحافة ! » . وحين بلغ بيته ، بعد ليال ثلاث لم يذق فيها النوم ، تمدد بملابسه فوق « كنبة » عريضة ، ووسد رأسه راحتيه ! لكم تثقل رأسه الصور ، والذكريات ، والأفكار التى تتتابع على وعيه فى حدة وسرعة خارقتين ! .. وحين أوشك فى لحظة من اللحظات أن يغيب فى إغفاءة مريحة شهية ، تنبه فجأة على فحيح مخيف يهمس فى سمعه ووعيه : « .. وفى استطاعتك ، أن تمرغنى فى الوحل ! » .. وتمثل له أليكسى واقفاً أمامه ، و « أنا » بوجنتيها المضرجتين ، وعينيها الزائغتين الملتهبتين ، ترمقان زوجها بالحب والرقة والوله ! .. ثم تمثل أليكسى وهو يمد يديه إلى راحتيه فيبعدهما عن وجهه ، ليكشفه لأنا كما طلبت ! .. وتقلب على فراشه كمن يتقلب على سعير . وهكذا أدرك أن لا أمل له البتة فى أن يظفر فى ليلته هذه بنعاس ، أو نسيان ، فقفز جالساً على حافة الأريكة وهو يغمغم فى عصبية : « ما هذا ؟ هل أوشك أن أفقد عقلى ؟ ربما ! ما الذى يفقد الناس عقولهم ؟ ما الذى يغرى الناس بإطلاق الرصاص على أنفسهم ؟ هكذا ينتحر الإنسان ، كى ينجو بنفسه من المذلة ! » .

ومضى إلى الباب فأغلقه ، ثم مضى إلى منضدة فأخرج من درجها مسدساً ، وتلفت حوله .. ثم استغرق فى التفكير ، فى ذكريات سعادته التى فقدها إلى الأبد ! .. وجعلت أفكاره تدور وتدور حول تلك الدائرة من الذكريات والصور ، فمد يده بالمسدس إلى الناحية اليسرى من صدره ، وشدد قبضته عليه .. ثم جذب الزناد !

ولم يسمع صوت الطلقة ، لكن ضربة عنيفة على صدره ألقته على الأرض . وحاول أن يتشبث بحافة المنضدة ، تاركاً المسدس يسقط من يده ، لكنه هوى برغم ذلك إلى أسفل ، فلم يحس بنفسه إلا وهو جالس القرفصاء على أرض الغرفة ينظر إلى ما حوله فى دهشة . وتنبه من ذهوله على صوت خطوات خادمه يقبل مهرولا ، فبذل محاولة لكى يستيقظ من دواره . وإذ رأى الدم على السجادة وعلى ذراعه ، أدرك أنه قد أطلق النار على نفسه ! .. وبرغم أن المسدس كان إلى جواره فقد بقيت يده تبحث عنه فيما حوله ، دون جدوى . ثم تحامل على نفسه وحاول أن يستند إلى جذعه كى يواصل البحث ، لكنه فقد توازنه فسقط بعنف يتخبط فى دمه !

وذعر الخادم إذ رأى سيده على هذه الصورة ، غارقاً فى بركة من الدماء ! فهرع إلى الخارج ينشد إسعافاً ، تاركاً الجريح ينزف دمه بدون توقف . ولم تمض ساعة حتى كان الخادم قد عاد ومعه « فاريا » زوجة أخى سيده ، ثم وصل ثلاثة من الأطباء دعتهم



وحاول أن يتشبث بحافة المنضدة ، تاركًا المسدس
يسقط من يده ، لكنه هوى ..

« فاريا » لإسعافه فى وقت واحد ، فحمل الجريح إلى فراشه حيث بقيت زوجة أخيه ساهرة عليه تمرضه وتعنى به !

-١٦-

● لم يكن أليكسى قد عرف قلبه على حقيقته ، حتى كان ذلك اللقاء الفاجع بينه وبين زوجته وهى على فراش الموت ، حيث ترك العنان – لأول مرة فى حياته – لذلك الشعور بالإشفاق على المتألمين ، الذى كان قبل ذلك يعده ضعفاً مخزياً ، غير خليق بالرجال ! .. فلما انتابته تلك الشفقة على زوجته ، والندم على كونه قد تمنى موتها ، والفرحة الغامرة بالغفران لها والصفح عن إثمها ، شعر من فوره بالخلاص من آلامه الخاصة ، وبسلام نفسى وسكينة روحية لم ينعم بهما قط من قبل ! .. شعر بأن الشىء الذى كان مبعث ألمه وعذابه قد بات مبعث نشوته الروحية .. وأن ما كان يبدو له غير قابل للحل – وهو فى نوبة لومه وبغضه وتفكيره فى الانتقام – قد أمسى بسيطاً واضحاً محلولا من تلقاء ذاته ، حين صفح وأحب ! .. لكنه بمضى الزمن ازداد إدراكاً وشعوراً بأنه مهما يبدو الموقف الآن فى نظره طبيعياً ، فإن الظروف لن تسمح له بالبقاء على ذلك طويلا ! شعر أن هناك ، بجانب القوة الروحية المباركة التى تسيطر على نفسه ، قوة أخرى وحشية تصارعها بل تزيد عليها سطوة ، هى التى تسيطر على حياته .. وأن هذه القوة الأخيرة لن تسمح له بأن ينعم طويلا بذلك السلام المتواضع الذى

تاق إليه . وأحس أن كل شخص ينظر إليه فى عجب وتساؤل ، وأن موقفه صار فى نظر الناس غير مفهوم ، وأن المجتمع ينتظر منه شيئاً ما ! وفوق هذا كله ، أحس بمدى الزيف وعدم الاستقرار اللذين يلابسان صلته بزوجته ! .. كان قد بدأ يلحظ — على أثر زوال خطر الموت عن زوجته — إنها تخافه ، ولا يبدو عليها الارتياح لوجوده ، فهى تتجنب مواجهته بنظراتها ، أو مواجهة نظراته ، وهى تظهر بمظهر من تريد أن تفضى إليه بشىء ، لكنها لا تجرؤ أن تفعل ! .. بل إنها تبدو كما لو كانت تتوقع منه شيئاً ، وترى فى لوحة الغيب أن علاقتهما الحالية لا يمكن أن تستمر !

وقرب نهاية شهر فبراير حدث أن مرضت طفلة أنا — التى أطلقت عليها بدورها اسم « أنا » ! — فلما علم أليكسى بذلك فى الصباح ، قبل خروجه إلى عمله ، أوصى باستدعاء الطبيب . وحين عاد من مكتبه ، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، رأى فى ردهة البيت خادماً فى ثياب موشاة بالقصب يحمل معطفاً ثميناً من الفراء الأبيض ، فسأله : « من هنا ؟ » ، فأجاب الخادم : « الأميرة اليزابيتا فيديروفنا تفرسكوى » — وكان ذلك هو الاسم الرسمى للأميرة « بتسى » ، صديقة أنا — فضايق أليكسى أن تنشغل أنا باستقبال صديقتها عن استدعاء الطبيب لفحص طفلتها المريضة ، ومن ثم توجه من فوره إلى غرفة المائدة ودق الجرس طالباً استدعاء الطبيب فوراً . ولم يأنس من نفسه ميلا إلى رؤية أنا أو رؤية صديقتها

بتسى ، لكنه خشى أن تفسر زوجته مسلكه تفسيراً مبالغاً فيه ، فمضى إلى غرفتها راغماً . وحين اقترب من الباب — المفتوح — لم يملك نفسه من أن يسمع حديثاً لم يقصد أن يسمعه . كانت بتسى تقول لزوجته :

— لو لم يذهب بعيداً ، على أثر مرضك ، لاستطعت أن أفهم حكمة لجوابك ، وجوابه أيضاً . لكن زوجك ينبغى أن يسمو بنفسه عن هذا !

— ليس زوجى هو الذى لا يريد ذلك ، بل أنا التى لست أريده .. فلا تقولى هذا !

— لكنك ينبغى أن تهتمى بتوديع رجل أطلق النار على نفسه من أجلك !

— بل إن هذا هو نفسه ما يجعلنى أحجم عن رؤيته !

ووقف أليكسى مأخوذاً ، وود الرجوع من حيث أتى ، لولا أنه رأى فى ذلك ما لا يشرفه ، فتكلف السعال وواصل سيره إلى داخل الحجرة ، حيث كانت « أنا » جالسة على مقعد مريح ، فلم تكد تراه حتى انطفأ كل تعبير فى وجهها ، كعادتها كلما رأته ، ونظرت إلى بتسى فى شىء من عدم الارتياح . أما هذه فكانت جالسة إلى جوارها وقد ارتدت أفخر أزياء الموسم ، فلما رأت أليكسى حيته بابتسامة ساخرة وهى تحنى رأسها ، ثم قالت متكلفة الدهشة : « آه ، لكم يسرنى أنك جئت ، فإنك لم تعد تظهر فى أى

مجتمع . منذ متى لم أرك ؟ منذ مرض « أنا » ! وقد سمعت بما عانيته من قلق على حياتها . حقاً إنك لزوج مثالى ! » .

فانحنى أليكسى لتحيتها فى برود ، ثم قبل يد زوجته وسأل عن حالها ، فأجابت وهى تتجنب نظرته : « أعتقد أنى أحسن حالا ! » .

— لكن لونك يبدو كلون المحمومة ؟

فتدخلت بتسى فى الحديث قائلة : « الواقع أننا ثرثرنا كثيراً ، وربما تعبت هى من الكلام . إنها أنانية من جانبى ، ويحسن أن أنصرف الآن ! » .. ونهضت ، فاحمر وجه « أنا » فجأة وتشبثت بيدها قائلة فى إلحاح : « كلا ! بل أتوسل إليك أن تبقى قليلا . أن لدى ما أريد أن أقوله لك . كلا ! بل لك أنت يا أليكسى ، فأنى ما عدت أبغى — ولا أستطيع — أن أكتم عنك شيئاً ! كانت بتسى تقول لى إن الكونت فرونسكى يريد الحضور ليودعنا قبل رحيله إلى (طشقند) ، فقلت لها إنى لا أستطيع استقباله ! » .

فتدخلت الأميرة مصححة قولها : « بل قلت يا عزيزتى إن الأمر يتوقف على أليكسى ! » .. فقالت أنا : « أوه ، كلا ! لا أستطيع استقباله . وأى موضوع يمكن أن ؟ .. بالاختصار لست أريد مقابلته ! » .. وهنا تقدم أليكسى ليتناول يدها ، فكادت تجفل وتتراجع ، لولا أن بذل مجهوداً ، فتركت يدها له . وأردف هو قائلا : « أنا شاكر لك ثقتك ، ولكن .. » ، وتوقف فى شىء

من الارتباك والضيق ، حائراً بين كتمان مشاعره الحقيقية المنطوية على الحب والغفران ، وبين المجاهرة بها أمام الأميرة ، التى تمثل حلقة الاتصال بينه وبين المجتمع !

وتداركت الأميرة الموقف ، فقالت وهى تنهض فتقبل « أنا » فى وجنتها : « حسناً ، إلى اللقاء يا عزيزتى ! » . وحين صحبها أليكسى إلى الباب ، توقفت وقالت له وهى تشد على يده مرة أخرى فى حرارة : « أليكسى .. إنك حقاً رجل نبيل ، وأنا امرأة محايدة ، لكنى أحبها وأحترمك إلى الحد الذى يجعلنى أجرؤ فأتوجه إليك بالنصح : استقبله فى بيتك . إن فرونسكى نموذج للشرف ، ثم إنه راحل إلى طشقند .. » .

فأجابها أليكسى وهو يرفع حاجبيه اعتداداً بكرامته ، بحكم العادة ، وإن لم ينطو موقفه فى الأشهر الأخيرة على شىء من الكرامة : « أشكرك يا سيدتى على عطفك ونصحك ، أما رغبة زوجتى فى استقبال أى إنسان أو عدم استقباله فهذا أمر متروك لها وحدها ! » ثم ودع بتسى عند الباب وعاد إلى زوجته ، ففاجأها وهى تخفى أثر دموع فى عينيها ، لكنه تجاهل ذلك قائلا لها : « أكرر شكرى لك من أجل ثقتك بى ، كما أشكرك على قرارك ، فأنا بدورى أرى أنه ما دام الكونت فرونسكى يعتزم الرحيل فليس ثمة ضرورة لحضوره .. وعلى أية حال فإذا .. » .. فقاطعته « أنا » فى انفعال لم تقو على قمعه : « لكنى قلت ذلك فعلا ، فما معنى تكراره ؟ » ، وشردت برهة

تحدث نفسها فى سخرية : « ليس ثمة ضرورة لأن يأتى رجل كى يودع المرأة التى يحبها ، والتى دمر حياته من أجلها ! المرأة التى لا تقوى على الحياة بعيداً عنه . ليس ثمة ضرورة البتة ! » .. ثم ضغطت شفتيها وخفضت عينيها المحترقتين إلى يدى زوجها ، بعروقهما النافرة ، وكان يفركهما فى عصبية .. وأضافت وقد استردت هدوءها : «فلنكف عن التحدث فى هذا الموضوع الآن!».

— لقد تركت الأمر لتقديرك ، ويسرنى أن أرى ..

— إن رغبتى تتفق مع رغبتك ؟ !

— نعم .. وإن تدخل الأميرة فى دقائق هذه المسائل العائلية الشائكة لهو أمر غير مرغوب فيه ، ولا سيما أنها هى بالذات ..

— لست أصدق حرفاً من كل ما يقال عنها ، وأنا أعلم أنها تحبنى حقاً !

فتنهد أليكسى ولم يجب ، بينما بدا فى حركات « أنا » وهى تعبث بطرف قميصها أنها تتوق إلى الخلاص من وجوده الذى يثقل على صدرها .. فقال لها ، مغيراً موضوع الحديث : « لقد أرسلت فى طلب الطبيب ، فإن الصغيرة ليست على ما يرام ، ويبدو أن المرضعة ليس لديها اللبن الكافى لإرضاعها .. » .

— لم لا تدعونى أرضعها ؟ لقد طلبت ذلك فحلتم بينى وبينها .. والآن ألام على ذلك !

— لست ألومك ..

— بل إنك تلومنى ! يا إلهى ، لماذا لم أمت ؟

وأجهشت بالبكاء ، ثم تمالكت نفسها وقالت : « اغفر لى أن أعصابى مضطربة . إنى أتجنى عليك ، ولكن بربك اذهب الآن ! » .. فغادر الغرفة محدثاً نفسه : « كلا ، لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا المنوال ! » . إنه لم يلمس من قبل بعض ما يلمسه اليوم من حرج موقفه فى أعين المجتمع ، وكراهية زوجته له ! .. وإنه ليرى بوضوح أن الناس جميعاً ، وزوجته ، ينتظرون منه شيئاً ما .. أما ما هو هذا الشىء ، فهذا ما يعجز عن فهمه !

• • •

● لم تكد الأميرة بتسى تبلغ الباب الخارجى حتى لقيها عنده ستيفان أوبلونسكى ، وكان قادماً لزيارة شقيقته ، فوقفا برهة يتحدثان فى أمرها . وقالت بتسى : « إنه يقتلها . هذا مستحيل ، مستحيل ! » .

— يسرنى أنك ترين مثل ما أرى . وهذا ما جعلنى أحضر إلى بطرسبرج لأراها !

— إن المدينة بأسرها تتحدث بهذا الأمر . موقف «مستحيل»! .. إنها تذبل رويداً رويداً كل يوم ، وهو لا يستطيع أن يفهم أنها امرأة حساسة لا تستطيع تجاهل مشاعرها .. واحد من أمرين : إما أن يدعه يأخذها بعيداً ، ويتصرف فى حزم ونشاط ، وإما أن يمنحها الطلاق .. أما هذا الوضع فلن يؤدى إلا إلى قتلها !

— نعم ، نعم ، هذا صحيح .. وهذا ما جئت من أجله !

— حسناً ، فليوفقك الله !

ثم مضت الأميرة إلى الخارج ، بينما مضى ستيفان إلى مخدع شقيقته ، فوجدها غارقة فى دموعها ! وأثر فيه حزنها فسألها متلطفاً عن حالها ، وكيف قضت يومها ، فقالت له : « على أسوأ حال من البؤس .. اليوم وجميع الأيام الماضية ، والأيام المقبلة ! » .. فقال : « أعتقد أنك تستسلمين للتشاؤم . يجب أن تقاومى ، وتنعشى نفسك وتواجهى الحياة .. أعلم أن هذا عسير ولكن .. » .

— يقولون إن النساء يحببن فى الرجال حتى رذائلهم .. وأنا أكره فيه فضائله ! لست أطيق العيش معه . أتفهمنى ؟ إن رؤيته وحدها تحدث فى نفوراً . لا أستطيع أن أعيش معه ! لكن ماذا أفعل ؟ لقد كنت شقية ، وكنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يكون أكثر شقاء مما كنت ، لكن الحالة الفظيعة التى أجتازها الآن تفوق كل ما تصورت ! أتصدق أنى أكرهه برغم علمى بأنه رجل طيب ، بل رجل رائع ، وأنى لا أساوى أصبعاً من أصابعه ؟ .. إننى أكرهه بسبب كرمه ، ولا أرى أمامى سبيلا غير ..

وكادت تقول : « الموت » .. لولا أن قطع شقيقها كلامها قائلا : « إنك مريضة مرهقة الأعصاب . وأنت تغالين مغالاة شنيعة فى أمر هو أهون كثيراً مما تظنين ! » ثم ابتسم ستيفان ، ولو فعلها شخص غيره لعد ابتسامه فى موقف كهذا قسوة جارحة ، لكن

ابتسامة ستيفان كانت من العذوبة والنعومة بحيث تداوى ولا تجرح ، وكأنها بلسم لطيف الوقع . وسرعان ما أحست « أنا » بهذا الشعور عينه ، فقالت وقد خفت حدة انفعالها : « كلا يا ستيفان .. إنى ضائعة ، ضائعة ، بل أسوأ من ضائعة ! .. إنى مثل وتر مشدود يوشك أن ينقطع . وسوف تكون نهايته مخيفة ! »

— فلنحاول أن نرخيه شيئاً فشيئاً .. فليس ثمة مأزق لا مهرب منه !

— لقد فكرت وفكرت طويلا فى مخرج ، فلم أجد غير حل واحد هو ..

ومرة أخرى أدرك من عينيها المذعورتين أن المخرج الذى تعنيه هو الموت ، فحال بينها وبين أن تفصح عنه ، بأن قطع كلامها بقوله : « هذا هراء ! إصغى إلى . إنك لا تستطيعين أن ترى موقفك مثلما أراه أنا ، فدعينى أصارحك برأيى » .. وابتسم مرة ابتسامته الشبيهة ببلسم ملطف ، ثم أردف : « دعينى أبدأ من حيث بدأت المشكلة . لقد تزوجت من رجل يكبرك بعشرين عاماً . تزوجته عن غير حب . بدون أن تعرفى ما هو الحب وكيف يكون ! .. وكانت هذه غلطة . فلنعترف بالأمر الواقع .. » .

— بل غلطة فظيعة !

— دعينى أتم كلامى : ثم حدث أنك — لسوء الحظ — أصبت بحب رجل آخر غير زوجك ، وعلم الأخير بالأمر وصفح عنك .

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : هل فى مقدورك مواصلة العيش مع زوجك ؟ وهل تريدين ذلك ؟ وهل يريده هو ؟

– لست أدرى .. لست أدرى !

– لكنك قلت بلسانك : إنك عاجزة عن احتمال ذلك !

– كلا ، لم أقل هذا . أنا أنكر ذلك .. ولست أستطيع أن أقرر شيئاً . لست أدرى شيئاً فى هذا الشأن !

– ولكن دعينا ..

– إنك لا تفهمنى : أحس كأنى راقدة فى هاوية ، لست أقوى على الخلاص منها !

– لا بأس ، فى وسعنا أن نلقى إليك فى القاع بشىء تتشبثين به ، ثم نجذبك إلى السطح . إنى أفهمك تماماً . أفهم أنك لا تجرؤين على تحمل مسئولية الإفصاح عن رغباتك ومشاعرك !

– لست أريد شيئاً ، لست أريد شيئاً غير أن أستريح من كل هذا !

– لكنه يرى هذا ويعرفه ، ولا تحسبى أن الأمر لا يثقل عليه مثلما يثقل عليك . كلا كما تحس .. لكن ما النتيجة ؟ .. ليس هناك غير الطلاق حلا يكفل حل هذه المشكلة المستعصية !

وهكذا أفصح ستيفان عن رأيه فى الموضوع ، ثم نظر إليها نظرة ترقب ذات معنى .. لكنها لم تجب ، فاستطرد قائلا : « لكم أنا مشفق عليك ! ولكم يسعدنى لو استطعت أن أجد لك مخرجاً من

مأزقك . كلا ! لا تنطقى بكلمة ، فالله يشهد أنى أتكلم بوحى من شعورى الصادق . إنى ذاهب لأقابله ! »

ونظرت « أنا » إليه بعينين حالمتين مشرقتين ، ولم تقل شيئاً !

• • •

● ومضى ستيفان إلى غرفة أليكسى وقد ارتسم على وجهه التعبير الصارم الذى يتخذه حين يجلس إلى مقعد الرياسة فى عمله ، وكان أليكسى يذرع الغرفة ذاهباً آيباً وقد عقد يديه خلف ظهره واستغرق فى التفكير . كان يفكر فى الموضوع نفسه الذى كان ستيفان يتحدث فيه إلى « أنا » ! وإذ رأى ستيفان على محياه علائم الضيق « المؤدب » بلقائه ، ابتدره قائلا : « أرجو ألا أكون قد أزعجتك ؟ »

– كلا .. هل تريد شيئاً ؟

– نعم ، أردت .. أردت .. نعم ، أردت أن أتحدث إليك .. وأرجو أن تثق مقدماً فى حبى لشقيقتى ، وإعجابى المخلص – واحترامى – لك !

وقف أليكسى بلا حراك ، ولم يجب بحرف ، بينما تابع ستيفان كلامه قائلا : « لقد صح عزمى على أن أتحدث إليك فى شأن أختى وموقفكما المتبادل » .. فابتسم أليكسى فى أسى ، ودون أن يعلق بكلمة مضى إلى المنضدة فتناول من فوقها خطاباً ناقصاً ، قدمه إلى ستيفان وهو يقول : « إنى أفكر بلا انقطاع فى الأمر ذاته . وهاك

ما بدأت أكتبه إليها ، تحت تأثير اقتناعى بأنى أستطيع التعبير عنه بالكتابة أكثر من اللسان ، ما دام وجودى يثيرها ! »

تناول ستيفان الخطاب ، وقرأ فيه : « أرى أن وجودى بات يضايقك ويزعجك . وبرغم ما ينطوى عليه هذا من إيلام لى ، فإنه الأمر الواقع ، الذى لا مراء فيه ، وأنا لست ألومك ، بل يشهد الله أنى حين رأيتك أثناء مرضك قررت مخلصاً أن أنسى كل ما كان بيننا كى نبدأ معاً حياة جديدة ! .. وما أنا بنادم — ولا سأندم — على ما فعلت ، لكنى أردت به شيئاً واحداً : هو خيرك . خير روحك ونفسك ! والآن يبدو لى بوضوح أنى لم أصل إلى بغيتى ! .. فصارحينى أنت بما عساه أن يمنحك السعادة الحقة وسكينة النفس . وإنى أضع نفسى رهن مشيئتك تماماً ، وأعتقد أنى أستطيع أن أركن إلى حسن تقديرك لما هو صواب .. » .

وإذ فرغ ستيفان من قراءة الخطاب أعاده إلى أليكسى ، وهو لا يدرى ماذا يقول . ثم سادت فترة صمت ثقيلة ، قطعها أليكسى بقوله : « هذا ما أردت أن أقوله لها ! » ، ثم أشاح بوجهه . فأجابه ستيفان بصوت مختلج : « نعم ، نعم .. » ، وخنقته عبراته فلم يكمل عبارته . وحين تمالك نفسه استطرد فقال : « نعم ، إنى أفهمك » . فقاطعه أليكسى قائلا : « بودى لو أعرف ماذا تبغى هى ؟ ! »

— أخشى أن تكون هى نفسها عاجزة عن فهم موقفها . إنها لا تصلح حكماً فى الموضوع ، فقد سحقها كرمك . ولو أنها قرأت

هذا الخطاب لما استطاعت أن تقول ، أو تفعل ، شيئاً .. سوى أن تنكس رأسها أكثر مما تنكسه أمامك !

— وما العمل إذن ؟ كيف أعرف رغباتها الحقيقية ؟

— إذا سمحت لى بإبداء رأيى ، فأنا أعتقد أن عليك أنت أن توضح فوراً الخطوات التى تراها ضرورية لإنهاء الموقف !

— إذن فأنت ترى أن الموقف ينبغى أن ينهى ؟ ولكن كيف؟ لست أرى مخرجاً ممكناً !

— هناك مخرج من كل مأزق . لقد فكرت ذات يوم فى أن تطلب الطلاق ، فإذا كنت مقتنعاً الآن بأن ليس فى وسعكما أن تعيشا معاً سعيدين ..

— السعادة مسألة نسبية ، يختلف فهم الناس لها . ولكن افترض معى أننى سأوافق على أى حل ، ولا أبغى شيئاً خاصاً .. فما هو المخرج الذى تراه ؟

— رأيى الشخصى أنها لن تصرح برغبتها الحقيقية ، لكنها قد تكون راغبة فى وقف علاقتكما المشتركة وذكرياتكما المتصلة بها . والمهم فى موقف كهذا — فى نظرى — هو اتخاذ مسلك جديد لكل منكما نحو الآخر .. وهذا لا يمكن أن يستقر إلا على أساس من حرية الطرفين ..

فقاطعه أليكسى مجفلا : « أنت تعنى الطلاق إذن ؟ »

— نعم . يخيل إلى أن الطلاق هو أسلم مخرج ممكن فى مثل

موقفكما ، وإلا فأى مخرج سواه يستطيع أن يلجأ إليه زوجان يجدان حياتهما معاً مستحيلة ؟ .. إنه أمر شائع الحدوث .

وتنهد أليكسى ، وأغمض عينيه .. بينما أردف ستيفان : « وإذا لم يكن أحد الطرفين راغباً فى إنشاء علاقة جديدة مع ثالث ، فالأمر يغدو غاية فى البساطة » .. وبقى أليكسى صامتاً ، مفكراً : إن هذا الذى يعتبره ستيفان غاية فى البساطة قد جال بخاطره ألف مرة ، وقتله بحثاً ، فوجده مستحيلا ! إن شعوره بكرامته ، واحترامه للدين وأحكامه ، يمنعانه من أن يلصق بنفسه تهمة «الزنا» كذباً وافتعالا ، وبالأحرى يمنعانه من إلصاقها بزوجته — التى صفح عنها وأحبها — وتعريضها لأن تضبط متلبسة ، وتستهدف للخزى والعار .. بل لقد بدا له الطلاق مستحيلا ، لاعتبارات لا تقل عن ذلك أهمية : فماذا يكون من أمر ابنه ، فى حالة الطلاق ؟ إنه لن يتركه طبعاً فى حضانة أمه ، حيث ينشأ فى كنف أسرة غير شرعية وبين أخوة غير أشقاء .. فهل يأخذه فى حضانته ؟ إن هذا يكون إجراء انتقامياً لا يريد أن يقدم عليه ! على أن أهم عامل كان يجعل أليكسى يرى الطلاق مخرجاً مستحيلا هو أنه بموافقته عليه إنما يدمر حياة « أنا » تدميراً كاملا ، كما قالت له « دوللى » بحق .. بل إنه بذلك ينزع من وجوده آخر حلقة تربطه بالحياة : الأطفال الذين أحبهم ! .. وينزع من وجودها هى آخر حلقة تبقيها فى الطريق المستقيم ، بحكم القانون الدينى الذى يحرم على المطلقة أن

تتزوج ، ما بقى مطلقها على قيد الحياة . ومن ثم سوف تضطر أنا إلى أن ترتبط مع فرونسكى برباط غير شرعى ، فلا يمضى عام أو نحوه حتى ينبذها ويزهد فيها ، وإذ ذاك ترتمى فى أحضان آخر ، وهكذا يكون مصيرها الدمار ، ويكون هو المسئول عن هلاكها !.. إذن فالطلاق ليس أمراً غاية فى البساطة كما يزعم شقيقها ! وانتزعه من أفكاره صوت هذا يستطرد قائلا : « بقى أمر الشروط التى تشترطها كى تمنحها الطلاق ، وهى لا تطلب شيئاً فى صدد ذلك . لا تجرؤ أن تطالبك بشىء ، وإنما تترك الأمر كله لكرمك ! » .

— يا إلهى ، يا إلهى ! ماذا فعلت كى أستحق هذا ؟

وأخفى أليكسى وجهه بين يديه وقد مرت بخاطره المخازى التى يعرض نفسه لها لو تحمل عن زوجته تهمة الزنا ، وحدث نفسه مردداً قول المسيح : « من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الأيسر أيضاً .. ومن انتزع منك جزءاً من ردائك ، فأعطه ثيابك كلها .. » ، وعندئذ صاح أليكسى فى حشرجة أليمة : « نعم ، نعم ، سوف أتحمل الخزى بدلا منها ، وأتخلى حتى عن ولدى ، ولكن .. » ، واستدار كى لا يرى ستيفان وجهه ، ومضى فجلس على مقعد إلى جوار النافذة ، وقد غمر قلبه شعور بالمرارة والعار .. فبدا التأثر فى وجه ستيفان ، وقال : « أليكسى ، صدقنى إنها تقدر كرمك ومروءتك . ولكن يبدو أنها كانت إرادة الله ؛ إنها نهاية تعسة ، وكارثة لا شك فيها ، لكن المرء ينبغى أن يتقبلها

كأمر واقع . ولسوف أبذل قصارى جهدى كى أساعد كلا كما فى هذه المحنة ! » .

ثم ودع أليكسى وانصرف !

• • •

● كان الجرح الذى أصيب به فرونسكى من طلقة المسدس جرحاً خطراً ، وإن لم يلمس القلب ، فلبث يتأرجح أياماً بين الحياة والموت .. وحين استرد قدرته على الكلام ، همس لزوجة شقيقه قائلا وهو ينظر إليها جاداً : « فاريا ، لقد أطلقت الرصاص على نفسى بدون قصد ، فرجائى إليك ألا ترددى هذا الموضوع ، وأن تقولى ذلك لكل من يسألك ، وإلا كان الأمر مثاراً للسخرية ! » .. فقالت فاريا وهى تطل فى عينيه الصافيتين وتبتسم مغتبطة : « شكراً لله . إنك لا تحس ألماً ! » ، فأشار إلى صدره وقال : « هنا أحس بعض الألم » .. فقالت : « إذن دعنى أغير لك الضمادات ! » . وحين فرغت من مهمتها عاد يقول لها : « لست أهذى ، ولكنى أعنى ما أقول ! فأرجو ألا يلغط أحد بأنى أصبت نفسى عامداً ! » .

— لا أحد يلغط بهذا . وكل ما نرجوه ألا تصيب نفسك « بدون قصد » مرة أخرى !

— كلا لن أفعل ، ولكن ليت إصابتى كانت ..

وابتسم فى كآبة .. ولكنه برغم هذا كله ما كاد يتماثل للشفاء حتى أحس أنه تخلص على الأقل من جانب واحد من جوانب بؤسه

وشقائه ، إذ غسل بفعلته العار والمذلة اللذين استشعرهما من قبل ، وبات يستطيع أن يفكر فى غريمه أليكسى بشىء من الهدوء ، وأن يواجه غيره من الرجال بدون خجل أو خزى ، وأن يعود إلى حياته السابقة بالتدريج ! .. شىء واحد عجز عن أن ينتزعه من قلبه ، برغم طول كفاحه من أجل ذلك ، هو أسفه المرير على فقد « أنا » إلى الأبد ! لقد كفر عن إثمه فى حق الزوج ، وصار خليقاً به أن يهجرها ، ولا يعود إلى الوقوف حائلا دون توبتها وندمها ، ورجوعها إلى زوجها ! .. وقد استقر عزمه على أن يتخذ هذا الموقف ، دون أن ينسى أساه من أجل فقدانه حبها ، أو ينسى تلك اللحظات من السعادة التى لم يحسن تقديرها فى أوانها ، والتى تطارده الآن بكل سحرها وروعتها !

وحين دبر له رؤساؤه عملا فى (طشقند) لم يبد أدنى تردد أو اعتراض ، ولكنه كان كلما اقترب موعد الرحيل ، تفاقم إحساسه بمرارة التضحية التى بذلها من أجل ما يعتقد أنه واجبه ! .. وفيما هو يعد العدة للسفر ، ويزور مودعاً أخلص أصدقائه ، ساوره حنين طاغ إلى أن يرى « أنا » مرة أخيرة ، ثم يدفن نفسه « حياً » فى منفاه ، فهمس بهذه الفكرة فى أذن « بتسى » ، وتولت هذه نقلها إلى مسامع أنا .. ثم عادت تحمل له جواباً بالنفى ! .. وحدث فرونسكى نفسه ، معزياً : « لعل هذا أفضل ، فقد كانت نزوة ضعف خليقة بأن تبدد ما تبقى من قواى وعزيمتى ! » :

لكن بتسى عادت إليه فى صباح اليوم التالى تقول إنها سمعت من « ستيفان أوبلونسكى » نبأ قاطعاً بأن أليكسى وافق على الطلاق ، ومن ثم بات فى استطاعة فرونسكى أن يرى « أنا » ! ودون أن يكلف نفسه عناء انتظار خروج بتسى من مسكنه ، أو يسأل عن الموعد الذى يستطيع أن يرى فيه « أنا » ، أو عن مكان وجود زوجها فى الوقت الحالى ، هرع إلى الخارج ووجهته منزل آل كارينين ، ناسياً كل إقراراته وعهوده مع نفسه ! .. ولما بلغ الدار وثب يصعد سلمها عدواً ، بغير انتظار أو استئذان ، ثم اقتحم مخدع « أنا » ! وبغير أن يتلفت ليرى هل فى الغرفة غيرها أم لا ، ألقى ذراعيه حولها وراح يغطى وجهها ، ويديها ، وعنقها ، بالقبلات !

وكانت « أنا » قد أعدت نفسها لهذا اللقاء ، وفكرت فيما عساها تقوله له فيه .. لكنها لم تفلح فى أن تقول مما أعدته حرفاً ، فقد استغرقتها عاطفته الجارفة الكاسحة ، وعبثاً حاولت أن تهدئه ، أو تهدىء نفسها ، فإن أوان ذلك كان قد فات .. وأصابها انفعاله بعدواه ، فاختلجت شفتاها ، وظلت برهة لا تقوى على الكلام ! وأخيراً قالت وهى تضغط يديه فوق صدرها :

— نعم ، لقد قهرتنى .. وإنى لك !

— كان لا بد أن يحدث ذلك .. وما دمنا على قيد الحياة فلا مفر من أن نكون معاً .. الآن أوقن وأعتقد بذلك !

— هذا صحيح .. لكن هناك شيئاً رهيباً ما زال فى الطريق !

— سوف ينقضى كله ، سوف ينقضى ! وسوف نسعد غاية السعادة معاً . إن حبنا سيقوى — إن كان ثمة مزيد لقوته — بتأثير ذلك الشىء الرهيب نفسه !

وكانت قد أخذت رأسه بين يديها وعانقته ، فرفع وجهه إليها وقد انفرجت أسنانه الجميلة عن ابتسامة ، لم تستطع إلا أن تستجيب لها ، لا بتأثير كلماته بل بتأثير الحب السافر فى عينيه .. ثم تناولت يده وجعلت تربت بها خديها الباردين ، فهمس لها وهو يحدق فى عينيها : « لست أعرفك بهذا الشعر القصير . لقد غدوت أجمل مما كنت . ولكأنك غلام وسيم . ولكن ما أشد شحوب وجهك ! »

— نعم ، إنى ضعيفة .. ضعيفة جداً !

— فلنرحل إلى إيطاليا .. ولسوف تستردين قوتك وصحتك .

— أيمكن حقاً أن نكون بمثابة زوج وزوجة ، وحيدين ؟

— بل إن الذى يبدو غريباً فى نظرى ألا نكون كذلك !

— ستيفان يقول إن زوجى وافق على كل شىء ، لكنى لا أستطيع أن أقبل كرمه وإحسانه .. لست أريد طلاقاً الآن . وإن كنت لا أدرى ماذا يعتزم بشأن ابننا « سريوشا » !

— لا تتحدثى فى شىء من هذا الآن ، بل لا تفكرى فيه !

— أوه ، لماذا لم أمت ! كان ذلك أفضل ..

وانحدرت على وجنتيها دموع صامته ، لكنها حاولت أن تبتسم ، كى لا تجرحه ! .. وحتى تلك الساعة كان فرونسكى

يعتبر التخلى عن المهمة التى انتدب لها فى « طشقند » – على إغرائها وخطورتها – أمراً مخزياً ، بل ومستحيلا .. لكنه الآن ، دون أى تردد أو تدبر ، تخلى عنها ! .. وإذ لاحظ فى دوائر القيادة العليا استياء من مسلكه وانتقاداً له ، استقال من فوره من الجيش !

ولم ينقض شهر حتى كان أليكسى قد ترك وحده مع ابنـــه سريوشا فى داره ببطرسبرج .. بينما رحلت أنا وفرونسكى إلى الخارج ، دون أن يحصلا على طلاق لها من زوجها ، بل لقد نبذا كل تفكير فى ذلك الطلاق !

الفصل الخامس

-١٧-

● لم ير ليفين خطيبتـه كيتى فى يوم عرسهمـا – جرياً على مقتضيات التقاليد الروسية – بل تناول غداءه فى فندقه ومعه ثلاثة من أصدقائه العزاب ، وكانت جلسة مريحة تخللها الضحك والنكات . وبعد الغداء تفرق الجمع تأهباً لارتداء الثياب المناسبة لحضور الزفاف فلما خلا ليفين إلى نفسه وتذكر أحاديث أصدقائه فى تلك الجلسة ، راح يفـــكر فيما رددوه عن الزواج والقيود التى زعموا أنها تكبـــل الزوج فتفقده حريته ، وساءل نفسه : « أحق هذا ؟ » ، ولكنـه ما لبث أن ابتسم ســاخراً مستنكراً .. إن السعادة ليست وقفاً على المتحررين من تلك القيود ، بل السعادة الحقة إنما تكون فى الحب ، وفى مشاركة الحبيب لمحبوبه أمانيه وأفكاره ، أى فى تجريد نفســه من كل حرية ! .. وهنا همس فى أعماقه صوت غامض مفاجىء : « ولكن ، هل أعرف أنا رغباتها ، وآراءها ، ومشاعرها ؟ » . وسرعان ما غاضت الابتسامة من وجهه ، واستغرق فى التفكير . وفجأة دهمه شعور غريب ، هو مزيج من الرعب والشك فى كل شىء ، فسأل نفسه : « من أدرانى أنها تحبنى ؟ ألا يحتمل أنها إنما تتزوجنى لأنها تريد الزواج ذاته ؟ ولعلها لم تتبين بعد حقيقة شعورها

هذا ، لكنها حين تفيق من نشوة الزواج قد تدرك أنها لا تحبنى ، ولا تستطيع أن تحبنى ! » .

وتتابعت على ذهنه أمثال هذه الأفكار ، وأدهشه أن عاوده فجأة شعوره بالغيرة من فرونسكى ، كما كان الأمر منذ عام كامل ، حين رآها ترنو إليه فى إعجاب ! .. وخيل إليه أنها لم تصارحه بكل شىء ، فقفز من مكانه ناهضاً وهو يقول لنفسه فى يأس : « كلا ! لا يمكن أن يستمر هذا . سأذهب إليها ، سأسألها .. سأقول لها للمرة الأخيرة : « ما زلنا غير مقيدين بأى شىء ، فهل يحسن أن نبقى كذلك ؟ » .. نعم ، إن هذا أفضل من التعاسة الدائمة فى ظلال الخيانة والعار ! .. وفى غمرة اليأس الذى ملأ قلبه ، والغضب المرير على الرجال جميعاً ، وعلى نفسه ، وعليها .. غادر الفندق قاصداً بيتها !

ولما عاد إلى الفندق كان قد سكن روعه ، فوجد فى انتظاره أخاه ، ودوللى — شقيقة كيتى — وزوجها ستيفان ، وقد ارتدوا ملابس الحفل وانهمكوا فى إعداد ما تبقى من معدات وإجراءات كثيرة معقدة . وعندما حان الوقت كى يرتدى العريس سترته الرسمية تبين أن خادمه نسى أن يحضر له قميصاً نظيفاً ، فوصل إلى الكنيسة متأخراً عن موعده بوقت طويل ، وكان المدعوون يملأون جنباتها . والأضواء الباهرة تنشر سناها على وجوه الحسان ، وأشعتها تنعكس على حليهن المتلألئة على الصدور والنحور .. وحين تمت

مراسم الزفاف الدينية ، قبل العريس شفتى عروسه الياسمين وأعطاها ذراعه ، ثم راحا يتقبلان التهنئات وأطيب التمنيات !.. وبعد العشاء رحل العروسان فى الليلة نفسها ليقضيا شهر العسل فى الريف !

أما الحبيبان « فرونسكى وأنا » فقد أقاما — بعد عودتهما إلى بطرسبرج — فى فندق من أفخم فنادق المدينة : هو فى الطابق الأسفل ، وهى وطفلتها ومربيتها وخادمتها فى جناح من أربع غرف بالطابق العلوى . وفى يوم وصولهما مضى فرونسكى إلى بيت شقيقه ، حيث وجد أمه قد قدمت من موسكو لأمر يتعلق بأملاكها ، فحيته وزوجة أخيه تحيتهما المألوفة ، وسألتاه عن رحلته ، دون أن تشيرا بحرف إلى صلته بأنا .. وفى الصباح التالى ذهب الشقيق الأكبر ليرى فرونسكى ، وسأله عن « أنا » ، فذكر هذا فى صراحة أنه يعتبر صلته بها بمثابة زواج ، وأنه يأمل أن يدبر أمر إتمام الطلاق ثم يتزوجها بعد ذلك .. ورجاه أن يبلغ زوجته وأمه رغبته فى أن يعاملا « أنا » خلال هذه الفترة كما لو كانت زوجته ! .. ثم أضاف فرونسكى : « إذا لم يقر الناس هذا الوضع فلن أعبأ ، ولكن إذا كان أقربائى يريدون الاحتفاظ بصلتهم الودية معى فعليهم أن يرعوا هذه الصلة فيما يتصل بزوجتى ! » .

وتلقى شقيقه الأكبر هذا الرأى بالاحترام الذى نعود أن يلقى به آراء فرونسكى ، ثم قال : « ليس عندى اعتراض على هذا الأمر ، والمجتمع وحده هو صاحب الحق الأول فى الحكم عليه ! » . ثم

خرج مع أخيه ليزورا أنا فى جناحها بالطابق العلوى ، وحرص فرونسكى على أن يخاطبها أمامه فى شىء من التحفظ . ثم تحدث الثلاثة فى أمر رحيل أنا إلى ضيعة فرونسكى لتقيم ردحاً من الزمن !

• • •

● كان فرونسكى خبيراً بتقاليد المجتمع ، لكنه مع هذا أخطأ فهم الموقف الذى سيقفه المجتمع منه ومن « أنا » ، فلم يدرك أن جميع الأبواب سوف تغلق فى وجههما ، بل خيل إليه أن تطور الزمن وشيوع روح العصر الحديث قد بدلا آراء الناس فى صدد العلاقات غير المشروعة كعلاقته بأنا.. وراح يحدث نفسه : « طبيعى أن « أنا » لن تستقبل فى حفلات البلاط ومناسباته الرسمية لكن أصدقاءنا الخلصاء يستطيعون أن ينظروا إلى الأمر نظرة أخرى! » .. على أنه لم يلبث أن تبين خطأ ما ذهب إليه ، فأبواب المجتمع بقيت تفتح فى وجهه هو ، لكنها بدت مغلقة فى وجه « أنا » ! وكما هو الشأن فى « لعبة القط والفأر » كانت الأيدى فيما يختص به ترفع ليمر تحتها ، ثم تهبط لتسد الطريق أمام « أنا » ! ..

وكانت الأميرة « بتسى » ابنة عمه ، أولى سيدات المجتمع الرفيع اللواتى رآهن فرونسكى بعد ذلك ، فحيته مرحبة قائلة : « ها قد عدت أخيراً ! كيف حال أنا ؟ وأين تقطنان الآن ؟ أعتقد أنكما قضيتما شهر العسل فى روما ! » ، ولاحظ فرونسكى أن حماسة بتسى انطفأت حين علمت أن إجراءات الطلاق لم تتخذ بعد ،

فقد قالت : « إن الناس سوف يرجموننى بالأحجار إذا زرت « أنا » ، لكنى سوف أذهب لزيارتها حتما ! » .

وقد ذهبت لزيارتها فى اليوم ذاته ، لكن لهجتها لم تكن مثلها فى الماضى ، فقد تباهت بشجاعتها التى أغرتها بالزيارة ، ورغبت إلى « أنا » فى أن تقدر إخلاصها فى صداقتها ! ولم تمكث أكثر من عشر دقائق ، ثرثرت خلالها بأهم شائعات المجتمع ، ثم قالت لها وهى تتأهب للانصراف : « لم تخبرينى بموعد إتمام الطلاق ؟ قد أكون أنا مستعدة لتحدى آراء الناس ، لكن الآخرين سوف يديرون لك أكتافهم فى برود ، حتى يتم زواجكما ! » . وقبل أن تنصرف قالت لها : « أنت راحلة يوم الجمعة ، أليس كذلك ؟ إنى آسفة لأننى لن أتمكن من لقائك قبل ذلك ! » .

وكان ينبغى لفرونسكى أن يفهم من لهجة بتسى ما سوف يلقاه « وأنا » من سواها ، ولكنه رأى أن يبذل محاولة أخرى داخل نطاق أسرته . ولم يكن يستطيع أن يركن فى هذا الصدد إلى أمه ، فهى برغم إعجابها الشديد بأنا يوم لقائهما الأول ، لم تكن مستعدة لأن تعاملها معاملة طيبة ، لاعتقادها بأنها أتلفت مستقبله ! .. وكان يعلق أملا كبيراً على زوجة أخيه ، معتقداً أنها لن ترجم « أنا » بالأحجار ، بل ستذهب فى بساطة لتزورها ، وتستقبلها فى بيتها ! فمضى فى اليوم التالى لوصوله إلى « فاريا » ، وصارحها مباشرة بغرضه . فأجابته قائلة : « أنت تعلم منزلتك عندى ، وإنى لعلى

استعداد لأن أفعل كل ما يرضيك ، لكنى لا أستطيع أن أخدمك أو أخدم « أنا » فى هذا الشأن . وأرجو ألا تفهم من هذا أنى أدينها.. كلا ! فلو أننى كنت مكانها لفعلت ما فعلته ، لكن المرء ينبغى أن يسمى الأشياء بأسمائها . أنت تريدنى أن أذهب لأزورها ، وأدعوها إلى زيارتى هنا ، وأعيد اعتبارها فى المجتمع ، ولكن أرجو أن تقدر موقفى حين أقول لك : إنى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، فإن لى بنات يوشكن أن يبلغن سن الزواج ، وواجبى يقتضينى أن أجارى المجتمع ، من أجل زوجى ! .. وعلى أية حال فإنى على استعداد لزيارة أنا ، ولكن أرجو أن تفهم هى من تلقاء نفسها أننى لن أستطيع استقبالها فى بيتى ، ذلك لأننى فى هذه الحالة لا بد أن أحرص على ألا تلتقى فى بيتى بأحد ممن ينظرون إلى الأمور نظرة مخالفة ، وهذا من شأنه أن يحرجها ويطعنها فى الصميم .. إنى عاجزة عن أن أقيلها من عثرتها ! » .

.. فقال فرونسكى فى اكتئاب وهو ينهض يائساً من إقناعها بتغيير قرارها : « لهذه المناسبة يهمنى أن تعلمى إنى لا أعتبرها ساقطة أكثر من مئات النساء اللواتى تستقبلينهن فى بيتك ! » .. فقالت له فى هدوء : « فرونسكى ، لا تغضب لصراحتى . إنى غير ملومة ! » .. فقال : « لست غاضباً ، ولكنى آسف لشىء واحد ، هو أن ذلك يضطرنى إلى فصم عرى صداقتنا ، أو إضعافها

فى القليل . ولعلك تفهمين أن الأمر بالنسبة لى أيضاً لا يمكن أن يكون غير ذلك ! » .

ثم ودعها وانصرف .. !

وهكذا أدرك فرونسكى أن لا فائدة من أية محاولة أخرى يبذلها فى هذا السبيل ، وأن عليه أن يقضى الأيام القليلة الباقية فى بطرسبرج كما لو كان يعيش فى مدينة غريبة ، يتجنب كل لون من ألوان الصلة مع أفراد جماعتهم القديمة ، بغية عدم التعرض للمضايقات وأنواع المذلة التى لا يستطيع بطبعه أن يتحملها ! .. وكان من أقسى الملابسات التى تكتنف موقفه فى بطرسبرج أنه صار يلتقى فى كل مكان بغريمه أليكسى ، أو يسمع اسمه فى مختلف المناسبات . وزاد فى قلقه أنه بدأ يلحظ على « أنا » أعراضاً وأطواراً غريبة ، عجز عن فهمها أو تعليلها ! كانت تبدو أحياناً شديدة التعلق والشغف به ، وأحياناً أخرى باردة العاطفة ثائرة الأعصاب ، عميقة الغور .. ولم يبد أنها لاحظت المذلة التى سممت حياته ، والتى لا شك أنها كانت أشد إيلاماً لأعصابها المرهقة !

- ١٨ -

● كان من أهم الدوافع التى حملت « أنا » على العودة من إيطاليا إلى روسيا ، شوقها إلى رؤية ابنها ! ومنذ اليوم الذى غادرت فيه إيطاليا ، لم تكف صورته عن مطاردة خيالها ، فلما اقتربت من بطرسبرج تضاعفت لهفتها ، بحيث ألهتها عن التفكير فى الوسيلة التى

تمكنها من لقائه . لقد بدا لها أمراً طبيعياً – غاية فى البساطة – أن ترى ابنها ، ما دامت تقيم معه فى مدينة واحدة ! لكنها لم تكد تصل إلى المدينة ، حتى صدمت فجأة بالموقف الذى اتخذه المجتمع إزاءها ، وبدأت صعوبة لقائها لابنها تلوح لخاطرها بوضوح يزداد يوماً بعد يوم ! .. حتى بدأ الانزعاج يساورها فى اليوم الثالث ، حين أحست أنها لم تقترب من هدفها خطوة واحدة ، بل ابتعدت خطوات ! .. فجعلت تستعرض الحلول جميعاً واحداً بعد واحد : هل تذهب رأساً إلى بيته ، حيث يعيش مع أبيه ؟ كلا ! فليس من حقها أن تفعل ذلك ، وقد يحال بينها وبين الدخول ، وتوجه إليها الإهانات ! إذن فلتكتب إلى أبيه – زوجها – خطاباً ، ولكن التفكير فى هذا الحل يورثها الشعور بمدى شقائها ، وهى لا تستطيع أن تنعم بسكينة النفس إلا إذا كفت عن التفكير فى زوجها تماماً ! . لم يبق إذن إلا أن تنتظر ابنها خارج البيت والمدرسة لتشبع نهمها إلى رؤيته ذاهباً آيباً ! لكن هذا لا يكفيها ، فلقد طالما أعدت نفسها لهذا اللقاء ، أعدت الكثير لتقوله له فى هذه المناسبة ، ومنت ذراعيها بعناقه ، وفمها بتقبيله ، بحيث يصعب عليها أن تقنع بما دون ذلك ؟!

ووصل إلى سمعها أن ثمة صلة وثيقة تربط زوجها بالكونتة ليديا إيفانوفنا ، فكتبت إليها خطابا ، كلفتها كتابته جهداً وألماً عظيمين ، وتعمدت أن تقول فيه : « إن الإذن لها فى رؤية ابنها يتوقف على كرم أليكسى ! » .. فقد كانت تعلم يقيناً أن الخطاب

لو عرض على الزوج لكان عند خلقه النبيل ، وأبى أن يرفض طلبها ولكن الوسيط الذى حمل الخطاب عاد إليها يحمل ما هو أقسى من أى رد تصورته ! لم يكن هناك أى رد على الإطلاق ! .. وأحست « أنا » عندئذ أنها قد أذلت وأهينت إلى حد لم تتصور أن تبلغه فى يوم من الأيام ! .. لكنها أدركت – إلى ذلك – أن الكونتة ليديا كانت ، من وجهة نظرها الخاصة ، على صواب ! وضاعف من حدة عذابها أنها ألفت نفسها مضطرة إلى أن تتحمل هذا العذاب وحدها ، فى صمت ، ودون تذمر – ! فهى لم تشرك فيه فرونسكى لعلمها أن رؤية الأم لابنها تبدو فى نظره أمراً لا تكاد تكون له أهمية برغم أنه كان السبب المباشر فى محنتها العميقة ! بل كان برود لهجته كلما أشارت إلى ابنها يجعلها تشعر بأنها بدأت تكرهه ! ولم يكن ثمة ما تخشاه أشد من هذه النتيجة ، ومن أجل ذلك صارت تحرص على أن تخفى عنه كل ما يتصل بابنها !

وفكرت أخيراً فى أن تكتب إلى زوجها ! .. وفيما هى تصوغ عبارات الخطاب فى أناة ، جاءها خطاب من الكونتة ليديا إيفانوفنا . ولئن كان صمت الكونتة فى المرة الأولى قد آلمها وأحرجها ، فإن ما قرأته بين السطور فى خطابها هذه المرة قد حيرها وأحنقها أضعافاً مضاعفة ! فجعلت تحدث نفسها : « إنهم بهذا البرود واصطناع الشرف الزائف يريدون إهانتى وتعذيب إبنى ، لكنى لن أستسلم لهذا . إن ليديا أسوأ خلقاً منى . أنا لا أكذب على

الأقل ! » .. وقررت أن تمضى فى اليوم التالى – يوم عيد ميلاد سريوشا – إلى منزل أبيه حيث ترشو الخدم أو تخدعهم بأية وسيلة كى تلقى ابنها وتزيل الأثر السيء الذى يريد القوم إدخاله فى روعه نحوها !

وغادرت الفندق من فورها ، قاصدة إلى أحد محال بيع لعب الأطفال ، واشترت بعضها لتحملها معها إلى ابنها . ثم عكفت بعد ذلك على تدبير خطة « الهجوم » : إنها سوف تذهب متنكرة إلى بيت زوجها فى الساعة الثامنة صباحاً ، قبل أن ينهض من فراشه ، وستمضى إلى جناح ابنها دون أن ترفع نقابها ، زاعمة أنها مبعوثة من أحد أقرباء الصبى لتهنئته بعيد ميلاده ، وتترك إلى جوار فراشه ما تحمل من لعب ودمى !

وفى هذا الموعد ، كانت « أنا » تهبط من الزحافة التى استأجرتها ، لدى باب منزلها القديم ! وكان مساعد الحارس غلاماً جديداً لا تعرفه ، فلما فتح لها الباب دست فى يده ورقة مالية قيمتها ثلاث روبيات وقالت له : « أريد رؤية سريوشا » . لكنه أوقفها عند الباب الزجاجى الداخلى ومضى ليدعو رئيسه ، فلما جاء هذا قالت له وهى ما تزال متنكرة : « إنى قادمة من عند الأمير سكورودوموف لمقابلة سريوشا » .. فأجابها قائلا : « إن الصبى لم ينهض من فراشه بعد . هل تتكرمين بانتظاره هنا » ؟ .. لكن الأم المتلهفة للقاء ابنها لم تع ما يقول . إن منظر ردهة البيت

الذى عاشت فيه تسع سنوات أنعش فى وعيها ذكريات – عذبة وأليمة معاً – أخذت تتوالى على لوحة خيالها دون رحمة ! وفى أثناء ذلك كان الحارس قد مد يده ليتناول معطفها ، وإذ حانت منه نظرة إلى وجهها عرفها – برغم النقاب – فانحنى لها صامتاً ، وقال فى احترام :

– تفضلى بالدخول يا سيدتى !

وحاولت أن تقول شيئاً ، لكن صوتها أبى أن يطاوعها ! .. فرمقت الحارس المسن بنظرة خجلى متوسلة ، واتجهت إلى السلم تبغى الصعود .. فلحقها هاتفاً متلعثماً : « إن معلمه معه .. أقصد أنه ربما لا يكون قد ارتدى ثيابه . سوف أخبره أولا ! » .. لكنها استمرت تصعد درجات السلم المألوفة لها دون أن تعى ما يقول .. فهرع لحظة وعاد يقول : « إنه قد استيقظ لفوره » . فأجابته وهى تواصل اتجاهها نحو الغرفة : « دعنى أدخل ، واذهب أنت ! » .

كان الصبى جالساً فى فراشه ، ما يزال يتمطى ويتثاءب ، وفى اللحظة التى انطبقت فيها شفتاه ارتسمت عليهما ابتسامة عذبة يخالطها النعاس ، ثم ارتمى على ظهره وغلبه النوم من جديد . !.. فهمست له أمه وهى تدنو منه دون أن تحدث جلبة : « سريوشا » . وخيل إليها وهى تتأمله أنه قد تغير كثيراً عما كان حين تركته : استطالت قامته ، ونحل عوده ، لكن رأسه ، وشفتيه ، ورقبته الناعمة ، وكتفيه الصغيرتين ، باقية كلها كما عهدتها ! .. وعادت

تهمس فى أذنه فى رفق : « سريوشا » ، فرفع الصغير جذعه على مرفقه وأدار رأسه هنا وهناك ، كما لو كان يبحث عن شيء ، ثم فتح عينيه .. وفى بطء وتثاقل نظر إلى أمه الواقفة بلا حراك أمامه، بضع ثوان ، ثم ابتسم فجأة ابتسامة ملائكية وارتمى بين ذراعيها وقد أغمض عينيه ! فهتفت لاهثة الأنفاس وهى تنحنى على جسمه الصغير وتضمه إلى صدرها : « سريوشا ، ابنى الحبيب ! » .. فهتف هو وقد استراح لضمتها الحنون : « أماه ! » .. ثم ألقى ذراعيه الصغيرتين على كتفيها وهو ما يزال يبتسم ويغالب النعاس، ومضى يحك وجهه فى رقبتها وكتفيها ، بتلك العذوبة الدافئة التى لا يعرفها غير الأطفال ! .. ثم قال وهو يفتح عينيه آخر الأمر : « كنت أعلم أنك ستأتين يوم عيد ميلادى .. سأنهض حالا » . وإذ قال ذلك غلبه النعاس مرة أخرى فنام بين ذراعيها ! وراحت «أنا» تتأمله فى شراهة ونهم . رأت كيف تغير فى غيبتها ، فخنقتها دموع التأثر والأسى ! وفى أثناء ذلك فتح الصبى عينيه مرة أخرى وسألها : « لم تبكين يا أماه ؟ » . وإذ عجزت عن أن تجد صوتها لتجيبه ، صاح بها فى صوت بللته دموع الانزعاج : « أماه ، لماذا تبكين ؟ » فأجابته وقد حبست دمعها وأشاحت بوجهها عنه : « لن أبكى ثانية يا بنى .. إنى أبكى من فرحتى .. منذ زمن طويل لم أرك ! .. لكنى لن أبكى ثانية ، لن أبكى ! » .

ثم أردفت وهى تجلس على مقعد مجاور لفراشه : « تعال ، آن



فنام بين ذراعيها ! وراحت (أنا) تتأمله فى شراهة ونهم ..

أن تلبس ثيابك . كيف كنت تلبسها بعدى ؟ كيف ؟ ! » ، وحاولت أن تفيض فى الكلام ببساطة ومرح لكنها لم تستطيع ، فأشاحت بوجهها مرة أخرى ! .. بينما مضى الصبى يثرثر قائلا : « لم أعد آخذ حماماً بارداً . بابا لا يوافق .. أوه ، إنك تجلسين فوق ثيابى ! » ، وضحك فى انشراح ، فنظرت إليه وابتسمت ، وإذ ذاك ارتمى على صدرها مازحاً وهو يصيح فرحاً : « أماه ، حبيبتى ! » ثم أضاف وهو يخلع عنها قبعتها : « لست أريد هذه بعد » .. وإذ رآها أقرب إلى طبيعتها بغير قبعة ، اندفع يقبلها ويعانقها من جديد !

— ولكن ماذا قالوا لك عنى ؟ لعلك حسبتنى قد مت ؟ !

— لم أصدق ذلك أبداً !

— حقاً يا حبيبى ؟

— كنت أعرف .. كنت أعرف أنك ستأتين !

واختطف يدها التى كانت تمشط شعره .. فضغط راحتها على شفتيه ، وقبلها !

* * *

● وكان مساعد الحارس قد استنتج من مسلك « أنا » عند دخولها أنها « الزوجة التى هجرت زوجها » — كما قيل له عندما التحق بخدمة البيت بعد رحيلها — فلما حانت الساعة التى ألف فيها أن يعين الصبى على ارتداء ثيابه . تردد حائراً ماذا يفعل ، ثم استقر

عزمه على أن يؤدى واجبه المألوف ، فمضى إلى الباب وفتحه .. لكن عناق الأم والطفل ، وحديثهما وضحكاتهما المتبادلة ، جعلته يغير رأيه ، فهز رأسه وتنهد — وهو يغلق الباب — هامساً لنفسه : « سأنتظر عشر دقائق أخرى » .. وكفكف الدموع التى انحدرت على خديه !

.. وكان نبأ حضور « أنا » قد انتشر بين الخدم ، فأشفقوا جميعاً من أن يدخل سيدهم غرفة ابنه فى الساعة التاسعة ، كما ألف أن يفعل ، فيلتقى فيها بزوجته ! .. وصح عزمهم على أن يحولوا دون ذلك ما أمكنهم ، فقالت مربية الصبى تحدث خادم أليكسى الخاص : « اذهب أنت فاشغل السيد بأى شىء يعوقه عن الذهاب إلى غرفة ابنه .. ريثما أهرع أنا إلى الغرفة فأخرج منها السيدة بأية طريقة ! .. يا له من مأزق ! » .

وحين دخلت المربية الغرفة ، كان سريوشا يقص على أمه كيف كان يلعب فوق إحدى الزحافات ، فانزلق منها وانقلب على جنبه ثلاث مرات .. وكانت « أنا » تصغى إلى رنين صوته ، وتتأمل وجهه والتعبيرات التى تتوالى عليه ، وهى تلمس يده فى حنان ! .. لكنها لم تكن تتابع كلامه أو تفهم ما يقول ، فقد كان يقلقها التفكير فى وجوب انصرافها فى الوقت المناسب ، قبل أن تلتقى بزوجها ؟ ولكن كيف تذهب وتفترق من جديد عن ابنها ، وهى لم تكد تلقاه ؟ .. وسمعت خطوات مساعدالحارس وهو يدنو

من الباب ، ويسعل منبهاً .. كما سمعت وقع خطوات المربية وهى تقترب .. لكنها ظلت جالسة فى مكانها وكأنها قد استحالت إلى تمثال من حجر ، عاجزة عن أن تتكلم أو تنهض .. حتى أقبلت عليها المربية تقبل يديها ، وكتفيها ، هاتفة فى شوق : « سيدتى العزيزة ! لقد أرسلك الله إلى الصبى يوم عيد ميلاده . إنك لم تتغيرى البتة ! » .

— أهذه أنت ؟ لم أكن أعلم أنك باقية هنا !

— لست أقيم هنا . لقد تركت العمل هنا لأعيش مع ابنتى . لكنى جئت اليوم فقط من أجل عيد ميلاد سريوشا . أوه يا سيدتى العزيزة !

وغلبها التأثر فانفجرت باكية ، وعادت تقبل يدى سيدتها من جديد .. بينما راح الصبى يقفز فوق الفراش وهو ممسك بيمناه يد أمه ، وبيسراه يد مربيته ، وقد أشرق البشر فى عينيه وابتسامته .. وأثرت فيه رقة عاطفة المربية نحو أمه ، فهتف نشوان : « أماه ! .. إنها تأتى كثيراً لترانى ، وحين تأتى .. » ، لكنه توقف ، وقد لحظ أن المربية تهمس لأمه فى أذنها بعبارة ما ، وأن وجهها تغير فجأة ، وبدا فيه مزيج من الرعب والفزع والخجل ! .. ثم توجهت أمه نحوه قائلة : « يا حبيبى ! » .. ولم تقو على أن تقول « وداعاً » . لكن التعبير الذى ارتسم على وجهها قالها ففهم الصبى .. ثم أردفت قائلة : « إنك لن تنسانى يا حبيبى ؟ أليس .. ؟ » ، لكنها عجزت عن إكمال عبارتها ! ولكم جالت بخاطرها فيما بعد عبارات كان

ينبغى أن تقولها للصبى وهى تودعه ، لكنها الآن لم تدر ماذا تقول ، ولم تستطيع أن تقول شيئاً .. وإن كان سريوشا قد فهم كل ما أرادت أن تقوله له : فهم أنها شقية مبتئسة ، وأنها تحبه .. بل فهم حتى ما همست به المربية ، فقد التقطت أذنه هذه الكلمات : « دائما فى الساعة التاسعة » ، فأدرك أنها تعنى بها أباه ، وأن أباه وأمه ينبغى ألا يلتقيا ! .. كل هذا فهمه : لم يبدو الرعب والخزى على وجه أمه ؟ .. إنها لم تخطىء فى شىء ، لكنها خائفة وخجلى من شىء ! .. وقد ود لو يلقى عليها سؤالا يريحه من شكوكه ، لكنه لم يجرؤ ! .. ورآها تعسة مكتئبة ، وأشفق عليها ، فالتصق بها فى صمت وهمس : « لا تذهبى الآن .. إنه لن يأتى حالا ! » .

فأبعدته الأم قليلا لتقرأ فى وجهه ما يجول بخاطره ، وتفكر فيما عساها أن تجيب به .. وسرعان ما أدركت أنه يعنى بكلامه أباه ، بل قرأت فى وجهه أنه يريد أن يسألها كيف تكون نظرته إلى أبيه ، وماذا يعتقد فيه ؟ فقالت له ضارعة : « سريوشا يا حبيبى .. أحبه ! إنه أفضل ، وأكثر عطفاً ، منى .. وقد أسأت أنا إليه .. وحين تكبر سوف تستطيع أن تحكم ! » .. فصاح الصبى يائساً ، من خلال دموعه : « لا يوجد من هو أفضل منك ! » ، ثم تشبث بكتفيها والتصق بها بكل قوته ، ويداه ترتعشان من الانفعال ! فهتفت « أنا » فى مثل ضعفه وصبيانيته : « يا حبيبى ، يا صغيرى الغالى ! » ، وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخل منه مساعد

الحارس . وسمع قرب الباب الآخر وقع أقدام تصعد السلم ، فهمست المربية فى وجل : « إنه قادم ! » ثم أعطت « أنا » قبعتها ! ، بينما غاص سريوشا فى فراشه وأجهش بالبكاء ، وقد أخفى وجهه بين يديه .. فأزاحت « أنا » يديه وقبلت وجهه الندى بالدموع مرة أخرى ، ثم أسرعت نحو الباب .. فى الوقت الذى أقبل فيه زوجها ، فالتقيا على عتبة الباب .. وإذ رآها أليكسى توقف وحنى رأسه لها بالتحية !

وبرغم ما ذكرته للصغير منذ لحظات بصدد أفضلية أبيه عنها ، فى الطيبة والرقة ، فإن النظرة السريعة التى رمقته بها الآن كانت تنطوى على النفور والكراهية له ، والغيرة منه على ابنها ! .. وبحركة سريعة أرخت نقابها على وجهها ثم هرعت خارجة من الغرفة وهى تكاد تعدو ، حاملة معها طرد الدمى والهدايا التى ابتاعتها لابنها فى اليوم السابق ، وقد نسيت فى اضطرابها أن تحل رباطها وتعطيها للصبى .. !

• • •

● لم تكن « أنا » — برغم اشتياقها إلى رؤية ابنها ، وطول تدبيرها أمر لقائه ، وإعدادها نفسها لهذا اللقاء — تتوقع تأثرها برؤيته كل هذا التأثر العميق ؟ فلما عادت إلى جناحها المنعزل بالفندق لبثت فترة طويلة شاردة الذهن تفكر فى حالها ، وتحدث نفسها وهى جالسة فى مقعد مريح بجوار المدفأة ، دون أن تخلع حتى

قبعتها : « لقد انتهى كل شىء .. وها أنذا عدت وحيدة من جديد ! » .

وبعد قليل عادت المربية الإيطالية التى جلبتها معها من رحلتها، بعد أن خرجت بالطفلة للنزهة بعض الوقت ، وأعطت الطفلة لأمها . فلما رأت الصغيرة ، الممتلئة الجسم ، أمها ، مدت إليها يديها الصغيرتين البدينتين ، وبابتسامة عذبة من فمها الخالى من الأسنان بدأت تعبث بحواشى ثوبها المطرزة المقواة بالنشاء ، فتحدث من احتكاك أصابعها بها أصواتاً خشنة طريفة كان مستحيلا على من يسمعها ألا يبتسم ويقبل الطفلة ، ويداعبها .. وقد فعلت « أنا » كل ذلك ، وأخذتها بين ذراعيها وجعلتها ترقص ، وقبلت خدها الصغير اللدن ومرفقيها الصغيرين العاريين .. لكنها أدركت وهى ترى الطفلة ، أن الشعور الذى تحسه نحوها لا يمكن أن يسمى حباً بالقياس إلى ما تحسه نحو سريوشا ! كل شىء فى هذه الطفلة جذاب ، ولكن حبها لها ليس عميق الجذور فى قلبها كما هو شأن حبها لطفلها الأول ، الذى تركزت فيه — برغم نفورها من أبيه — كل عواطفها التى لم تجد لها من قبل متنفساً ! لقد ولدت طفلتها الجديدة فى أسوأ الظروف وآلمها ، فلم تجد من العناية والحدب جزءاً من مائة مما أريق على سريوشا ، الذى أضحى الآن ذا شخصية مستقلة محبوبة ، يفهم أمه ويحبها ويشتاق إليها .. والذى انتزع منها إلى الأبد — لاجسمياً فقط : بل جسماً وروحاً — وبات إصلاح هذه الحال من المحال !

● وإذ بلغت « أنا » هذه المرحلة من تفكيرها ، أعادت طفلتها إلى مربيتها وصرفتها ، ثم فتحت علبة صغيرة كانت تحتوى على صورة لسريوشا حين كان فى مثل سن الطفلة الجديدة ، وبعد أن تأملتها لحظة قامت فخلعت قبعتها وتناولت من أحد الأدراج « ألبوما » يحوى صور الصبى فى مختلف مراحل طفولته ، ثم أخرجتها كلها من الألبوم كى تقارن بينها .. لكن صورة منها — هى أحدث وأجمل صورة له — استعصت على أصابعها إذ التصقت بالصورة المجاورة لها ، وكانت الأخيرة لفرونسكى ، أخذت له فى روما أخيراً .. فلم يكد بصر « أنا » يقع عليها حتى انثال إلى ذهنها فجأة خاطر غريب : أنه هو سبب تعاستها الحالية ! ولم تكن قد فكرت فيه لحظة منذ بداية الصباح ، أما وقد صادفت الآن وجه عشيقها المكتمل الرجولة ، المألوف لديها والغالى عليها ، فقد أحست فورة حب مفاجئة تنتابها نحوه ! وساءلت نفسها : « أين هو ؟ كيف يتركنى وحدى أقاسى كل هذا الشقاء ؟ » .. ولم تملك إلا أن تحتضن هذا الخاطر المنطوى على اللوم والتوبيخ ، ناسية أنها كتمت عن فرونسكى كل ما يختص بابنها !

وأرسلت تدعوه إلى أن يصعد إليها من فوره .. ولبثت تنتظره بقلب واجف ، مرددة لنفسها الصيغة التى سوف تفضى إليه فيها بكل شىء ، وعبارات الحب التى تتوقع أن يواسيها بها ! .. لكن الرسول عاد إليها يقول : أن عند الكونت فرونسكى زائر هو

الأمير « ياشفين » الذى وصل الآن إلى بطرسبرج ، ولكنه سيصعد إليها حالا برغم ذلك . وهو يسألها إن كانت تسمح له بأن يحضر ضيفه معه ؟ . وعادت « أنا » تحدث نفسها : « إنه لن يأتى وحده ، برغم أنه لم يرنى منذ ظهر أمس ، وإنما سيأتى ومعه ضيفه ، وهكذا لن أستطيع أن أفضى إليه بكل شىء ! » .. وداهمها خاطر غريب : « ماذا لو كان قد كف عن أن يحبها ؟ ! » . وباسترجاع حوادث الأيام القليلة الماضية بدا لها أنها تجد فى كل شىء تأييداً لهذا الخاطر الرهيب : فهو لم يتناول العشاء فى الفندق مساء أمس ، وهو قبل ذلك قد أصر على أن يتخذ لنفسه جناحاً منفصلا مستقلا فى الفندق . ثم ها هو الآن لا يحضر إليها وحده ، كأنما يتجنب لقاءها على انفراد ! .. ومضت تحدث نفسها : « كان ينبغى له أن يصارحنى بذلك ! يجب أن أعرف الأمر على حقيقته ، فلو عرفته لتبينت ما ينبغى أن أفعله ! » . ولم تستطع أن تصور لنفسها الموقف الذى تمسى فيه إذا اقتنعت بتحول قلبه عنها ! وأحست عقب التفكير فى هذا الاحتمال بأنها توشك أن تتردى فى هاوية اليأس .. فدقت الجرس لخادمتها ومضت إلى حجرة الزينة لترتدى أفخر ثيابها وتعد شعرها أجمل إعداد ، وكأنما أرادت أن توقعه فى غرامها من جديد إذا صح أن حبه لها بدأ يعتريه الفتور !

ثم سمعت الجرس يدق ، فمضت إلى حجرة الاستقبال .. لكن عينيها التقيا بالأمير ياشفين أولا ، أما فرونسكى فكان يتأمل صور

سريوشا التى نسيتها متناثرة على المنضدة ، ولم يبد عليه أنه يتعجل مقابلتها ! وقالت « أنا » ترحب بالضيف وهى تضع يدها الصغيرة فى يده الضخمة : « لقد التقينا من قبل ، فى ميدان السباق خلال الموسم الماضى » ، ثم انتزعت من يد فرونسكى –بحركة سريعة– صور ابنها ، قائلة له وهى ترمقه بنظرة ذات معنى من عينيها الحادتين : « أعطنى إياها ! » .

وبعد أن تحدث الثلاثة فى شئون السباق وغيرها من الأمور فترة من الوقت – لاحظت « أنا » خلالها أن فرونسكى كان يكثر من النظر إلى ساعته ! – نهض الأمير مستأذناً فى الانصراف ، متسائلا عما إذا كانت تعتزم البقاء طويلا فى بطرسبرج ؟ فأجابته مترددة ، وهى تنظر إلى فرونسكى : « كلا .. فيما أعتقد » ، فقال الأمير : « إذن نلتقى ثانية ؟ » ، فقالت : « تعال لتتناول العشاء هنا معنا . إن الطعام عندنا ليس ممتازاً ، لكنك سوف ترى فرونسكى على الأقل . إنه لا يشتاق إلى أحد من زملائه القدامى فى الجيش مثلما يشتاق إليك ! » .. فقال : « حسناً .. يسرنى أن أحضر ! » . ثم صافحها وانصرف ، فسألت فرونسكى : « أذاهب أنت أيضاً ؟ » . فأجابها : « الواقع أنى تأخرت عن موعدى ! » . ثم صاح بالأمير الذى سبقه : « اذهب أنت ، وسوف ألحق بك بعد لحظة ! » وأمسكت « أنا » يده ، وبقيت تحدق فى وجهه صامتة ، وتكد ذهنها بحثاً عن عبارة تستطيع بها إغراءه بالبقاء !.. وأخيراً قالت

له : « انتظر لحظة ، هناك شىء أود أن أقوله لك . هل كنت مصيبة فى دعوة الأمير إلى العشاء ؟ » . فأجابها فرونسكى بعد أن قبل يدها وابتسم لها ابتسامة صافية أظهرت أسنانه الناصعة : « لقد أحسنت صنعاً .. » ، فاستطردت وهى تضغط يده بين راحتيها :

– فرونسكى ، ألم يتغير شعورك نحوى ؟ أنى تعسة جداً هنا ، فمتى نسافر ! ؟

– قريباً ، قريباً .. إنك لا تعلمين مبلغ ضيقى أنا بنظام معيشتنا هنا !

وسحب يده من يدها ، فقالت له بلهجة تحد ، وهى تمضى عنه :

– حسناً .. اذهب !

• • •

● حينما عاد فرونسكى إلى الفندق ، لم تكن « أنا » هناك ! .. وقيل له إن سيدة جاءت لزيارتها ثم خرجتا معاً ، فجعل يحدث نفسه : « عجباً ! ما معنى خروجهما على هذا النحو ، دون أن تترك لى رسالة عن وجهتها ؟ وما معنى تأخرها إلى هذه الساعة ؟ ! بل ما معنى خروجها بلا علم منى ؟ وتلك النظرة الغريبة المنفعلة التى بدت فى عينيها ، واللهجة الحادة التى خاطبتنى بها ، وهى تنتزع صور ابنها من يدى أمام « ياشفين » ؟ »

وانتهى فرونسكى من تفكيره إلى وجوب مفاتحتها فى الأمر

بصراحة ، فجلس ينتظرها فى حجرة استقبالها .. لكن « أنا » لم تعد وحدها ، بل كانت معها عمتها العانس العجوز الأميرة أوبلونسكى ، وكانت هى الزائرة التى حضرت وأخذت «أنا» معها منذ ساعات !.. وبدا على « أنا » أنها تلحظ قلق فرونسكى ونظراته المتسائلة ، فمضت تتحدث فى مرح عن تفاصيل جولتها مع عمتها بين المتاجر لشراء بعض الحاجيات . ورأى فرونسكى فى عينيها اللامعتين ، وحركاتها العصبية ، ولهجتها السريعة فى الكلام ، أنها تخفى شيئاً ! فكتم قلقه وانزعاجه على مضض ، ريثما أعد الخدم العدة كى يتناول الأربعة العشاء معاً . وفيما هم يتأهبون للجلوس حول المائدة ، أقبل رسول من قبل الأميرة بتسى يحمل رسالة منها إلى « أنا » تعتذر فيها عن تخلفها عن الحضور لزيارتها ، ثم ترجو منها أن تذهب إليها فى موعد حددته .. فقالت « أنا » للرسول وهى تبتسم ابتسامة واهنة :

— يؤسفنى أنى لن أستطيع الذهاب فى هذا الموعد !

فقال الرسول : « إن هذا يسوء الأميرة ولا شك ! »

فقالت : « وهو يسوؤنى أيضاً ! » . وسكتت . فعاد الرسول يقول : « لعلكم ذاهبون لسماع (باتى) فى الأوبرا ؟ » ، فقالت : « باتى ؟ لم تكن لدى هذه الفكرة ، ولكن لا مانع عندى من الذهاب إذا وجدت مقصورة فى الأوبرا » ، فقال : « إذا شئت ففى وسعى الحصول لك على مقصورة هناك ! » .. فقالت : « أكون شاكرة لك . هل لك أن تتناول العشاء معنا ؟ »

ووجد فرونسكى نفسه فى حيرة تامة أمام تصرفات « أنا » ، وساءل نفسه فى غيظ مكبوت عما دعاها إلى دعوة الأميرة « أوبلونسكى » للعشاء ، ثم استبقائها رسول بتسى للعشاء معهم أيضاً ، فضلا عن تفكيرها فى الذهاب إلى الأوبرا ، حيث ينتظر أن تلتقى هناك بجميع أفراد بيئتها الذين تقتضيها الحكمة أن تتجنبهم !.. ونظر فرونسكى إليها نظرة فيها كل تساؤله هذا ، فما كان جوابها إلا أن حدجته بنظرتها المتحدية ، التى تجمع بين المرح واليأس ، والتى لم يفهم مغزاها على الإطلاق ! وحين حضر الأمير «ياشفين» وجلس الخمسة إلى المائدة ، كانت « أنا » بادية المرح والانطلاق ، تكاد تغازل « ياشفين » تارة ، وتغازل الرسول صديق بتسى تارة أخرى ! .. فلما نهضوا عن المائدة مضى صديق بتسى ليحصل لأنا على تذاكر الدخول إلى الأوبرا ، بينما هبط ياشفين مع فرونسكى إلى حجرته بالطابق الأسفل كى يدخنا ويتحدثا فيما يعنيهما من شئون . وحين صعد فرونسكى إلى جناح « أنا » بعد حين وجدها قد ارتدت ثوباً فاخراً من ثياب السهرة — كانت قد ابتاعته من باريس — عارى الصدر ، مصنوعاً من الحرير الشفاف والقطيفة .. وحلت رأسها بغطاء من الدانتلا البيضاء الثمينة ، فبدا جمالها الرائع فى أبهى صوره ! فقال لها متعمداً ألا ينظر إليها :

— أذاهبة أنت حقاً إلى الأوبرا ؟

— ولم تسألنى بهذا الانزعاج ؟ .. لم لا أذهب ؟ !

فأجابها متجهما : « حقاً .. ليس ثمة سبب على الإطلاق ! » .. على أنها تعمدت أن تتجاهل السخرية البادية فى لهجته ، وقالت وهى تتناول قفازها الطويل المعطر : « هذا ما أراه أنا أيضاً ! » . وعندئذ صاح بها ضارعاً ، كما فعل زوجها يوماً :

— « أنا » ، بحق السماء ماذا دهاك ؟ !

— لست أفهم ماذا تعنى !

— ألا تعلمين ما فى ذهابك من مجازفة ؟ !

— لست ذاهبة وحدى ، ستكون الأميرة معى !

فهز كتفيه فى حيرة ويأس ، ثم أردف قائلا : « هل تقصدين أنك لا تعلمين أن .. » .. فقطعت كلامه صائحة : « لست أبالى ! لست أبالى ! أننى لست آسفة على ما فعلت ! كلا ! كلا ! .. ولو أننى وجدت فى الظروف ذاتها مرة أخرى ما تصرفت إلا تصرفى هذا نفسه ! » . ثم أردفت قائلة ، دون أن تترك له فرصة للكلام : « فرونسكى .. إن كل ما يهمنا — كلينا — لا يعدو أمراً واحداً ، هو : هل يحب كل منا الآخر أم لا ؟ أما الناس فلسنا فى حاجة إلى أن نعبأ بآرائهم . لم لا أذهب ؟ أنى أحبك ، وإذا لم يكن شعورك قد تبدل فلست أبالى بأى شىء ! لم تتجنب النظر إلى ؟ » .

ونظر إليها .. فأخذت عيناه بجمال محياها ، وأناقة ثيابها وزينتها ، ولكن تصرفها على ذلك النحو بقى يحز فى نفسه ، فقال لها فى ضراعة ورقة ، وإن بدا الفتور فى عينيه : « أنت تعلمين أن

شعورى نحوك لا يمكن أن يتغير ، لكنى أرجو ، بل أتوسل إليك .. » .. ولم تسمع هى كلماته ، إذ شغلها التفكير فى الفتور البادى فى عينيه ، فقطعت كلامه قائلة : « وأنا أرجو أن توضح لى لم ينبغى ألا أذهب ! ؟ » .

— لأن ذهابك قد يسبب لك ...

وتردد .. فأردفت هى : «لست أفهم .. أن « ياشفين » ليس بالرجل الذى يثير الريب ، والأميرة ليست أسوأ من الأخريات ! .. أوه ، ها هى قد ارتدت ثياب السهرة وعادت ! »

° ° °

● حينما لحق فرونسكى بأنا فى الأوبرا ، كانت الأنوار قد أضيئت فتلألأ وهجها من مئات الشمعدانات والثريات ، والتقت حماسة النظارة فى عاصفة من التصفيق المدوى ، إعجاباً بالمغنية الأولى ، التى انحنت ترد لهم التحية وتبتسم وهى تتلقى عشرات من باقات الأزهار التى انهالت عليها من كل صوب ! .. على أن فرونسكى لم يلق باله إلى هذه المظاهرة المألوفة ، وجعل يدير بصره فيما حوله . كانت هناك المجموعة عينها من النساء ، بصحبة المجموعة عينها من الرجال ، التى ألف أن يراها فى مثل هذه المناسبات ! .. ولم يكن بصره قد وقع بعد على « أنا » ، لكنه عرف — من اتجاه النظرات — أين تجلس ، فتعمد أن يتجنب الالتفات إلى ناحيتها ! وأحس شيئاً من الارتياح حين تبين تخلف

أليكسى عن الحضور إلى المسرح فى هذه الليلة . ثم تناول المنظار المكبر وراح يجيله فى حذر فى كل اتجاه .. وفجأة لمح رأس « أنا » الجميل الأبى ، وقد رفت على فمها ابتسامة ساحرة ، وأشرق وجهها داخل إطار الدانتلا البيضاء . كانت فى المقصورة الخامسة ، على قيد عشرين خطوة منه ، جالسة فى مقدمة المقصورة تتحدث إلى ياشفين ! وذكرته هيئتها بليلة رآها فى الحفلة الراقصة فى موسكو ، لكن نظرته إلى جمالها تغيرت كثيراً عنها فى المرة الأولى ، وفقدت عنصر الغموض والفضول . وبرغم أن هذا الجمال قد إزداد بهاء وحدة ، فقد بدا لعينيه وكأنه اكتسب طابع الأذى والخطر ! وحين أدار فرونسكى منظاره ناحية المقصورة مرة أخرى رأى الأميرة تضحك ضحكاً متكلفاً وقد احمر وجهها ، وراحت تلقى نظرات متقطعة إلى المقصورة المجاورة ، بينما حرصت « أنا » على تجنب النظر فى ذلك الاتجاه ، واتخذ وجه ياشفين ذلك التعبير المألوف منه كلما خسر مالا فى القمار ، وكان بدوره لا يفتأ يختلس النظرات إلى المقصورة المجاورة !

كانت تجلس فى تلك المقصورة أسرة « كارتاسوف » ، التى يعرف فرونسكى أفرادها ، ويعلم أن « أنا » تعرفهم كذلك معرفة وثيقة . وكانت السيدة – مدام كارتاسوف – قد نهضت وأعطت ظهرها لأنا ، بينما وقف زوجها – وهو رجل بدين أصلع – يعاونها على ارتداء معطفها . وكانت تتكلم فى حدة ، وقد شحب وجهها

وبدا عليه الغضب ، فى حين أخذ زوجها يهدىء من ثائرتها ويلتفت بين حين وآخر إلى ناحية « أنا » . فلما خرجت زوجته تلكأ بعدها برهة ، كأنما يحاول أن تلتقى عيناه بعينى « أنا » ، كى ينحنى لها محيياً .. لكن هذه حرصت فيما يبدو على تجاهله ، فخرج آخر الأمر بدون أن يلقى إليها بالتحية .. وبقيت المقصورة شاغرة !

لم يستطع فرونسكى أن يفهم على وجه الدقة ما حدث بين أسرة كارتاسوف وبين أنا ، لكنه استنتج مما لاحظه أن شيئاً ينطوى على إهانة لها قد وقع ، ولا سيما بعد ما رأى وجه أنا يختلج ، وأنها تحاول قمع اختلاجه جاهدة .. على أنها أفلحت على وجه العموم فى الاحتفاظ بثباتها المتكلف وإخفاء انفعالها عن كل من لا يعرف طبيعتها أوثق المعرفة ، بحيث لم يكن ليدور فى خلد من يراها إلا أن يعجب بحسنها الباهر ، دون أن يخالجه أدنى ريب فى أنها تعانى فى تلك اللحظات ما يعانيه المضارب فى بورصة المال !

وانتابت فرونسكى حمى من الفضول واللهفة على معرفة ما حدث ، فنهض متجهاً إلى مقصورة أخيه . وفى الطريق التقى بزوجة أخيه « فاريا » ، فصافحته ، وابتدرته قائلة فى انفعال لم يلحظه عليها من قبل : « إنها ضعة وحقارة كريهة ! ما كان يليق بمدام كارتاسوف أن تفعل ذلك . إن مدام كارنينا .. » .

– ولكن ما الذى حدث ؟ لست أعرف شيئاً على الإطلاق !

– ماذا ؟ ألم تسمع ؟

— كلا ! إنى آخر شخص يمكن أن تبلغ إليه هذه الأخبار !

— ليس أحقر فى رأيى من هذه « المدام كارتاسوف » !

— ولكن ما الذى فعلته ؟

— لقد قص على زوجى أنها أهانت مدام كارنينا ! كان زوجها قد بدأ يتجاذب أطراف الحديث مع « أنا » من مقصورته، فثارت ثائرة زوجته وتفوهت بعبارة ماسة بأنا ، بصوت مسموع ، ثم غادرت المسرح على الفور ! وفيما كان فرونسكى يتحدث مع زوجة أخيه ، جاءه رسول من قبل أمه يدعوه إليها — وكانت فى مقصورة أخيه الأكبر — فمضى إليها ، وابتدرته قائلة فى تهكم : « لقد انتظرنا حضورك طول الوقت ، لكنك كنت مختفياً عن الأنظار ! » .

— مساء الخير يا أماه ، ها أنذا قد جئت !

— لم لا تذهب لمغازلة مدام كارنينا ؟ إنها أكثر فتنة ولفتاً للأنظار من المغنية « باتى » !

— أمى ، لقد سألتك ألا تحدثينى فى هذا الموضوع مطلقاً !

— لست أقول غير ما تلوكه الألسنة كلها !

ولم يجب فرونسكى ، بل بادر إلى الخروج وهو يحس بالدم يغلى فى عروقه . وبأنه ينبغى أن يفعل شيئاً، لكنه لا يدرى ما هو ! إن قلبه مفعم غضباً على أنا لأنها وضعت نفسها ووضعته فى مثل هذا الموقف الشائك ، لكن قلبه مفعم بالشفقة عليها أيضاً ! ..

ومضى رأساً إلى مقصورتها ، فانحنى لها ، ووقف ليصافح الذين معها .. فابتدرته هى قائلة فى تهكم : « أنك جئت متأخراً ، فقد فاتتك أروع أغنية ! » .

— أنى لست خبيراً بالموسيقى على أى حال !

— مثل الأمير « ياشفين » ، إن من رأيه أن « باتى » تغنى بصوت أعلى مما ينبغى !

.. ثم أطفئت الأنوار ، فعاد فرونسكى إلى مقعده . لكنه لاحظ فى منتصف الفصل الثانى أن مقصورة « أنا » قد خلت منها ، فهرع خارجاً أثناء التمثيل ، غير مبال بصهصهة الاستياء وطلب الصمت التى لاحقه بها بعض النظارة لتعكيره سكون القاعة ! .. وحين بلغ الفندق وجد « أنا » قد سبقته إليه ، ورآها جالسة على أحد المقاعد دون أن تخلع شيئاً من ثيابها ، وقد شرد بصرها فى الفضاء . فلما دخل ، التفتت إليه ، ثم عادت إلى وضعها السابق .. فصاح بها : « أنا ! » .. وإذ ذاك نهضت ، وأجابته ودموع اليأس والكراهية تبلل صوتها :

— أنت ، أنت المسئول عن كل ما حدث !

— لقد رجوت منك ، توسلت إليك ألا تذهبى .. كنت أعلم أن السهرة سوف تكون غير سارة !

— غير سارة ؟ بل فظيعة ، لن أنساها ما حييت . لقد سمعتها تقول بأعلى صوتها : « إن من العار أن تجلس بجانب .. ! » .

— ثرثرة امرأة حمقاء ! ولكن ما كان أغناك عن تعريض نفسك لمثلها ، وتحدى الناس جميعاً !

— إنى أمقت هدوءك ! ما كان ينبغى أن تقودنى إلى هـــذه النتيجة . لو أنك أحببتنى !

— أنا ؟ ! ما دخل موضوع حبى فى هذا الشأن ؟

— لو أنك أحببتنى كما أحبك .. لو أنك تعذبت مثلى !

ونظرت إليه نظرة أسى ولوعة .. فرثى لحالها ، وإن بقى غاضباً من تصرفها ، ثم اضطر — كى يهدىء من ثائرتها — إلى أن يؤكد لها حبه ، ويكرر أدلته عليه .. ولم يوجه إليها أية كلمة لوم أو تأنيب ! .. على أن توكيده لحبه — الذى بدا له أمراً مبتذلا ، خجل من النطق به — نزل على قلبها برداً وسلاماً .. ولم تمض برهة قصيرة حتى هدأت ثائرتها !

وفى الصباح كانا قد تصالحا تماماً ، فحزما أمتعتهما وشدا رحالهما عائدين إلى الريف !

الفصل السادس

- ١٩ -

● كانت دوللى وأطفالها يقضون الصيف فى ضيعة ليفين — زوج شقيقتها كيتى — حين بلغها نبأ قدوم أنا وفرونسكى إلى ضيعة الأخير ، لقضاء أسابيع . وبرغم بعد الشقة بين الضيعتين ، قررت دوللى أن تذهب لتزور أنا ، ولتظهر لها أن عواطفها نحوها لم تتغير ، تبعاً لتغير موقفها ونظرة المجتمع إليها ! وكانت دوللى تعلم بتوتر العلاقات بين ليفين وكيتى من جهة ، وبين فرونسكى وأنا من جهة أخرى ، وذلك منذ استئثار أنا بفرونسكى وعدوله من أجلها عن خطبة كيتى .. ومن هنا لم تشأ دوللى أن تستعير عربة ليفين ، ذات الجياد الأربعة ، كى تقلها إلى حيث تقطن أنا ، وآثرت أن تستأجر عربة من إحدى حظائر القرية ! لكن ليفين ما كاد يعلم بالأمر حتى أصر على أن تذهب فى عربته ، مؤكداً أنه لا يمانع البتة فى زيارتها لمنزل فرونسكى !

وحين وصلت دوللى ، بعد أن استغرقت الرحلة نهاراً كاملا ، استقبلتها أنا مرحبة ، وبادرتها قائلة : « إنك تنظرين إلى وتعجبين ، كيف أستطيع أن أكون سعيدة فى وضعى الحالى ؟ .. لكنى فى الواقع — وإن أخجلنى أن أعترف بذلك — سعيدة كل السعادة ! إن شيئاً أشبه بالسحر قد حدث لى . وكما تحسين بالراحة والغبطة

حين تستيقظين من كابوس مرعب رهيب ، كذلك أحسست أنا حين استيقظت من حياة التعاسة والخوف التى كنت أحياها .. وها أنذا الآن – ولا سيما منذ حضرنا إلى هنا – أستمتع بسعادة كاملة ! » .. وصمتت ، وهى تنظر إلى ضيفتها وتبتسم فى خجل .. فابتسمت دوللى بدورها وأجابتها ، فى لهجة جاءت برغمها أبرد مما أرادتها :

– لكم يسرنى أن أسمع منك ذلك . لماذا لم تكتبى إلى ؟

– لماذا ؟ لأنى لم أجد الشجاعة الكافية . إنك تتناسين موقفى !

– معى أنا لا تجدين الشجاعة ؟ ليتك علمت كيف كنت :: إنى أرى ..

ولم تتم عبارتها ، إذ شعرت بأنه قد فات أوان التعبير عن أفكارها ، وفى أثناء ترددها سألتها أنا :

– كيف ترين موقفى ؟ .. وماذا تعتقدين فى صدده ؟

– لست أعتقد شيئاً سوى أنى كنت دائماً – وما أزال – أحبك ، وإذا أحب الإنسان شخصاً فإنه يحبه كما هو فى الواقع ، لا كما ينبغى أن يكون !

وحولت أنا عينيها عن وجه صديقتها ، وأرخت أجفانها وقد بدا عليها التردد ، كما لو كانت تحاول التعمق فى المعنى الحقيقى الكامل لكلام ضيفتها ! وإذ انتهت إلى تفسيره كما بدا لها ، عادت

تنظر إليها وتقول : « أياكان رأيك ، فأنا سعيدة بحضورك لزيارتى وأشكر لك هذه العاطفة النبيلة ! » .. ورأت دوللى الدموع تطفو على عين صديقتها ، فضغطت يدها فى صمت .. وعندئذ استدارت أنا إليها متسائلة : « هل فى استطاعتك البقاء هنا بعض الوقت ؟ يوماً واحداً مثلا ؟ أحسب ذلك مستحيلا ! » .

– لقد وعدت بالعودة مباشرة . ثم هناك الأطفال ..

– لا .. لا يا عزيزتى دوللى ! على أى حال سوف نرى .. تعالى معى ، تعالى !

ثم قادتها إلى غرفة الضيافة الأنيقة ، وقالت لها وهى تجلس بجانبها : « كم أنا سعيدة يا عزيزتى . حدثينى عن كل أمورك .. كيف حال ابنتك اللطيفة « تانيا » ، أحسبها غدت صبية كبيرة الآن ؟ » .

– نعم ، وطويلة القامة جداً . لقد قضينا أياماً ممتعة فى ضيافة ليفين .

– آه لو كنت أعلم أنك لا تضمرين لى احتقاراً ، لدعوتكم جميعاً إلى قضاء أيام عندنا . إن ستيفان صديق قديم لفرونسكى !

واصطبغ وجه أنا فجأة بحمرة الخجل ، من إشارتها إلى عشيقها ..فأجابت دوللى فى ارتباك : « نعم ، لكننا جميعاً .. » .. وحين لاحظت أنا ترددها ، قاطعتها وهى تقبلها مرة أخرى : « يبدو أن فرحتى تجعلنى أهذى بترهات .. الشىء المهم فى الأمر

كله يا عزيزتى أنى جد مغتبطة بزيارتك ، لكنك لم تذكرى لى حتى الآن : ماذا تعتقدين فى ؟ لشد ما يشوقنى أن أعرف ! وإنه ليسرنى أن ترينى كما أنا ، على حقيقتى . إنى لا أبغى غير أن أعيش ، ولا أوذى أحداً غير نفسى ! — فلست أملك حق إيذاء الغير ! — لكن هذا موضوع شائك ، وسوف نتكلم فيه بالتفصيل فيما بعد! ».

وكان موعد العشاء ما يزال باقياً عليه حوالى ساعتين ، فاقترح فرونسكى على أنا أن يأخذا ضيفتهما إلى نزهة فى الحديقة يستقلون بعدها زورقاً للتنزه فى النهر .. وسرعان ما نفذا هذا الاقتراح . وقد أعجبت دوللى بكل شىء رأته ، ولا سيما بشخصية فرونسكى ، ومزحه الطبيعى ، وبساطته المحببة ، فحدثتها نفسها غير مرة قائلة : « نعم ، إنه رجل ظريف حقاً ، وطيب » وكم من مرة حاولت وهى تراقبه أن تضع نفسها موضع أنا وتنظر إليه من هذه الزاوية ، فكانت فى كل مرة تلتمس لأنا العذر فى كونها أحبته ! .. وفيما كانوا يتجولون فى الحديقة ، انتهز فرونسكى فرصة انشغال «أنا» بتفقد الجياد فى حظائرها ، وهمس لدوللى وهو يرمقها بعينين ضاحكتين : « هناك شىء أحب أن أقوله لك : إنك صديقه لأنا ، وهى شديدة الشغف بك ، فهل لك أن تساعدينى فى إقناعها بأمر ، من الخير لها أن تقتنع به ؟ » .. ثم سار بجوار ضيفته صامتاً بعض الوقت ، وعاد فأردف : « إنك وحدك — دون صديقات أنا القديمات — التى حضرت لزيارتنا ! لكنى واثق بأنك لم تفعلى

ذلك لأنك تعتبرين موقفنا طبيعياً لا غبار عليه ، بل لأنك تفهمين كل المصاعب التى تكتنف هذا الموقف ، وما زلت تحبين « أنا » وترغبين فى مساعدتها .. أليس كذلك ؟ » .

— أوه ، نعم .. ولكن ..

— كلا ، ما من شخص يشعر بحرج موقف « أنا » فى حدة وتعمق مثلما أشعر به أنا ! وإذا منحتنى شرف الافتراض بأنى أملك قلباً بين جوانحى ، فلا شك أنك تفهمين جيداً أنى أنا المسئول عن هذا الوضع الأليم ، وهذا ما يزيدنى شعوراً به !

— أفهم قصدك . ولكن لأنك تعتبر نفسك مسئولا ، فأنت فيما أعتقد تغالى فى الأمر ، وإن كنت مقتنعة بحرج موقف « أنا » إزاء المجتمع ؟ !

— بل إنه الجحيم بعينه ! وليس فى استطاعتك تصور آلام نفسية أفظع مما قاسته « أنا » فى بطرسبرج خلال الأسابيع الأخيرة !

— هذا صحيح ، ولكن ما دمتما لا تشعران هنا بحنين أو شوق إلى المجتمع ..

— المجتمع ؟ كيف يمكن أن أشتاق إليه ؟

— إنك حتى الآن — وربما إلى الأبد — سعيد وساكن النفس . وما أراه من « أنا » يحملنى على الاعتقاد بأنها هى الأخرى سعيدة ، سعيدة جداً ! لقد قالت هى ذلك بلسانها !

— نعم ، نعم .. أعلم أنها قد انتعشت الآن ، بعد كل ما قاسته ،

وأنها سعيدة .. سعيدة فى الحاضر ! لكنى .. لكنى أخشى ماينتظرنا فى المستقبل ، فهل يمكن أن تدوم هذه السعادة ؟ .. لسنا الآن بصدد تقدير ما انطوى عليه تصرفنا من صواب أو خطأ ، فإن هذا لن يغير شيئاً من الحقيقة الواقعة : وهى أننا غير مرتبطين معاً برباط مشترك مدى الحياة ! .. وبرغم أنه تربطنا جميع وشائج الحب التى نقدسها – فقد أنجبنا طفلا ، وربما ننجب أطفالا آخرين ! – إلا أن القانون ، وشتى ملابسات موقفنا ، تضع فى طريقنا آلافاً من العقبات والعوائق التى لا تراها أنا ، ولا تريد أن تراها ! .. فى حين أننى لا أملك إلا أن أرى هذه العقبات .. من ذلك مثلا أن ابنتى هى بحكم القانون ابنة أليكسى وليست ابنتى ، وأنا لا أستطيع تحمل هذا الزيف ! .. وغداً قد يولد لنا ولد – هو ابنى أنا – لكنه بدوره سوف يحسب قانوناً ابن أليكسى ، فلا يرث اسمى ولا أملاكى ! .. ومهما نكن سعداء فى حياتنا الخاصة ، ومهما نرزق بأطفال ، فلن تكون بيننا رابطة حقيقية – ولعلك تقدرين مرارة هذا الوضع ! – ولقد حاولت أن أكلم « أنا » فى هذا الموضوع ، فكان ذكره يثيرها دائماً ! إنها لا تفهم الموقف كما ينبغى ، بل إننى لا أستطيع التحدث إليها بصراحة فى شأنه ! .. ثم انظرى إلى الأمر من ناحية أخرى : إنى سعيد حقاً بحبها ، لكنى ينبغى أن أجد لى عملا أشغل فيه وقتى وجهدى . وقد وجدت هذا العمل ، وأنا فخور به وأعتبره أنبل من وظائف زملائى القدامى فى

الجيش والبلاط . إنى أعمل هنا وقد استقر بى المقام فى مكانى المناسب ، وأنا سعيد قانع ، ولسنا فى حاجة إلى شىء آخر يكمل سعادتنا . إنى أحب عملى هنا ، والواقع أنه ..

ولاحظت دوللى أن فرونسكى اعتراه اضطراب ، وأنه يجاهد لكى يفضى إليها بدخيلة نفسه .. لكنه تمالك جأشه بعد حين واستطرد : « غير أن العامل الأهم فى الأمر كله هو أنى أريد أن أشعر وأقتنع عن يقين – وأنا أعمل – بأن عملى لن يموت بموتى ، وبأنه سيكون لى ورثة يخلفوننى .. وهذا ما ينقصنى الآن .. فبربك تدبرى موقف رجل يعلم أن أطفاله ، وأطفال المرأة التى يحبها ، لن ينتسبوا إليه .. بل لابد من انتسابهم إلى شخص آخر يمقتهم ولايعنى بهم أو يقيم لهم وزنا ! .. إنه لأمر فظيع ! » .

ثم أطرق وقد غلبه التأثر .. فقالت له دوللى : « هذا كله صحيح ومفهوم ، ولكن ماذا تستطيع « أنا » أن تفعل ؟ » .. فأجابها فرونسكى : « هذا يؤدى بى إلى هدف كلامى : تستطيع « أنا » أن تفعل الكثير ، والأمر يتوقف عليها دون سواها .. فحتى لو تقدمنا للقيصر بطلب إقرار شرعية نسب الأطفال ، فإن الطلاق يظل أمراً لا بد منه .. وهذا يتوقف على رغبة « أنا » ! فقد وافق زوجها على الطلاق – وكان لزوجك فضل إقناعه بذلك – وهو لن يمانع فيه الآن فيما أعتقد ، فكل ما يحتاج الأمر إليه أن تكتب « أنا » خطاباً بهذا المعنى . صحيح أن مطالبته إياها بهذا الخطاب فيها

شىء من القسوة — وإنى لأقدر العــذاب الذى تسببه لأنا كتـابة خطاب كهذا ! — لكن المسألة من الأهمية بحيث لا يبقى مفر من التجاوز عن الاعتبارات العاطفية ، سيما وأن الأمر يتوقف عليـه سعادة أنا وسعادة أطفالها — ولن أتحدث عن نفسى ، برغم الآلام التى أقاسيها من جراء محاولتى إقناعها بأن تكتب إليه ، وتطلب منه الطلاق ! »

فأجابت دوللى كالحالمة ، وهى تذكر حديثها الأخير مع أليكسى : « بكل تأكيد .. بكل تأكيد ! » .. بينما استطرد فرونسكى يناشدها : « فى استطاعتك أن تستخدمى نفوذك عندها ، لتجعليها تكتب إليه .. فإنى لا أرغب — بل لعلى لا أقوى — على أن أتحدث إليها فى هذا الشأن ! » .. فقالت دوللى : « حسن جداً ، سوف أحدثها فى الأمر . ولكن كيف لا تفكر هى فيه ، من تلقاء نفسها ؟ » .. ثم شردت لحظة ، وعادت تكرر ، جواباً على نظرة الشكر التى بدت فى عينيه : « نعم ، بلا شك .. من أجلى أنا نفسى ، ومن أجلها هى ، سأحدثها فى الأمر ! »

• • •

● كانت دوللى تتهيأ للمضى إلى فراشها ، حين دخلت « أنا » عليها مرتدية ثياب النوم : وكانت « أنا » قد شرعت أكثر من مرة — خلال النهار — فى التحدث إلى صديقتها عن أمورها الخاصة ، لكنها كانت تتوقف فى كل مرة قائلة لنفسها : « فيما بعد ، حين

نخلو إلى أنفسنا ، سوف نتحدث فى كل شىء .. فإن عندى الكثير الذى أود أن أفضى به إليها » .. على أنها بعد أن خلت إليها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، لم تدر كيف تبدأ الحديث ، فجلست إلى جوار النافذة تنظر إلى دوللى ، وتستعرض فى مخيلتها كل ما اختزنته من موضوعات خاصة كانت تبغى أن تفضى بها إليها ، فلم تجد بينها ما يصح الإفضاء به ! لقد خيل إليها الآن أن كل شىء قد قيل واستنفد بحثاً ! .. فآثرت أن تفتح الحديث من باب آخر . قالت وهى تتنهد : « ما أنباء كيتى ؟ . صارحينى القول يا دوللى ، أليست غاضبة منى ؟ » .

— غاضبة ؟ . أوه ، كلا ؟!

— لكنها ولا شك تكرهنى .. تحتقرنى ؟ !

— كلا ! لكنك تعلمين أن هذه الأشياء لا تغفر بسهولة !

— نعم ، أعلم ذلك . لكنى لم أكن الملومة . ومن الملوم فى هذا الأمر ؟ وما معنى اللوم فى صدد شىء كهذا ؟ هل كان يمكن أن يحــدث غــير ما حدث ؟ ماذا ترين أنت ؟ هل كان يمكن ألا تصبحى أنت زوجة لستيفان ؟

— فى الواقع ، أنا لست أدرى ! وهذا ما أريد أن أعرفه منك.

— حسناً ، لكننا لم ننته بعد من حديث كيتى ، أهى سعيدة ؟ يقولون إن زوجها رجل ظريف ..

– إنه أكثر من ظريف ، بل لست أعرف رجلا أفضل منه على الإطلاق !

– لكم يسرنى ذلك !

– ولكن دعينا من هذا وحدثينا عن نفسك ، فأمامنا أشياء كثيرة نتناقش فيها . وقد كان لى حديث طويل فى هذا الشأن مع .. فرونسكى !

– أعرف فيم تحدثتما .. لكنى أردت أن أسألك أولا عن رأيك فى .. فى حياتى ؟

– وكيف أستطيع أن أقطع فى هذا برأى سريع ؟ فى الواقع لست أدرى ..

– بل صارحينى برأيك على أى حال .. ولكن ينبغى ألا تنسى أنك ترينا فى الصيف ، وأنك الآن معنا ولسنا وحيدين .. أما يوم جئنا فقد كنا فى الربيع ، نعيش وحدنا ، وسوف نعود فنغـدو وحيدين .. ولست أطمع فى شىء أفضل من هذا . ولكن ماذا قال لك هو حين تحدث إليك ؟

– قال ما أحب أنا أيضاً أن أقوله ، وفى وسعى أن أنوب عنه فى الحديث بسهولة ، فى صدد الحديث عن استعدادك لأن تصححى موقفك .. أعنى أن تتزوجا !

– تعنين أن أحصل على الطلاق ؟ .. أننى لست زاهدة فى هذه النتيجة ، وليس أدل على ذلك من أن المرأة الوحيدة التى

زارتنى فى بطرسبرج كانت « بتسى تفرسكوى » التى تعرفين أنها أحقر امرأة وجدت على سطح الأرض . لقد خانت زوجها مع « توشكيفتش » على أحط صورة يمكن تصورها ! .. فهل تعلمين ماذا قالت لى ؟ إنها لا تريد أن تكون لها صلة بى ما دام موقفى غير سليم ! .. والآن ، ماذا قال لك فرونسكى عنى ؟

– إنه قلق عليك ، وعلى نفسه . قد تقولين : إن هذه أنانية .. لكنها أنانية مشروعة ونبيلة . إنه يريد أول كل شىء أن يقرر شرعية نسب ابنته ، وأن يصير زوجاً لك ، له عليك حقوق الزوج القانونية !

– إن أية زوجة بل أية امرأة لا يمكن أن تكون خاضعة له مثلى فى موقفى الحاضر !

– لكنه لا يريد أن تشقى أنت وتتعذبى ..

– هذا مستحيل ! .. ثم ماذا يريد أيضاً ؟

– يريد أن يكون لأطفالكما اسم ينتسبون إليه !

– أى أطفال ؟

– ابنته « آنى » ، وأولئك الذين سوف يجيئون ..

– لا داعى لأن يشغل ذهنه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فلن يكون لى أطفال آخرون !

– كيف تجزمين بذلك ؟

– أجزم لأنى لا أريد أطفالا بعد الآن !

وإذ لمحت « أنا » على وجه دوللى علائم الفضول والعجب ، والذعر الساذج ، لم تملك إلا أن تبتسم وتبادر إلى إيضاح كلامها قائلة : « لقد صارحنى الطبيب بعد مرضى بأنى لن أرزق أطفالا آخرين ! » .

— إذن فهذا أدعى إلى أن تصححى موقفك ما استطعت !

— نعم ، ما استطعت !

— لعلك لا تعنين أن حصولك على الطلاق أمر مستحيل .. فقد قيل لى إن زوجك وافق على الطلاق !

— دوللى ، لست أريد الإفاضة فى هذا الموضوع !

— إذن فلن نفيض فيه . كل ما أريد أن أقوله إنك تنظرين إلى الأمور نظرة متشائمة .

— دوللى ، ألا ترين حرج موقفى ؟ إنى أحاول أن أتجاهل الأمر تماماً لو استطعت !

— لكنى أعتقد أنك ينبغى ألا تفعلى .. ينبغى أن تبذلى كل ما فى وسعك .

— وماذا فى وسعى ؟ لا شىء . تطلبين إلى أن أتزوج من فرونسكى ، وتحسبين أنى لا أفكر فى هذا الأمر ؟ !

وصعد الدم إلى وجهها ، ثم نهضت فتمطت وزفرت زفرة حرى من قلب مثقل ، ثم راحت تذرع المكان ذهاباً وجيئة وهى تستطرد : « إنى أفكر فيه ، وألوم نفسى على تفكيرى فيه ! إن

هذا التفكير قد يفقدنى عقلى . نعم ، يفقدنى عقلى ! .. فكلما فكرت فيه أجدنى لا أستطيع النوم بغير « المورفين » ! .. ولكن دعينا من ذلك ، ولنتكلم فى هدوء . يقولون لى : الطلاق ! .. وأول جواب لى على هذا : أنه لن يمنحنى الطلاق ! إنه الآن خاضع لتأثير الكونتة ليديا إيفانوفنا ! »

انتصبت دوللى فى جلستها ، وأدارت رأسها تتبع « أنا » حيثما راحت ، بوجه يبين فيه الإشفاق والتألم لصديقتها .. ثم قالت فى هدوء ونعومة :

— فى وسعك أن تحاولى على الأقل !

— افرضى أنى حاولت .. فماذا يعنى هذا ؟ يعنى أن أذل نفسى كى أكتب إليه ، أنا التى أكرهه ، مسجلة على نفسى أنى قد أثمت فى حقه ، وأنه نبيل غفور ! .. ثم افرضى أنى حاولت ذلك ، فماذا تكون النتيجة ؟ إما أن أتلقى رفضاً مهيناً ، أو قبولا مذلا ! .. على أننا لو سلمنا جدلا بأنى تلقيت منه رداً بالقبول .. فماذا يكون من أمر ابنى ؟ .. إنهم لن يعطونى أياه . وسينشأ طاوياً قلبه على الاحتقار لى ، مثل أبيه الذى هجرته ! .. أترين ؟ .. إنى أحب « سريوشا » و « فرونسكى » ، بالتساوى فيما أعتقد .. أحب كلاهما أكثر مما أحب نفسى ! .

ثم أقبلت فوقفت فى مواجهة دوللى وقد عقــدت يديها على صدرها ، وأردفت : « هذان هما المخلوقان اللذان أحبهما ، لكن

كل واحد منهما يطرد الآخر من حياتى ! .. ليس فى وسعى أن أحصل عليهما معاً ، وإن كان ذلك كل ما أتمناه . ولما كنت لا أستطيع الحصول عليه ، فليس يهمنى بعد ذلك شىء آخر من شئون دنياى .. لست أعبأ بأى شىء فيها على الإطلاق ، ولكن ما يكون ! لذلك لست أطيق ، ولا أريد ، أن أتحدث فى هـذا الموضوع .. فبربك لا تلومينى ! إنك بقلبك النقى لا تستطيعين أن تفهمى العذاب الذى أقاسيه ! » .. ثم أقبلت فجلست إلى جوار دوللى ، وحدقت فى وجهها ، ثم تناولت يدها قائلة : « فيم تفكرين ماذا ترين فى ؟ لا تحتقرينى ، فلست أستحق الاحتقار .. إنى ، بكل بساطة ، شقية تعسة .. ولئن كانت فى الدنيا امرأة واحدة شقية تعسة فهى أنا ! » .

ثم اجهشت بالبكاء ، وخرجت من غرفة ضيفتها لا تلوى على شىء ! .. وحين وصلت إلى غرفتها تناولت قدحا فقطرت فيه بضع قطرات من دواء كان أهم محتوياته « المورفين » . وبعد أن جرعته جلست ساكنة بعض الوقت ، ثم مضت إلى فراشها وقد تحسنت حالتها النفسية إلى حد ما !

وفى الصباح ، وبرغم احتجاجات أنا وفرونسكى ، استقلت دوللى العربة التى أحضرتها ، عائدة أدراجها إلى ضيعة « ليفين » زوج شقيقتها كيتى ..

— ٢٠ —

● قضى « فرونسكى » و « أنا » الصيف كله وجانباً من الشتاء فى الريف ، يعيشان فى مثل الظروف التى لمستها دوللى خلال زيارتها لهما ، دون أن يتخذا أية خطوة إيجابية فى سبيل الطلاق المنشود ، أو يختلطا بأحد من الناس .. فلما حل الخريف بدآ يسأمان حياة العزلة ويفكران فى تغييرها ، على صورة ما .. وصادف أن حل فى أكتوبر موعد الانتخابات المحلية فى منطقة (كاسنسكى) ، حيث تقع أملاك فرونسكى وأوبلونسكى وليفين وغيرهم ، وكانت الانتخابات المذكورة حدثاً استرعى عناية الجماهير وأحاديثها فى كل مكان ، فتوافد الناس من أجلها من موسكو وبطرسبرج كى يشتركوا فى معمعتها .. فلما فاتح فرونسكى أنا برغبته فى الاشتراك فى المعركة ، لتأييد أحد المرشحين من أصحاب الفضل عليه ، عارضت فى سفره ووقعت بينهما مشادة تركت أثراً سيئاً فى نفسية كليهما . ثم حان موعد رحيله إلى الإقليم الذى يجرى فيه الانتخاب ، فدخل على أنا وهو يتوجس شراً ، ويعد نفسه لمشادة أخرى ، لكنها قابلت نبأ سفره بهدوء غير متوقع ، واكتفت بسؤاله عن موعد عودته ، وهى تبتسم ابتسامة من تزمع فى نفسها أمراً ! .. وتجاهل هو ذلك ، تجنباً للاشتباك فى معركة أخرى ، محاولا أن يقنع نفسه بأن استسلامها ما هـو إلا نتيجة تعقلها ورجوعها إلى رشدها .. فاكتفى بأن قال لها : « أرجو ألا تتضايقى أثناء فترة غيابى ! » ،

فأجابته : « كلا ! لن أتضايق : لقد تلقيت أمس فى البريد طائفة من الكتب الجديدة ، وسأعكف على مطالعتها ! » . وبعد أن تبادلا قبلات الوداع ، خرج فرونسكى وهو يحدث نفسه : « إنى أستطيع التفريط من أجلها فى كل شيء ، ما عدا استقلالى الشخصى ! » .. لكنه لم يشأ الاعتراف لنفسه بأن من أهم العوامل التى أغرته بالمشاركة فى المعركة الانتخابية شعوره بالسأم من حياته فى الريف ، ثم رغبته فى أن يظهر لأنا حرصه على صيانة حقه فى الاستقلال !

وفى اليوم السادس لرحلته ، أقام فرونسكى مأدبة تكريم لمرشحه الذى فاز فى الانتخاب . وبعد أن أكل المدعوون وشربوا وقضوا وقتاً طيباً ، فوجىء الداعى بخادمه الخاص يدخل عليه حاملا خطاباً أحضره رسول خاص من الريف ! وأدرك فرونسكى قبل أن يطلع على الخطاب أنه من أنا ، وأنها تلومه فيه لأنه لم يعد فى نهاية الأيام الخمسة التى حددها لغيبته ! واستنتج أن خطابه الذى أرسله إليها فى اليوم السابق موضحاً فيه ظروف تأخيره لم يصل إليها بعد .

وكان الخطاب كما توقع ، لكن اللهجة التى كتبته بها ضايقته، فقد قالت له : « إن الطفلة « آنى » مريضة جداً ، ويخشى الطبيب على حياتها ، الأمر الذى يكاد يفقدنى عقلى ! وقد انتظرتك أول أمس ، وها أنذا أكتب إليك هذا الخطاب لأعرف أين أنت وماذا تفعل . لقد فكرت فى الذهاب إليك بنفسى ، لكنى خشيت أن

تستاء من ذلك . أرسل إلى رداً كى أعرف ما ينبغى أن أفعل ! » .. وساءل نفسه حائراً : « الطفلة فى خطر ، والأم تفكر فى الحضور؟! الطفلة فى خطر ، وأمها تكتب إلى أبيها بهذه اللهجة العدائية ؟ ! .. أى تناقض هذا ؟ ! » . وأحس – للمرة الأولى – أن كاهله لم يعد يقوى على حمل الأثقال التى يراكمها عليه حب أنا ! لكنه لم يجد مفراً من العودة إليها ، فاستقل أول قطار فى تلك الليلة ، عائداً إليها ، وكأنه عائد إلى سجن !

وكانت « أنا » قد أحست – قبيل رحيل « فرونسكى » ، وعلى أثر المشادة الأولى – أن تكرار المناقشات الحامية بينهما كلما فكر هو فى السفر لن ينتج غير إطفاء شعلة حبه لها ، بدلا من إضرام لهيبها ، فقررت أن تبذل كل ما فى وسعها كى تتمالك نفسها لتتحمل الفراق بجأش ثابت . لكن النظرة الباردة القاسية التى تسلح بها وهو داخل عليها ليودعها قبيل سفره قد جرحتها . وقبل أن يخرج كانت سكينة نفسها التى استنجدت بها قد تزعزعت وانهارت ! .. وحين خلت لنفسها بعد ذلك ، واستعادت ذكرى تلك النظرة التى عبرت عن اعتداده بحقه فى الحرية ، انتهت إلى حيث كانت تنتهى عقب كل أزمة نفسية من هذا النوع : أحست مدى « مذلتها » فى حياتها معه ، وأخذت تحدث نفسها قائلة : « إن له الحق فى أن يذهب وقتما يحلو له ، وحيثما يريد . يذهب ويتركنى ! بل إن له هو كل الحق، وليس لى أنا أى حق ! وما تلك النظرة الباردة التى رمقنى بها إلا

بداية عدم الاكتراث ، الذى هو أول نذر انطفاء الحب ! »

وبرغم يقينها بأن « برودآ » ما من ناحيته بدأ يظهر ويتفاقم ، فإنها لم تكن تملك أن تفعل شيئاً ! لم يكن فى وسعها أن تغير صلتها به . وكما هو الأمر دائماً ، كان الحب والفتنة هما السلاحان الوحيدان اللذان تستطيع بهما أن تحتفظ به . ومن ثم صارت تشغل نفسها بشتى وسائل التسلية خلال النهار ، وتلجأ إلى « المورفين » فى الليل ، كى تخنق الفكرة الرهيبة التى لا تفتأ تراودها : فكرة ما عساه أن يحدث لو أنه كف يوماً عن حبها ، وتحول قلبه عنها ! .. وإزاء خطورة الاحتمال ، استقر عزمها على أن تسعى إلى تطليق زوجها والاقتران به هو ، عند أول فرصة تسنح لذلك !

وقضت الأيام الخمسة بعد رحيله ، وليس ثمة ما يخفف من عذابها غير التهام الكتب التى جاءتها ، كتاباً بعد كتاب ، والخروج للمشى بين المزارع والحقول بصحبة إحدى صديقاتها .. فلما حل اليوم السادس ولم يعد ، شعرت بعجزها المطلق عن طرد الأفكار السوداء من رأسها . ثم حدث أن مرضت الطفلة فجأة ، ولكن انشغالها برعايتها لم يحول أفكارها عن اتجاهها السابق ، ولا سيما أن المرض لم يكن خطيراً . فلما حل المساء بلغ انزعاج « أنا » وقلقها لطول غيبة فرونسكى حداً جعلها تقرر السفر فوراً للحاق به ! لكنها حين أمعنت الفكر فى الأمر انتهت إلى إيثار كتابة ذلك الخطاب الجاف الذى تسلمه فرونسكى خلال مأدبته الانتخابية ! .. ودون

أن تعمد إلى مراجعة الخطاب بعد كتابته أرسلته من فورها مع رسول خاص . وفى الصباح التالى تسلمت رسالته التى برر فيها تأخره ، فأسفت على تعجلها بالكتابة إليه . وخشيت أن يحدجها حين يعود بمثل تلك النظرة الباردة القاسية التى ودعها بها ، ولا سيما حين يعلم أن مرض الطفلة لم يكن خطيراً !

وهنا لم يسع « أنا » إلا أن تعترف لنفسها بأنها غدت حملا على كاهل فرونسكى ، وأن خطابها سيلجئه إلى التخلى عن حريته كارهاً كى يعود إليها ! .. لكنها برغم ذلك لم تملك نفسها من أن تسر لقرب عودته ، وبأنه سيكون إلى جانبها بعد حين ! وكانت جالسة فى غرفة الاستقبال إلى جوار مصباح تقرأ كتاباً جديداً للفيلسوف « تين » ، وتصغى لصفير الريح فى الخارج ، وهى تتوقع وصول العربة التى تقله فى أية لحظة .. وكم من مرة خيل إليها أنها سمعت صوت العجلات ، ثم تبينت خطأها ! وأخيراً سمعت الصوت المنشود ، يتلوه صياح الحوذى وضجيج الخدم فى مدخل الدار ، فنهضت واقفة وقد صعد الدم إلى وجهها . خشيت لحظة اللقاء كما تخشى الخطر الداهم ، لئلا يقابلها بذلك التعبير الذى ينم عن الاستياء ، وتلك النظرة الباردة ! .. سيما وأن الطفلة قد تماثلت للشفاء فى اليومين الأخيرين ! وأحست بحقد على الصغيرة الخبيثة التى بدأت صحتها تتحسن منذ كتبت إلى أبيها .. ثم انتقلت بتفكيرها إليه هو ، إنه هنا ، بلحمه ودمه .. بيديه ، وعينيه !

.. وسمعت صوته ، فنسيت كل شيء وجرت تهبط الدرجات عدواً نحوه ، فرحة مرحبة . وسألها مشفقاً وهو فى أسفل السلم : « كيف حال آنى ؟ » .

– أوه ، إنها فى تحسن ..

– وأنت ؟

فأخذت يده بين يديها وجذبتهما إلى خصرها ، دون أن تحول بصرها عنه .. فقال وقد فهم جوابها : « هذا يسرنى » . ومضى يتفرس فيها ، فى برود : فى شعرها ، وثوبها – الذى أدرك أنها قد ارتدته خصيصاً من أجله ! – كان كل شيء فيها جذاباً ، ولكن كم من مرة نقم على تلك الجاذبية التى تفتنه ؟ ! .. واستقر على وجهه ذلك التعبير الجامد المتحجر الذى طالما خشيته ، فحدثت نفسها : « لا بأس ، يكفى أنه معى . وما دام معى فهو لا يستطيع ، ولا يجرؤ أن يكف عن حبى ! » .

وقضى الاثنان السهرة فى مرح ، وعرفت « أنا » كيف ترضى غروره فمهدت له بأسئلتها السبيل إلى التحدث عن نجاحه الانتخابى ، وحدثته عن كل شيء يهمه أن تتحدث فيه .. لكنها لم تكد تخلو إليه فى موهن الليل ، وتوقن من استردادها زمام السيطرة عليه ، حتى حنت إلى إزالة التأثير السيء لتلك النظرة الباردة التى قابلها بها جزاء على خطابها .. فسألته : « صارحنى القول ، هل ضايقك خطابى ؟ وهل شككت فى صدقه ؟ » : وبمجرد إلقائها السؤال



« لا بأس يكفى أنه معى . وما دام معى فهو لا يستطيع ، ولا يجرؤ أن يكف عن حبى ! .. »

أحست أنه مهما كانت حرارة شعوره نحوها فإنه لم يغفر لها ذلك.. وقد حقق جوابه ظنها ، إذ قال : « نعم ، فقد كان غريب اللهجة.. فى بدايته تتحدثين عن مرض الصغيرة ، وفى نهايته تفكرين فى اللحاق بى ! » .

– كان الأمران صدقاً !

– أوه ، لست أشك فى ذلك !

– بل أنت تشك .. إنك متضايق فيما أرى !

– كلا ! كل ما يضايقنى حقاً أنك تظهرين أحياناً بمظهر غير الراغبة فى الاعتراف بأن هناك واجبات .. ولكن يحسن بنا ألا نتكلم فى هذا الأمر !

– ولم لا نفعل ؟

– إن أموراً ذات أهمية حقيقية قد تلوح فى الأفق أحياناً ! فالآن مثلا ، أرانى مضطراً إلى السفر إلى موسكو لتدبير بيت لنا .. أوه يا أنا ! لم تثورين لأتفه الأمور ؟ ألا تعلمين أنى لا أستطيع العيش من غيرك ؟

– إذا كنت تنوى السفر ، فهذا يعنى أنك قد سئمت هذه الحياة . نعم ، إنك ستتخذ خطة جميع الرجال : تأتى لتقضى يوماً واحداً ثم ترحل من جديد !

– هذه قسوة منك : إنى على استعداد لأن أضحى بحياتى كلها ..

– إذا ذهبت إلى موسكو فسأذهب معك ، لن أبقى هنا ! إما أن نعيش معاً ، وإما أن .. !

– أنت تعلمين أن حياتنا المشتركة هى أمنيتى الوحيدة ، ولكن فى سبيل ذلك ..

– يجب أن نحصل على الطلاق ؟ حسناً ! سأكتب إليه فى هذا الشأن ، فلست أطيق الاستمرار على هذا المنوال . لكنى سأذهب معك إلى موسكو !

– إنك تتكلمين بلهجة التهديد ، فى حين أنى لا أتمنى شيئاً قدر ما أتمنى ألا نفترق قط !

نطق بهذه العبارة وهو يبتسم ، وقد لمعت فى عينيه ، لا نظرة باردة فحسب ، وإنما نظرة الحقد التى تصدر من رجل اضطهد إلى الحد الذى جعله قاسى القلب ! .. وقد لاحظت هى النظرة وفهمت معناها . كانت النظرة تقول لها : « إذا كان الأمر كذلك ، فهى مصيبة فادحة ! » ولم تستطع أنا أن تنسى شعورها فى تلك اللحظة حتى آخر أيامها !

وعلى أثر هذا النقاش كتبت « أنا » إلى زوجها تسأله الطلاق ! وقرب نهاية نوفمبر صحبت فرونسكى إلى موسكو ، حيث ظلت تنتظر كل يوم جواباً من أليكسى ، يتلوه الطلاق .. وفى ظل هذه الأمنية ، اتخذ العشيقان لنفسيهما مسكناً مشتركاً ، عاشا فيه علانية كزوج وزوجة !

الفصل السابع

- ٢١ -

● اقترب موعد وضع « كيتى » مولودها الأول ، فانتقلت الأسرة إلى موسكو لتكون الوالدة ووليدها فى رعاية الأطباء ، وبقية الأهل والصحاب . وهناك فى موسكو التقت كيتى ذات مساء – فى منزل إحدى سيدات المجتمع – بخطيبها السابق فرونسكى .. وكان هذا أول لقاء بينهما بعد أن هجرها فجأة ، متأثراً بسحر أنا كارنينا ! – على أنها مع هذا تمالكت أعصابها ، ولم يبد منها ما ينم عن تأثرها بذكريات حبها القديم ، أو حنقها عليه بسبب فعلته تلك ! .. وذات مساء آخر التقى ليفين فى أحد الأندية بفرونسكى وستيفان ، وجلس الثلاثة يتحدثون ، فأظهر ليفين من التسامح وضبط النفس مع منافسه القديم فى كيتى مثل ما أظهرت هذه معه . وفى أثناء الحديث قال ستيفان محدثاً فرونسكى : « هل تعلم أن ليفين لم ير « أنا » قط حتى الآن ؟ لقد خطر لى أن أصحبه إلى منزلكما لأعرفه بها . هيا بنا نذهب يا ليفين ! » .. فقال فرونسكى متسائلا : « حقاً ؟ أنها سوف ترحب بمعرفتك ؛ وقد كان بودى لو أصحبكما الآن ، لولا اضطرارى إلى البقاء هنا لمنع « ياشفين » من التمادى فى اللعب والخسارة ! » .. وعندئذ تناول ستيفان ذراع ليفين قائلا : « إذن فلنذهب نحن إليها . إنها فى البيت ، أليس كذلك ؟ حسناً ؟

لقد وعدتها منذ زمن أن أقدم ليفين إليها . أين كنت تزمع أن تقضى الأمسية يا ليفين ؟ » .

– لم أكن أقصد مكاناً معيناً ، فلنذهب إذا أردت !

ولكن لم تكد عربة ستيفان تدرج بهما فوق أرض الطريق ، حتى بدأ ليفين يسائل نفسه عما إذا كان قد أحسن صنعاً بقبوله زيارة « أنا » ، وعما قد تراه زوجته فى شأن هذه الزيارة ؟ وكأنما أدرك ستيفان ما يفكر فيه صديقه ، فانتزعه من أفكاره بقوله : « لكم أنا مسرور بأنك ستراها . لقد طالما تمنت دوللى ذلك . وبرغم كون « أنا » أختى فإنى لا أتردد فى القول بأنها امرأة رائعة . لكنك ستراها بنفسك ، وإن يكن ذلك فى ظرف من أسوأ ظروفها . إن موقفها – الآن بصفة خاصة – مؤلم للغاية ! »

– ولم كان ذلك « الآن بصفة خاصة ؟ »

– لأننا نفاوض زوجها هذه الأيام فى شأن الطلاق . وقد وافق عليه ، لكن هناك صعوبات تتعلق بحضانة الطفل . وبسبب هذه الصعوبات لم تنته المفاوضات الدائرة منذ ثلاثة أشهر إلى نتيجة حاسمة حتى الآن ! ومتى حصلت أنا على الطلاق فسوف تتزوج من فرونسكى ، ما أسخف هذه الإجراءات التقليدية التى لا يؤمن بها أحد ! أنها تحول بين الناس وبين ترتيب حياتهم على الوضع الذى يريحهم . على أن موقفها سوف يبرأ من الشوائب بعد الزواج ، بحيث يغدو مثل موقفى ، وموقفك ..

— وما هى الصعوبات التى تعترض تسوية الموقف ؟

— أوه ، إنها قصة طويلة ومملة : فمنذ حضور أنا إلى موسكو قبل ثلاثة أشهر وهى ملازمة دارها فى انتظار الطلاق ، لا تزور أحدا ولا يزورها أحد ، غير زوجتى « دوللى » .. فهى لا تقبل أن يعتبر الناس زياراتهم لها « فضلا » منهم وعطفاً ! وحتى صديقتها الأميرة الحمقاء قد تخلت عنها الآن ، وإن أى امرأة أخرى فى مكانها ما كانت لتجد فى نفسها غنى عن الناس ، لكنك سترى كيف رتبت « أنا » حياتها بحيث تلائم الوضع المؤقت ، وسترى مقدار هدوئها وترفعها !

— لكن معها طفلة فيما سمعت ؛ ولا شك أن العناية بها تشغل كل وقتها ؟

— يبدو أنك تنظر إلى كل امرأة باعتبارها أنثى فقط ، لا يشغلها غير زوجها وأطفالها ؟ كلا ! إنها تنشىء ابنتها تنشئة مثالية فيما أعتقد ، دون أن تثير ضجيجاً حولها . لكن أهم ما يشغلها الآن أنها تؤلف كتاباً للأطفال ! .. أراك تبتسم سخرية ، ولكن دعنى أؤكد لك أنها قرأت الكتاب لى وأعطتنى مسوداته فحملتها إلى الناشر « فوركيوف » — وهو مؤلف فى الوقت نفسه — فشهد بأنه عمل أدبى رائع ! ليس معنى ذلك أنها مؤلفة محترفة ، وإنما هى امرأة ذات قلب ، قبل كل شىء ! .. لكنك ستراها بنفسك .

وعندها الآن فتاة إنجليزية تساعدها وتؤنس وحدتها ، كما أنها تعنى بشئون أسرة الفتاة كلها ..

— تعنى من قبيل البر والعمل الخيرى ! ؟

— لم تنظر إلى كل شىء بهذا الظن السيىء ؟ .. بل إنها تعنى بهم بدافع الحنان الصادر من القلب . إنهم أسرة مدرب إنجليزى للجياد يعمل عند فرونسكى ، وقد أدمن الخمر وأهمل أهله إهمالا قاسياً ، فأشفقت عليهم أنا وأخذت الابنة كى تعيش معها . وستراها الآن بنفسك ..

وكانت العربة التى تقل الرجلين قد بلغت مدخل الدار التى تقيم بها « أنا » فهبطا منها وطرق ستيفان الباب .. فلما فتحه أحد الخدم دخل هذا ، يتبعه ليفين ، دون أن يسأله عما إذا كانت سيدته فى البيت أم لا . وفيما هو يعبر الردهة ساءل ليفين نفسه متوجساً : هل أخطأ بحضوره أم أصاب ؟ وحين صادفته مرآة كبيرة نظر إلى صورته فيها ، فراعه احمرار وجهه .. لكنه أحس عن يقين أنه ليس مخموراً ! ثم تبع صديقه إلى السلم المفروشة ببساط سميك : وفى الطابق العلوى صادفهما خادم آخر انحنى لستيفان فى احترام ، شأن من يعرفه ، فسأله هذا عمن برفقة سيدته .. فأجابه الخادم : « إنه مسيو فوركيوف » .

— وأين هما ؟

— فى غرفة المكتب .

فمضى الرجلان نحوها ، عبر غرفة المائدة ، وحين أشرفا عليها لمح ليفين فى مواجهته ، على جدار الحجرة ، صورة زيتية رائعة ينصب عليها ضوء مصباح قوى معلق فوقها . كانت الصورة لأنا ، رسمها لها فى إيطاليا ، بالحجم الطبيعى ، الرسام « ميكايلوف » .. فنظر ليفين إلى اللوحة ولم يستطع أن يسترد بصره منها ، حتى لقد نسى أين هو ولم يسمع حرفاً مما قيل . لم تكن اللوحة صورة خرساء ، بل كانت تبدو فيها امرأة حية فاتنة ، ذات شعر أسود مجعد ، وذراعين عاريتين ، وكتفين ناصعتين ، وابتسامة تفكير وتأمل على الشفتين .. تنظر إليه فى نعومة واعتزاز ، من عينين خلبتاه وحيرتاه ! وكان الاعتبار الوحيد الذى يكذب كونها امرأة تختلج فيها الحياة ، أنها كانت أجمل وأروع من كل جمال وروعة يمكن أن يكونا لامرأة على قيد الحياة ! .. وأفاق ليفين من ذهوله على صوت قريب منه يخاطبه بقوله : « شرفتنا ! » ولم يكن سوى صوت المرأة بعينها التى كان يتأمل صورتها فى إعجاب ذاهل ، وقد خفت إلى لقائه من وراء « البارافان » الذى يشطر الغرفة إلى شطرين. ورآها ليفين فى ضوء مصباح المكتب الباهت ترتدى ثوبا أزرق قاتماً فى غير الوضع الذى تتخذه فى الصورة ، وبغير التعبير الذى ترتسم فيها على وجهها ، ولكن بالجمال الكامل نفسه الذى صوره الفنان فى لوحته ، نقلا عن الفنان الأعلى الذى أبدع الأصل !

كانت قد نهضت للقائه غير مخفية سرورها برؤيته . ومن اللباقة

الهادئة التى مدت إليه بها يدها الصغيرة الأنيقة ، وقدمت له بها « فوركيوف » ناشر كتابها ، وسكرتيرتها الإنجليزية اليافعة، استطاع ليفين أن يتبين « اتيكيت » سيدة مجتمع من الطراز الرفيع ، طبيعية فى حركاتها ، مالكة لحواسها ! .. وأردفت تكرر مرحبة هذه الكلمات التى اتخذت على شفتيها مغزى خاصاً فى أذنى ليفين : « إنى مغتبطة بزيارتك . لقد عرفتك وأعجبت بك منذ زمن ، سواء خلال صداقتك لأخى ستيفان أو صلتى بزوجتك .. لقد عرفتها فترة وجيزة لكنها تركت فى نفسى مثل أثر الزهرة العطرة ، حتى ليصعب على أن أتصورها توشك أن تغدو أماً ! » .

كانت تتكلم فى يسر وهدوء ، وهى تنقل بصرها بين ضيفها وبين أخيها ، فأحس ليفين أنه قد وقع من نفسها موقعاً حسناً ، بل شعر على الفور بجو من البساطة والبهجة ، وكأنه فى بيته ، بل كأنه عرفها منذ الطفولة ! .. ثم مدت يدها إلى صندوق سجائر صغير على هيئة سلحفاة ، فتناولت منه سيجارة أشعلتها فى غير كلفة ، بينما كان شقيقها يسألها : « كيف حالك اليوم ؟ بماذا تشعرين ؟ » .

— أوه ! لا شىء .. سوى الأعصاب ، كالعادة !

ولمح ستيفان ليفين يلتهم الصورة بعينيه ، فسأله معلقاً : « أليست لوحة ممتازة حقاً ؟ »

— بل إنى لم أر أجمل منها !

وتدخل الناشر فى الحديث قائلا : « إن مطابقتها للأصل أمر

يلفت النظر ! » .. فنقل ليفين بصره من الصورة إلى الأصل ، فأضاء وجه أنا بريق خاص ، حين أحست بعينيه تستقران على محياها ! .. وتشعب الحديث ، ووجد ليفين متعة كبرى فى أن يتحدث وينصت إلى حديث هذه المرأة ، أما هى فكانت تتكلم فى براعة غير متكلفة ، وعدم مبالاة ، غاضة من أهمية آرائها ، مقيمة أكبر الوزن لآراء محدثها ! وانتقل النقاش إلى الاتجاهات الجديدة فى الفن ، فقال ليفين : « إن الفرنسيين يؤثرون العودة إلى المذهب الواقعى ، ويرون فى الصراحة والبعد عن الكذب والنفاق لوناً من الشعر » .. وأعجبت « أنا » بهذا القول ، فأضاء وجهها على الفور بإشراق نورانى ، وأضافت قائلة : « إن هذه النزعة الواقعية تنطبق على الأدب كما تنطبق على الفن » . ثم مثلت لذلك بقصص « زولا » و « دوديه » ، فحدث ليفين نفسه قائلا : « يا لها من امرأة ! » .

ونسى نفسه فلبث يرمق — فى إصرار — وجهها الجميل المعبر ، دون أن يسمع حرفاً مما تقول ! .. وفى أثناء الحديث انحنت على أخيها تسر إليه بشىء ، وقد عكرت وجهها الذى كان صافياً منذ لحظة سحابة مفاجئة . وارتسم فى نظرتها فضول غريب ، وغضب ، وكبرياء .. لكن ذلك كله لم يدم غير لحظة ، أرخت على أثرها أجفانها ، كأنما تجهد نفسها فى تذكر شىء ، ثم قالت معتذرة : « لكن هذا لا يهم أحداً منكم » ، ثم استدارت إلى سكرتيرتها قائلة بالإنجليزية : «هل لك أن تأمرى بإعداد الشاى فى حجرة الاستقبال؟»

فنهضت الفتاة ومضت .. وإذ ذاك سأل ستيفان شقيقته : « كيف تسير الفتاة فى دروسها وامتحاناتها ؟ » ، فأجابته : « على نحو رائع ! .. إنها فتاة موهوبة وشخصية عذبة » .

— سوف ينتهى بك الأمر إلى أن تحبيها أكثر من حبك لابنتك!

— ليس فى الحب درجات ، تقاس بالأكثر والأقل ، وإنما فيه ألوان مختلفة .. والصواب أنى أحب ابنتى لوناً من الحب ، وأحب هذه الفتاة لوناً آخر منه !

ونظرت مرة أخرى إلى ليفين ، وقالت له ابتسامتها ونظرتها أنها إنما تدلى بهذه الآراء من أجله هو ، كيما تظفر بتقديره لذكائها ، وقد وثقت من أول وهلة بأن كلامنهما يفهم الآخر ويعجب به ، كل الفهم ، وكل الإعجاب ! .. ورأى ليفين فى « أنا » شخصية جذابة تمتاز — إلى جانب جمالها وذكائها وجلالها — بفضيلة أخرى هى الصدق ! فإنها خلال حديثها لم تحرص على أن تخفى عنه مرارة موقفها . وفى مناسبة ما تنهدت ، واتخذ وجهها طابعاً صارماً ، جعلها تبدو كأنها تحولت إلى تمثال من حجر ! والعجيب أنها بدت عند ذلك أفتن جمالا وأشد جاذبية ، رغم أن ذلك التعبير الجديد كان مخالفاً كل المخالفة للتعبير الأول المشرق بالسعادة ، والخالق للسعادة ، الذى سجله الرسام فى صورتها ! .. ولم يملك ليفين نفسه ، وهو ينقل بصره خلسة بينها وبين الصورة ، من أن يحس فى أعماقه عطفاً عليها ورثاء لحالها ، لم يكن يحسب نفسه قديراً على الشعور

بهما نحو امرأة غريبة عنه ! .. وحين سألت ضيفيها أن يسبقاها إلى الصالون ، ريثما تخلو إلى شقيقها بضع دقائق ، ساءل ليفين نفسه فى اهتمام : « لا بد أنهما يتحدثان عن الطلاق ، وعن فرونسكى وكيف يقضى أوقاته فى النادى ، وربما عنى أنا ؟ ! » .. وبلغ من انشغاله بما عساها أن تحدث فيه أخاها أنه لم يكد يسمع حرفاً مما قاله جليسه الناشر فى شأن القصة التى ألفتها « أنا » للأطفال !

وفى أثناء تناول الشاى استؤنف بين الأربعة ما انقطع من حديث شائق ، فى شتى الموضوعات . وكان ليفين يتتبع بذهنه الأحاديث الجارية دون أن يكف لحظة عن تأمل جمال أنا والإعجاب بذكائها ، وثقافتها ، وصراحتها ، وعمق شعورها .. فكان يصغى ، ويتكلم ، ويفكر فى حياتها الخاصة ، محاولا أن يصور لنفسه مشاعرها ! .. وبرغم أنه كان قد قسا فى حكمه عليها قبل أن يعرفها ، فإنه وجد نفسه الآن يبرر مسلكها وتصرفاتها بسلسلة من الحجج المنطقية الغريبة ، بل شعر بأنه يرثى لحالها ، مشفقاً من أن يكون فرونسكى عاجزاً عن فهم نفسيتها على حقيقتها ! .. وحين نهض ستيفان لينصرف ، فى الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء ، خيل إلى ليفين أنه لم يقض مع أنا غير فترة قصيرة ، لكنه اضطر إلى أن ينهض بدوره ، آسفاً ! .. وحين مد يده إلى أنا مصافحاً ، قالت له وهى تحتفظ بيده فى راحتها برهة ، وترمقه بنظرة ظافرة : « كم أنا سعيدة بتعارفنا » .. ثم أطلقت يده وأرخت أجفانها فى نصف

إغماضة ، وهى تستطرد : « أبلغ زوجتك أننى أشد حباً لها من أى وقت مضى ، وأنها إذا شعرت بأنها لا تستطيع أن تغفر لى موقفى ، فعندئذ أكون أنا بدورى راغبة فى ألا تغفره لى .. فإنه لكى يغفر الإنسان ينبغى أن يمر بالظروف التى مررت بها ، وأنا أسأل الله أن يجنبها ذلك ! » .

فأجابها ليفين وقد صعد الدم إلى وجهه : « أعدك بأن أنقل إليها رسالتك ! » .

- ٢٢ -

● خرج ليفين مع ستيفان من عند أنا وهو يقول لنفسه : « يا لها من امرأة رائعة ، عذبة شقية ! » .. وكأنما لاحظ عليه ستيفان علائم الهزيمة أمام سحر شقيقته ، فهمس إليه : « ألم أقل لك ؟ » .. فأجابه كالحالم : « نعم ، إنها امرأة خارقة للمألوف ! .. إنه ليس ذكاؤها الذى أعجبنى ، وإنما ذلك العمق العجيب الذى تتغلغل إليه مشاعرها . لشد ما أرثى لها ! » . ثم قال له ستيفان مودعاً وهو يهبط من العربة : « عسى أن تستقر الأوضاع نهائياً فى القريب . ولعل هذا يجعلك لا تقسو فى حكمك على الناس فى المستقبل ! » .. ثم انتقل إلى عربة أخرى ، بينما انطلقت العربة الأولى بليفين وهو ما يزال يفكر فى أنا ، ويستعيد فى ذهنه كل عبارة تخللت حديثهما ، وكل تعبير قرأه على وجهها .. بل أخذ يضع نفسه مكانها ، فيعطف عليها ، ويرثى لشقائها ! .. وحين بلغ البيت ، ألفى ليفين زوجته

مكتئبة ، وفى حالة نفسية سيئة . وعلم منها أن شقيقتيها كانتا تقضيان السهرة عندها ، وأنهما انتظرتا طويلا حضوره ، وأخيراً انصرفتا وتركتاها وحدها . ثم سألته وهى تسدد بصرها إلى عينيه ، اللتين بدت فيهما إشراقة مريبة : « ما الذى أخرك ؟ ماذا كنت تفعل طيلة السهرة ؟ » .

لكنها لم تطل فى عتابها له ، كى تشجعه على الإفضاء إليها بكل ما عنده .. بل لقد قوت من عزيمته على المصارحة ، بابتسامة عذبة مسالمة ، أوقعته فى الشرك ! .. فحدثها أولا عن مقابلته لفرونسكى وما تبادلاه من أحاديث بددت جو النفور الذى كان بينهما . وأفاض فى سرد الموضوعات التى تكلما فيها ، حتى سألت هى : « وأين ذهبتم بعد انصرافكم من النادى ؟ » ، فأجابها : « ألح علىّ ستيفان فى أن أصحبه فى زيارة لأخته أنا كارنينا » . وتورد وجه ليفين وهو يقول ذلك ، وأحس أنه أخطأ فى ذهابه إلى هناك ! .. أما كيتى فقد اتسعت حدقتاها ولمعتا ، لدى سماعها اسم أنا ، لكنها تمالكت نفسها بصعوبة ، وأفلحت فى إخفاء انفعالها عن زوجها ، بينما استطرد هو : « كنت واثقاً من أنك لن تغضبى لذهابى إلى هناك ! وقد ذهبت إجابة لرغبة ملحة من ستيفان ، كما رغبت « دوللى » فى ذلك .. إن « أنا » امرأة طيبة ، عذبة جداً ، ولكنها كذلك تعسة جداً ! » .. ومضى يحدثها عنها وعن أحوالها ، والرسالة التى كلفته بأن يبلغها إليها .. فلما فرغ من كلامه قالت معلقة فى

إيجاز : « نعم ، إنها بلا شك تستحق أن يرثى لحالها ! »

.. وإذ اطمأن ليفين إلى هدوء لهجتها ، مضى إلى مخدعه ليرتدى ثياب النوم . فلما عاد إلى زوجته وجدها فى مقعدها حيث تركها ، وما كاد يقترب منها حتى نظرت إليه لحظة ، ثم .. أجهشت بالبكاء ! وبغت هو ، فسألها : « ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ » ، فقالت : « إنك قد أحببت تلك المرأة البغيضة . لقد سحرتك ! أرى ذلك فى عينيك ، نعم ، نعم ! .. وماذا تنتظر أن تكون النتيجة . لقد شربت فى النادى ، وأفرطت فى الشراب واللعب ، ثم ذهبت إليها ، هى من دون الناس جميعاً ! .. كلا ، ينبغى أن نسافر .. سأسافر غداً ! » .. ومضى وقت طويل قبل أن يستطيع ليفين تهدئة ثائرة زوجته ، معترفاً لها بأن إشفاقه على المرأة المنبوذة – بتأثير الخمر التى شربها – كان أقوى مما ينبغى ، فوقع تحت تأثير سحرها اللعين .. ثم وعد زوجته بأن يتجنب رؤية « أنا » فى المستقبل. مقراً فى إخلاص بأن حياة الدعة والفراغ والطعام والشراب ، التى يحياها منذ هبط موسكو ، قد بدأت تصيب أخلاقه بالانحلال ! .. ولبث الزوجان يسمران حتى الساعة الثالثة من الصباح ، وعندئذ فقط كانا قد تصالحا تماماً واستردا صفاء البال الذى يسمح لهما بالنعاس..

. وفى اليوم التالى وضعت كيتى مولودها المنتظر .. وكان ذكراً !

• • •

● لبثت أنا بعد انصراف ليفين وشقيقها تذرع الحجرة ذهاباً وجيئة ، مستغرقة فى التفكير ! .. لقد بذلت أقصى ما فى وسعها طيلة الأمسية – دون وعى – كى توقظ فى ليفين عاطفة الحب ، مثلما ألفت أن تفعل مع كل الرجال فى المدة الأخيرة ! .. وهى تعلم أنها قد بلغت غايتها ، بقدر ما يسمح المجال فى جلسة واحدة ، ومع رجل متزوج ، حى الضمير ! .. والواقع أنها قد أعجبت به إلى أقصى حد ، وبرغم الفارق الصارخ – من وجهة نظر الرجال – بينه وبين فرونسكى ، فإنها – كامرأة – رأت فى الاثنين شيئاً مشتركاً غامضاً ، هو الذى جعل كيتى تستطيع أن تحب كليهما !.. ومع ذلك فإنه لم يكد يخرج من دارها حتى كفت عن التفكير فيه ، ولم يبق يشغلها غير خاطر واحد ملح ، طفق يهاجمها فى شتى الصور ، وأبى أن يبرح ذهنها ، فأخذت تحدث نفسها : « إذا كان لى مثل هذا التأثير القوى على الرجال جميعاً ، وعلى هذا الرجل بالذات ، الذى يحب بيته وزوجته ، فما علة فتور فرونسكى معى ؟ أنا أعلم أنه يحبنى ، لكن شيئاً ما قد بدأ يباعد بيننا بالتدريج ! » وإذ سمعت جرس الباب يدق ، إيذاناً بقدومه ، جففت دموعها مسرعة وفتحت كتاباً ، متظاهرة بالانهماك فى القراءة . إنها لا تريده أن يقف على لوعتها ويأسها ، ورثائها لحالها ! قد ترثى هى لنفسها ، ولكن لا ينبغى أن يرثى هو لها ! .. وأقبل نحوها بادى الانشراح ، يقول :

– أرى أنك لا تعانين سأماً .. ما أفظع المقامرة !

– كلا ، لم أحس سأماً ، فقد تعلمت منذ زمن طويل ألا أفعل هذا .. فضلا عن أن ستيفان وليفين كانا هنا !

– أعلم ذلك . وهل أعجبك ليفين ؟

– جداً . . إنهما قد انصرفا منذ قليل . ماذا كان « ياشفين » يفعل ؟

– ربح سبعة عشر ألفا ، فأبعدته عن المائدة ، وأركبته العربة إلى بيته .. لكنه عاد ثانية ، وهو الآن يخسر ! ؟

– إذن فلماذا بقيت ؟ إنك قد ذكرت لستيفان أنك باق لتحول بين ياشفين والخسارة ، وها أنت ذا تتركه يخسر ! ؟

فبدا على وجه فرونسكى طابع البرود والتأهب للشجار ، وقال : « أولا أنا لم أكلف ستيفان أن يحمل إليك أية رسالة . وثانياً أنا لا أكذب أبداً ، ولكن الشىء الجوهرى فى الموضوع أنى أردت أن أبقى ، وقد بقيت .. فلم كل هذا يا أنا ؟ » . وبدا متجهماً وهو يقول ذلك .. وبعد لحظة صمت اقترب منها وفتح راحته ، آملا أن توسد يدها إياها ! وسرتها هذه الدعوة إلى الحنان ، لكن قوة شريرة خفية حالت بينها وبين الاستسلام لعاطفتها ، كما لو كانت قوانين الحرب تمنعها من التسليم والإذعان .. فعادت تضرم النار قائلة : « طبعاً ، أردت أن تبقى ، وبقيت – فإنك تفعل كل ما تشتهى ! – ولكن ما غرضك من قول ذلك لى ؟ هل ينازعك

أحد حقوقك ، أو يناقشك فيها ؟ » .. فطوى يديه واستدار ، وقد اكتسى محياه بطابع العناد ، وإذا ذاك قالت له وقد اهتدت فجأة إلى التسمية الصحيحة لتعبير وجهه الذى يثيرها : « الأمر بالنسبة لك أمر عناد ! .. مجرد عناد ، ورغبة فى أن تكون لك دائماً الكلمة العليا ، أما أنا .. آه لو علمت ما أقاسى حين أشعر — كما أفعل الآن — بأنك تقف منى موقفاً عدائياً ! .. آه .. لو علمت كيف أحس أنى على شفا هاوية ، وكيف أخاف ساعتئذ من نفسى ! » .. ثم استدارت وهى تحاول إخفاء نشيجها ، فقال وقد أفزعه مظهرها البائس ، فانحنى على يدها وقبلها : « ما هذا الذى تقولين ؟ وفيم كل ذلك ؟ هل رأيتنى أنشد اللهو خارج البيت ؟ ألست اتجنب مجتمعات النساء ؟ »

— نعم ، ولكن هل هذا كل شىء ؟

— بالله خبرينى ماذا ينبغى أن أفعل كى أمنحك سكينة النفس ؟ أنا على استعداد لأن أفعل أى شىء فى سبيل سعادتك ! .. وهل هناك شىء لا أصنعه كى أنقذك من حيرتك ويأسك ، أياً كان مظهرهما ؟ أنا ، بربك ..

— لا تنزعج ، لست أدرى أهى حياة العزلة التى تسبب لى هذه الثورات ، أم هى أعصابى .. ولكن فلنكف عن الكلام فى هذا الموضوع . حدثنى ، ما أنباء السباق ! ؟

فأمر الخادم بإعداد العشاء ، ثم بدأ يروى لها أنباء السباق . لكن

« أنا » قرأت فى عينيه اللتين إزداد فتورهما لحظة بعد أخرى ، كما تبينت فى لهجته ، أنه لم يغفر لها انتصارها عليه ، على النحو الذى سلف .. وأن شعور العناد الذى حاولت مكافحته قد استرد سيطرته على نفسه ! لقد غدا معها أشد برودا مما كان ، كأنما ندم على استسلامه ! .. أما هى فتذكرت كلماتها له : « أحس أنى على شفا هاوية ، وأنى خائفة من نفسى ! » .. وأدركت أنها قد لجأت إلى سلاح خطير ، وأنها لن تستطيع استخدامه مرة ثانية ! .. كما أدركت أنه إلى جانب الحب الذى يربطهما فقد نشب بينهما صراع شرير رهيب يتعذر عليها اقتلاعه من قلبه ، بل ومن قلبها هى نفسها !

— ٢٣ —

● جد ما استدعى سفر ستيفان إلى بطرسبرج لبعض شئونه ، فطلبت إليه « أنا » أن يتصل بزوجها « أليكسى » ويحصل منه على رد قاطع بصدد موضوع الطلاق ! .. وفى مكتب أليكسى جلس ستيفان يصغى إلى تقرير محدثه عن أسباب تدهور الحالة المالية فى روسيا ، فلما فرغ من تقريره ، بادره ستيفان قائلا : « هناك أمر أود أن نتكلم فيه الآن ، وأنت تعلم طبعاً ما هو ! » .. فتغير وجه أليكسى تغيراً كلياً ، وغاض منه كل أثر للحياة ، وبدا مرهقاً ، ميتاً ! .. ثم أجاب وهو يتململ فى مقعده ويثبت نظارته على أنفه : « ما الذى تريده منى بالضبط ؟ » .

— تسوية نهائية يا أليكسى ، تسوية حاسمة للموقف . إنى أناشدك ، لا كسياسى ، بل كإنسان ، وإنسان طيب القلب ، متدين . أنك ينبغى أن تأخذك الشفقة عليها !

— على أية صورة ؟

— لو أنك رأيتها كما رأيتها أنا — الذى قضيت الشتاء كله معها — لأشفقت عليها .. إن موقفها فظيع ، لا يحتمل !

— كنت أعتقد أنها قد حصلت على كل ما تمنته !

— أواه يا أليكسى ، بربك لا تدعنا ندخل فى مهاترات . إن ما فات قد فات ، ولندع الماضى فى مرقده ونواجه الحاضر . أنت تعلم أن ما تريده هى وتنتظره هو : الطلاق !

— لكنى أعتقد أن « أنا » ترفض الطلاق ، إذا اشترطت فيه أن أحتفظ بابنى . لقد كان هذا جوابى منذ البداية ، وافترضت أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد . بل إنى أعتبرها منتهية !

— بحق السماء لا تثر أو تنفعل ، ودعنا نتناقش فى هدوء . المسألة لم تنته . وإذا سمحت لى أن أذكرك بما حدث فقد كان على هذه الصورة : عندما افترقتما كنت على استعداد لأن تمنحها كل شىء : الحرية ، بل الطلاق إذا رغبت . وقد قدرت لك هى هذا الصنيع ، إلى حد أنها وقد أحست لأول وهلة بمبلغ الخطأ الذى ارتكبته فى حقك ، لم تتدبر الأمر — ولم تكن لتستطيع وقتئذ أن تتدبره ! — فتركت كل شىء ، نبذت كل شىء .. لكن التجربة ،

والزمن ، أثبتا أن موقفها لا يحتمل ، بل إنه مستحيل !

— إن حياة « أنا » لم تعد تهمنى فى شىء !

— اسمح لى ألا أصدقك . إن موقفها لا يحتمل بالنسبة لها ، ولا فائدة منه لأى شخص على الإطلاق . لعلك تقول إنها قد استحقته ! إنها تعلم ذلك ، ولذا فهى لا تطلب منك شيئاً . بل تقول بصراحة إنها لا تجرؤ على أن تسألك طلباً ! .. لكنى أنا ، بل كلنا نحن أقرباءها وأصدقاءها ، نرجو بل نتوسل إليك ! .. لم ينبغى عليها أن تتألم ؟ من هناك أفضل منها ؟

— يبدو أنك تبغى أن تضعنى فى موضع الطرف المذنب !

— أوه ، كلا ، أبداً .. أرجو منك أن تفهمنى . كل ما أريد أن أقوله إن موقفها بات من العسير تحمله ، وفى وسعك أنت وحدك أن تحل هذه المشكلة ، ولن يضيرك ذلك فى شىء . وفى وسعى أن أيسر لك الأمور بحيث لا تتكلف أى عناء . لا تنس أنك وعدت !

— وعدت فيما مضى .. وكنت أفترض أن مسألة حضانة ابنى قد حسمت الأمر . ثم أنى كنت آمل أن تكون « أنا » من الكرم بحيث ..

— إنها تدع الأمر لكرمك أنت . إنها ترجو ، بل تتوسل إليك أن تفعل من أجلها شيئاً واحداً : أن تنتزعها من المأزق الذى هى فيه الآن . إنها لا تطالب حتى بحضانة ابنها ! .. أليكسى ، أنت رجل طيب الخلق . فلتضع نفسك موضعها لحظة فقط . إن

مسألة الطلاق بالنسبة لها فى موقفها الحالى لهى مسألة حياة أو موت !.. ولو كنت لم تعدها فيما مضى فربما كانت قد استطاعت أن توطن نفسها على هذا الوضع .. أن تقضى حياتها فى الريف .. لكنك وعدت بمنحها الطلاق ، وقد كتبت هى إليك ثم سافرت إلى موسكو .. وها هى ذى قد انقضت عليها فى موسكو ستة أشهر ، فى جو تمزقها فيه شر ممزق كل مقابلة مع شخص كانت تعرفه فى الماضى ! وهى تمنى نفسها كل يوم بتسلم ردك ! .. إن هذا بمثابة إبقاء مذنب محكوم عليه بالإعدام لمدة ستة أشهر والحبل معلق على رقبته ، تارة يمنونه بالعفو ، وتارة يهددونه بالموت ! .. أشفق عليها يا أليكسى ، وأنا أتكفل بإعداد كل شىء .

— ليس هذا موضع الخلاف .. ولكن لعلى قد وعدت بما لم يكن من حقى أن أعد به !

— إذن فأنت تنكص عن وعدك ؟

— إنى لم أضن عليها يوماً بكل ما فى وسعى ، لكنى أريد مهلة أتدبر خلالها ما يمكن تنفيذه من وعدى !

فصاح ستيفان وهو يقفز من مقعده : « كلا يا أليكسى ؟ لست أصدق أنك أنت الذى تتكلم ! .. كفاها ما هى فيه من شقاء لا يعرفه غير من كابده . ولا يمكن أن تأبى عليها فى حالة كهذه .. » .

— سأمنحها القدر الذى يتيسر الوفاء به من وعدى ! هذا كل ما أستطيع أن أعد به الآن . إنك تتكلم بمنطق المفكر الحر ، لكنى

بصفتى رجلا مؤمنا لا أستطيع — فى أمر على هذه الدرجة من الخطورة — أن أسلك مسلكاً منافياً لتعاليم دينى !

— لكن الكنيسة ذاتها تسمح بالطلاق ، ونحن نرى ..

— إنها تسمح بالطلاق ، ولكن ليس بالمعنى الذى ..

— أليكسى ، لست أفهمك اليوم ! إنك تناقض نفسك : ألم تكن أنت الذى غفرت « لأنا » كل شىء ، وأبديت استعدادك لبذل أية تضحية ترضى بها التعاليم المسيحية ؟ .. بل أذكر أنك تمثلت بالقول المأثور : « من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الأيسر أيضاً ! » .

— كفى .. كفى !

ونهض أليكسى على قدميه ثائراً ، وقد ابيض وجهه حتى صار كوجوه الأموات ، واختلج فكاه فى عصبية ، وهو يردد القول :

— أرجو أن تنسى هذا الموضوع ، ولا تحدثنى فيه !

— أوه ! اغفر لى . اغفر لى إذا كنت قد جرحتك ، لكنى بصفتى رسولا أمينا قد أديت الرسالة التى عهد بها إلى !

ثم مد إليه يده وهو يبتسم ابتسامة حيرى ، فأعطاه أليكسى يده ، وتردد قليلا ، ثم قال : « ينبغى أن أفكر فى الأمر فى روية ، وأنشد التوفيق فى صدده . وسوف أعطيك ردى النهائى بعد غد ! » .

- ٢٤ -

• شعر كل من فرونسكى وأنا فى مستهل الصيف بأن الحياة فى موسكو لا تطاق ، بسبب الحر الشديد والغبار الذى يملأ الجو . لكنهما لم يغادراها مع ذلك عائدين إلى الريف ، رغم تضايقهما منها وحنينهما إليه ، لا لشىء إلا لأن الوفاق بينهما كان قد تصدع فى الأيام الأخيرة ! .. ولم يكن للخلاف بينهما — والانفعالات العصبية — أى سبب خارجى فى الواقع ، ومع ذلك فإن كل جهودهما للوصول إلى تفاهم لم تفلح إلا فى زيادة شقة الخلاف اتساعاً وحدة ! .. وكان منشأ النزاع الحقيقى «فكرة» داخلية تسلطت على ذهن «أنا» وأوحت إليها بأن فرونسكى يستشعر الأسف والندم على توريط نفسه من أجلها فى هذا المأزق الذى تزيده هى كل يوم حرجاً ، بدلا من محاولة التخفيف من عبئه !

وهكذا أضمر كلاهما لصاحبه الحقد والضغينة ، اقتناعاً منه بأن صاحبه وحده هو المخطىء ! .. ففى نظر «أنا» كان كيان فرونسكى بأكمله — بعاداته ، وآرائه ، ورغباته ، وطبائعه النفسية والجسدية — يتركز فى شىء واحد : هو حبه للنساء ! وكانت «أنا» تبغى أن يركز هذا الحب كله فى شخصها وحدها ! أما وقد تضاءل حبه لها ، فيما تحس ، فلا شك فى أنه قد نقل قدراً منه إلى امرأة أخرى ، أو نساء أخريات ! ومن هنا بدأت تغار عليه ، لا من امرأة بعينها ، بل من كل امرأة غيرها ! .. وإذ لم تجد هدفاً تصب

عليه غيرتها ، راحت تبحث عن هدف ! .. فكانت حيناً تغار عليه من أولئك النسوة الوضيعات اللواتى كان على صلة بهن من قبلها .. وحيناً تنقل غيرتها إلى نساء المجتمع الرفيع اللواتى قد يلتقى بهن .. وحيناً ثالثاً توجه هذه الغيرة إلى هدف مغاير : إلى الفتاة الوهمية التى قد يكون وقع فى هواها وحلم بالزواج منها ! .. وكان هذا اللون الأخير من ألوان الغيرة أشدها جميعاً إيلاماً لأنا ، وتعذيباً لها .. سيما بعد أن صرح فرونسكى لها — فى هفوة لسان — بأن أمه تجهل ميوله ، إلى الحد الذى جعلها تجترئ على محاولة إقناعه بالزواج من أميرة شابة حسناء تدعى «سوروكين !» .. وبتأثير غيرتها عليه ، بدأت «أنا» تتحامل عليه لكل صغيرة وكبيرة ، وتجد فى كل منغص لها سبباً لتوجيه اللوم إليه بصدده : فهو المسئول عن هذا القلق القاتل الذى تعانيه فى انتظار حصولها على الطلاق ! .. وهو المسئول عن تردد أليكسى ومماطلته فى إجابتها إلى طلبها ! .. وهو المسئول عن وحدتها وحياتها الموحشة فى موسكو ! .. هو المسئول عن كل ذلك وغيره ، لأنه لو أحبها كما ينبغى لأحس معها حرارة موقفها ، ولأنقذها منه ! وأخيراً فهو المسئول وحده عن انفصالها الدائم عن ابنها الحبيب ، وحرمانها الأبدى منه ! .. وحتى لحظات الحب والحنان النادرة التى كانت تتخلل حياتهما من حين لآخر ، لم تكن لتهدئ من ثائرتها ، فقد صارت ترى الآن فى حنانه ظلا من المرح والثقة بالنفس ، يثيرها بدلا من أن يهدئها !

وذات يوم ، جلست « أنا » ساعة الغسق وحدها ، تنتظر أوبة فرونسكى من مأدبة غداء دعى إليها مع فريق من العزاب . وعادت بها الذاكرة إلى مشاجرة الأمس الأخيرة بينهما ، فنهضت تذرع الحجرة ذاهبة آيبة ، وتسترجع أدق تفصيلات النزاع ، وكيف بدأ بأمر تافه للغاية : بمناقشة حول العلوم التى ينبغى أن تدرسها تلميذتها الإنجليزية ، فإذا النقاش بينهما يتطور إلى حد يستفز « أنا » فتقول له : « لست أنتظر منك أن تفهمنى وتفهم مشاعرى كما ينبغى أن يفعل أى شخص يحبنى ، لكنى أنتظر منك على الأقل أن تراعى أبسط مقتضيات الذوق واللياقة ! » .. واحمر وجه فرونسكى انفعالا ، وأجابها بلهجة من يتعمد أن يجرحها : « لست أعبأ بتعلقك بهذه الفتاة ، لكنى أرى فيه فى الواقع شذوذاً لا شك فيه ! » .. وأثارتها هذه القسوة التى بدد بها العالم الوهمى الذى شيدته لنفسها بمجهودها المضنى كى تستعين به على تحمل حياتها المرة .. والظلم البشع الذى انطوى عليه اتهامه إياها بالشذوذ، والتكلف .. فقذفت فى وجهه بهذه العبارة الجافة ، وهى تغادر الغرفة : « يؤسفنى أنك ترى شذوذاً فى كل شىء يخرج عن الأمور المادية والمبتذلة التى تفهمها ! » .

وحين عاد فى المساء ، لم يشر أحدهما بكلمة إلى تلك المشادة ، وإن أحس كلاهما أن النزاع لم ينته إلى تسوية تامة ! .. وها هو ذا فرونسكى اليوم قد قضى النهار كله فى الخارج ، فأحست

« أنا » بمزيد من الوحشة والتعاسة بسبب تعكر الجو بينهما ، وأرادت أن تنسى كل شىء وتصفح عنه وتصالحه .. بل أرادت أن تلقى اللوم كله على نفسها وتبرر موقفه هو ، فحدثت نفسها قائلة : « أنا التى أستحق اللوم ، فقد غدوت سريعة الغضب ، شديدة الغيرة إلى درجة الجنون .. سوف أسوى الأمر معه ، ثم نسافر إلى الريف ، وهناك أجد سكينة النفس ! » .

.. لكنها فى هذه اللحظة ذكرت اتهامه إياها « بالشذوذ ! » ، فلم تحنقها الكلمة فى ذاتها بقدر ما أحنقتها اللهجة التى قالها بها ، قاصداً ولا شك أن يجرحها ! وعادت تحدث نفسها : « إنى أعرف ماذا قصد : قصد أن يقول إننى لا أحب ابنتى ، فى الوقت الذى فيه أحب فتاة غريبة عنى . وهذا ما نعته بالشذوذ .. ولكن ماذا يفهم هو من حب الوالدين للأطفال ، وحبى لسريوشا مثلا ، الذى ضحيت به من أجله ؟ .. ثم تلك الرغبة منه فى جرح إحساسى ، هل يمكن أن يكون الدافع إليها غير حبه لامرأة أخرى ؟ لابد أن الأمر كذلك ! » .. لكنها عادت فانساقت مع خواطرها فى تلك الدائرة المفرغة التى خرجت منها لتدخل فيها من جديد ، فعادت مرة أخرى إلى البداية : « إنه لم يعودنى أن يكذب ، وهو صادق وأمين ، ومولع بى .. وأنا مولعة به .. ولن تمضى أيام حتى نحصل على الطلاق ، فماذا أبغى أكثر من ذلك ؟ أبغى سكينة النفس ، والثقة به ، وسوف ألقى اللوم على نفسى . نعم ، حين يأتى الآن

سأقول له إنى كنت مخطئة — ولو أنى لم أكن مخطئة فى الواقع ! — وغداً نسافر إلى الريف ! » .

ولكى تنجو من نفسها ومن مواصلة التفكير فى الأمر ، وتتغلب على الانفعال الذى بدأ يعاودها ، دقت الجرس للخادم .. ثم أمرت بإحضار حقائب السفر كى تضع فيها متاعها ، تأهباً للرحيل !

– ٢٥ –

● اتفقت أنا وفرونسكى على السفر يوم الاثنين أو الثلاثاء . وفى الصباح التالى نهضت « أنا » مبكرة لتواصل إعداد الحقائب . وفيما هى منحنية على حقيبة مفتوحة تخرج منها بعض الثياب ، دخل عليها فرونسكى وقد ارتدى ثياب الخروج — قبل موعده المألوف — وابتدرها قائلا : « أنا ذاهب لأرى أمى وأتفق معها على طريقـة إرسال النقود إلى ، وسوف أكون على استعداد للسفر غداً » . وبرغم أن « أنا » كانت فى حالة من الانشراح والصفاء ، فإن فكرة زيارته لأمه أورثتها شيئاً من الضيق ، فأجابته قائلة : « كلا ! لن أتمكن من إعداد كل شىء للسفر غداً .. » ، ثم صمتت لحظـة ، وأردفت : « ولكن افعل ما بدا لك . والآن اذهب إلى حجرة الطعام وسألحق بك توآ ! » .

وفيما هو يأكل شريحة من اللحم البارد لحقت به ، وجلسـت بجانبه لتتناول قدحها المفضل من القهوة .. ثم استهلت الحديث قائلة : « إنك لا تستطيع أن تصدق كيف غدت هذه الحجرات

بغيضة إلى نفسى ، فليس أبشع من هذه الزخارف العتيقة التى لا تحمل طابعاً ذاتياً ، ولا تعبر عن نزعة خاصة : هذه الستائر ، وساعات الحائط ، وأدهى من ذلك وأمر : ورق الجدران ! .. إنـها كلها أشبه بكابوس ! وإنى لأتطلع إلى دارنا فى الريف كما أتطلع إلى الجنة الموعودة .. آه ، وعلى فكرة هل تزمع إرسـال العربة الأخرى اليوم ؟ » .

— كلا ، بل إنها ستلحق بنا بعد سفرنا . ماذا تبغين منها ؟

— أريد أن أذهب إلى الخياطة « ويلسون » لإصلاح بعض الثياب . إذن فأنت تعتزم السفر حقاً ؟

— نعم ، غداً .. بغير إبطاء !

وفى أثناء ذلك أقبل خادم يطلب من سيده التوقيع على إيصال بتسلم برقية من بطرسبرج ، فأجابه فرونسكى فى لهجة من يبغى إخفاء أمر عن أنا : « لقد تركت الإيصال فى حجرة المكتب » .. فسألته « أنا » عقب انصراف الخادم : « ممن هذه البرقية » ؟

— من ستيفان ..

— ولـمـاذا لم ترها لى ؟ أى سر يمكن إخفـاؤه بين ستيفان وبينى ؟

وإذ ذاك نادى فرونسكى الخادم وأمره بإحضار البرقية من حجرة المكتب ، ثم التفت إلى « أنا » قائلا : « لم أرها لك لأنه ليس فيها جديد ، سوى أنه يأمل الحصول على جواب حاسم فى

خلال يومين .. وهاك هى على أى حال ، فاقرئيها بنفسك ! » ..
وتناولت «أنا» البرقية بيد مرتعشة ، وقرأت فيها ما قاله لها فرونسكى ، تليه هذه العبارة : « الأمل ضئيل .. لكنى سأفعل كل شىء ممكن ومستحيل ! » ... فالتفتت إلى فرونسكى قائلة ، وقد تورد وجهها : « لقد ذكرت لك أمس أننى لم أعد أعبأ بحصولى على الطلاق ، ومن ثم لم يكن هناك داع لإخفاء البرقية عنى .. ثم أنى كنت أود ألا تعبأ أنت أيضاً بالطلاق ! » .

— إنى أعبأ به لأنى أحب استقرار الأمور !

— من أجل ماذا ؟

— ألا تعلمين من أجل ماذا ؟ من أجلك أنت ، ومن أجل أطفالك فى المستقبل !

— هذا شىء يدعو إلى الأسف !

وكانت مسألة الأطفال تلمس عصباً حساساً فى نفس أنا . وقد فسرت رغبة فرونسكى فى النسل بأنها دليل على أنه لا يقنع بها وبجمالها ! .. وما عتم هو أن أردف موضحاً : « أنا واثق بأن النصيب الأكبر من عصبيتك مرجعه إلى وضعنا الحالى المبهم ، غير المستقر ! » .

— هذا غير صحيح ، فلست أفهم كيف ترجع « عصبيتى » — كما تدعوها — إلى كونى خاضعة لسلطانك خضوعاً كاملا . وأى إبهام فى وضعنا الحالى ؟ بالعكس إنه ..

— يؤسفنى أنك لا تريدين أن تفهمى : الإبهام ، أو عدم

الاستقرار ، الذى أعنيه ناشىء من تصورك أنى حر ، فى وسعى تركك فى أى وقت !

— إذا كان هذا قصدك فلك أن تهدأ بالا ، فليس يعنينى البتة ما تعده لك أمك من صفقات الزواج ! ثم أنا لا أريد أن تكون لى صلة بأية امرأة متحجرة القلب ، سواء أكانت أمك أو غيرها !

— « أنا » .. أرجو ألا تتكلمى عن أمى فى غير احترام !

— المرأة التى لا يهديها قلبها إلى الاتجاه الذى فيه سعادة ابنها وشرفه ، تكون متحجرة القلب !

— أكرر رجائى إليك ألا تتحدثى بغير احترام عن أمى ، التى أحترمها !

— تقول ذلك بلسانك فقط ، أنت لا تحب أمك !

ونظرت إليه والكراهية تطفر من عينيها ، فأجابها وهو يحدجها بنظرة صارمة ، وفى صوت أعلى من المألوف :

— حتى لو صح هذا ، فإنك يجب ...

— يجب أن أتخذ قراراً فى الأمر ، وقد اتخذته فعلا !

وهمت بأن تغادر الحجرة .. ولكن حدث فى تلك اللحظة أن دخل صديقهما « ياشفين » فاضطرت للبقاء حيث هى ، قامعة فى صدرها عاصفة أحست أنها ستكون نقطة التحول فى حياتها ، وأنها قد تكون ذات نتائج وخيمة !

• • •

● كان ذلك اليـوم أول يوم ينقضى على العاشقين فى شجار متصل ، بل إنه كان تبادلا صريحاً للفتور الكامل بينهما ! .. وقد قضت « أنا » اليوم بطوله نهباً للشكوك والريب المخيفة ، تسائل نفسها عما إذا كان كل شىء قد انتهى ، أم ما يزال هناك أمـل فى تسوية ؟ .. وحين انقضى اليوم ولم يعد فرونسكى من الخارج ، مضت « أنا » إلى مخدعها تاركة له رسالة مع الخادم تقول فيها إنها أحست صداعاً اضطرها إلى أن تأوى إلى فراشها قبل عودته .. وفى المساء سمعت صوت عزبته تقف بالباب ، ثم سمعت دقتـه للجرس ، وخطواته ، وحديثه مع الخادم . لقد صدق ما قيل له عن اعتكافها ولم يبال بأن يتحقق منه أو يستفسر عنها ، بل مضى رأساً إلى مخدعه .. إذن فقد انتهى كل شىء ! ولاحت فى خاطرها — فى وضوح وحدة — فكرة الموت ، باعتباره الوسيلة الوحيدة التى تعيد بها حبها إلى قلبه ، وتنتقم منه ! .. لم يعد يهمها الآن أن تذهب أو لا تذهب إلى الريف ، أن تحصل أو لا تحصل على طلاق ! .. وإنما كل ما يشغلها الآن أن تعاقبه ! .. وحين صبت لنفسها الجرعة المألوفة من الدواء المحتوى على الأفيون خطر ببالها أنه يكفيها لكى تموت أن تجرع محتويات الزجاجة كلها . ما أسهل ذلك وأبسطه ! .. وبدأت تصور لنفسها فى لذة ، مبلغ الألم الذى سوف يقاسيه بعد موتها ، والندم الذى سيندمه ، والحب الذى سيريقه على ذكراها . بعد فوات الأوان ! .. ورقدت فى فراشها ، مفتوحة العينين ، ولم

تكن تضىء المخدع غير شمعة واحدة فى خريف عمرها ، فحدقت « أنا » فى الظلال المتماوجة على السقف وعادت تتخيل ما سوف يحسه حين لا تبقى منها غير ذكرى !

وحين نهضت فى الصباح ، عاودتها أحداث اليوم السابق ، وراحت تحدث نفسها : « فى بداية اليوم تشاجرنا ، كما فعلنا مرات من قبل . وفى المساء قلت إنى أشعر بصداع ، لكنه لم يأت ليرانى . وغداً سنسافر إلى الريف . يجب أن أراه وأعد العدة للسفر . » .. وإذ علمت أنه فى حجرة المكتب مضت إليه . وفيما هى تعبر الردهة سمعت صوت عربة ، فأطلت من النافذة .. وإذا بها ترى فتـاة حسناء ذات قبعة أنيقة تعطى تعليماتهـا للحوذى ، الذى صعد فدق الجرس ، وبعد قليل هبط فرونسكى السلم فصافح الفتاة ، التى أعطته طرداً صغيراً ، فابتسم وقال لها شيئاً ، ثم انطلقت العربة بها .. وعاد هو أدراجه إلى الداخل !

.. وفجأة انقشع الضباب الذى كان يغلف كل شىء فى وعى « أنا » ، وعادت أحداث الأمس تخز قلبها المريض بوخزات جديدة موجعة . فلم تفهم كيف فكرت منذ حين فى إذلال نفسها بمصالحته والبقاء معه تحت سقف واحد ! .. ومضت إليه لتعلن إليه عزمها ، فاستقبلها موضحاً : « إنها كانت مدام سوروكين وابنتها ، أحضرا لى من بيت أمى النقود والسندات التى لم أستطع الحصول عليها أمس . وعلى فكرة . كيف حالك ؟ هل ذهب عنك

الصداع ؟ » . فنظرت إليه صامتة ، وقد وقفت فى وسط الحجرة ، ولما لم تجب قطب جبينه قليلا ثم انكب على خطاب فى يده يقرأه .. فأعطته ظهرها واتجهت إلى الباب . وحين بلغته استوقفها قائلا : « سوف نسافر غداً ، أليس كذلك ؟ » .

— أنت ، لا أنا !

— « أنا » .. لا يمكن أن نستمر على هذا المنوال !

— أنت ، لا أنا !

— هذه حال لا تطاق !

— سوف تندم على كلامك !

.. ثم خلفته وخرجت لا تلوى على شىء ! وأفزعته اللهجة اليائسة التى نطقت بها عبارتها الأخيرة ، فقفز من مقعده ليلحق بها ، ثم أمعن الفكر فجلس ثانية ، وهو يعض شفته بأسنانه : « هذا التهديد المبتذل بشىء غامض بات يثيرنى . لقد جربت كل وسيلة ، ولم يبق غير عدم المبالاة .. فلأجرب هذه الخطة ! » .. ثم أعد عدته للسفر إلى الضاحية التى تقطنها أمه كى يحصل على توقيعها على بعض الأوراق !

ووقفت « أنا » ترقبه وهو يصعد إلى العربة ، ويضع ساقاً على ساق ثم يرتدى قفازيه ، وتختفى به العربة عند أول منعطف ! .. وهمست لنفسها : « لقد ذهب ! .. انتهى كل شىء ! » .. وعاودتها ذكرى الظلمة التى سادت مخدعها بالأمس حين انطفأت الشمعة ،

فملأ قلبها رعب بارد ، وشعرت بخوف من الوحدة ، فصاحت بصوت مسموع وهى تعبر الغرفة وتدق الجرس : « كلا ، هذا لا يمكن أن يكون ! » .. وحين أقبل الخادم سألته عن وجهة سيده ، فقال : « إنه ذاهب إلى حظائر جياده » ، فطلبت إليه أن ينتظر لحظة ثم جلست إلى منضدة فكتبت إلى فرونسكى هذه الكلمات : « كنت على خطأ ، عد ثانية . يجب أن أوضح لك الأمر . بحق السماء عد . إنى خائفة ! » ، ثم وضعت الورقة فى ظرف وكلفت الخادم بتسليمها إلى رسول يحملها فوراً إلى سيده ! .. ولبثت تعد الدقائق وتفكر ، قائلة لنفسها : « إنه سوف يعود . ولكن كيف يوضح ابتسامته للفتاة فى العربة ، وانفعاله وهو يتحدث إليها ؟ ولكن حتى لو لم يبرر موقفه فإنى سأصدقه . لأنى إذا لم أفعل فلن يبقى أمامى غير شىء واحد ، لست أجرؤ عليه ! » .. ونظرت إلى ساعتها . لقد مضت عشرون دقيقة . إنه قد تسلم الرسالة الآن ، وهو الآن عائد فى الطريق . بعد عشر دقائق يصل .. » ولكن ماذا لو لم يعد ؟ كلا ! هذا مستحيل ! .. ينبغى ألا يرانى دامعة العينين ، سأذهب لأغتسل .. هل هذبت شعرى ؟ لست أذكر ! » .. ومرت بيدها على شعرها ، فاطمأنت وعادت تنظر فى الساعة . إن موعد وصوله قد اقترب . واتجهت إلى النافذة . « كان يجب أن يكون قد وصل الآن .. ربما أخطأت فى حسابى ! » .

وعادت إلى حساب المسافة والزمن !

وأقبلت عربته أخيراً ، لكنه لم يكن فيها ، وصعد الرسول ليخبرها بأنه لم يدركه فى الحظائر .. كان قد رحل ! .. فهتفت به « أنا » : « أحمل الرسالة إلى دار والدته الكونتة ، فى ضيعتها .. وعد بالرد فوراً ! » .. ثم استطردت محدثة نفسها بعد انصراف الرسول : « ولكن ماذا أفعل فى انتظار عودته ؟ إنى أفقد عقلى لو بقيت وحدى . فلأذهب إلى دوللى ! وفى وسعى أن أبرق إليه أيضاً . » ، وتناولت ورقة كتبت عليها نص برقية إليه : « يجب أن أتحدث إليك .. عد فوراً ! » .. ثم مضت فارتدت قبعتها واستقلت العربة إلى منزل أسرة أوبلونسكى !

• • •

● حين غادرت « أنا » منزل دوللى كانت فى حالة نفسية أسوأ من حالتها حين دخلته .. فقد وجدت كيتى عند شقيقتها ، ولم تجد الفرصة أو الشجاعة لمفاتحة دوللى فى شىء ! وبالإضافة إلى عذابها السابق ، قاست لوناً آخر من المذلة ، فعندما واجهت كيتى تفاقم شعورها بأنها امرأة طريدة منبوذة ! .. ولم تكد تبلغ البيت حتى سألت الحارس فى لهفة : « أما من برقية لى ؟ » .. فسلمها برقية ، ففضتها وقرأت فيها : « لا أستطيع الحضور قبل الساعة العاشرة — فرونسكى » .. فاستيقظت فيها شهوة الانتقام ، ومضت تحدث نفسها : « إذن فأنا أعرف ما ينبغى أن أفعل . سأذهب إليه بنفسى وأصارحه بكل شىء ، قبل أن أختفى من حياته إلى الأبد ..

ما كرهت فى حياتى شخصاً كراهيتى الآن لهذا الرجل ! إنه جالس ولابد إلى أمه وفتاته « سوروكين » يتحدث فى هدوء ، ويسخر من عذابى ! نعم ، يجب أن أذهب إليه الآن ! » .. وتملكها شوق إلى الفرار بأسرع ما تستطيع من المشاعر التى قاستها فى هذا البيت اللعين . إن كل شىء فيه — الجدران ، والأثاث ، والخدم — يثير النفور والبغضاء ، ويجثم مثل ثقل فوق صدرها ! .. « نعم ، يجب أن أهرع إلى المحطة ، فإذا كان قد سبقنى بالقطار لحقت به فى القطار التالى ! » .

وأعدت حقيبة صغيرة وضعت فيها الأشياء الضرورية التى قد تلزمها لبضعة أيام فقط — ولو أنها رجحت أنها لن تعود إلى هذا البيت مرة أخرى ! — لكنها لم تضع أية خطة لما عساها أن تفعله بعد أن تشفى غليلها منه فى المحطة ، أو فى ضيعة أمه !

ووجدت نفسها فى المحطة ، تستقل قطار الضواحى إلى الضيعة ! ودق الجرس المؤذن بتحرك القطار ، واشتدت الجلبة ، والصياح ، والضحك .. وأثارت أصوات الضاحكين « أنا » : هل فى الدنيا شىء يسر به الإنسان ، بل يضحك له ؟ إنها لتود أن تصم أذنيها كى لا تسمع الضحكات .. ودوت صفارة القطار ، وفحيح البخار المحبوس ، وجلجلة السلاسل .. وتحركت أحجار الرصيف ، أو تحرك القطار بمحاذاتها .. ودرجت العجلات على القضبان فى نعومة ، وأطلت شمس الغروب من نافذة القطار ، وهزت نسمة خفيفة

ستائرها .. فعادت « أنا » تفكر فى أمرها : « إلى أين كنت قد وصلت فى تفكيرى ؟ إلى أنى لست أجد لحياتى مخرجاً ينتشلنى من تعاستى – لقد خلقنا جميعاً لنكون تعساء ، ونحن نعرف ذلك ، لكننا نفتن فى اختلاق الوسائل كى نخدع بعضنا بعضاً ! » .

ووصل القطار إلى المحطة التى تقصدها ، فنزلت « أنا » فى زحمة النازلين ، ثم ابتعدت عنهم كما يتجنب المرء أبرص ، وانتحت جانباً من الرصيف ، محاولة أن تدبر أمرها : ما الذى جاء بها إلى هنا ؟ وماذا تنوى أن تفعل حين تلقاه ، وتلقى أمه ، وتلقى كل من يعرفها من أهله فى الضيعة ؟ . وبدت لها الأمور التى رأتها معقولة سهلة أول الأمر ، وقد تعقدت وصارت مستحيلة ! .. ولا سيما وسط هذا القطيع الصاخب من البشر والحمالين الذين لا يريدون أن يدعوها فى سلام ! .. وخطر لها أن تستفسر من أحد الحمالين الذين تزاحموا عليها يعرضون خدماتهم ، هل رأى حوذياً يحمل رسالة من عند الكونت فرونسكى ؟ فأجابها الحمال متحمساً : « الكونت فرونسكى ؟ لقد وصلت عربته منذ لحظة لتستقبل الأميرة سوركين وابنتها ! » .. وفيما هى تكلم الحمال أقبل الحوذى الذى كانت أرسلته إلى فرونسكى حاملا رده عليها ، ووجهه يتهلل بشراً بنجاحه فى تأدية المهمة ! .. وفضت « أنا » الرسالة وقرأت فيها بخط ينم عن الإهمال : « آسف جداً لأن رسالتك لم تصلنى إلا الآن . سأعود فى العاشرة » .. فارتسمت على وجهها ابتسامة شريرة ، وحدثت

نفسها : « هذا ما توقعته ! » . ثم صرفت الحوذى فى صوت لاهث . وحدثت نفسها ، تخاطب القوة المجهولة التى نسجت عذابها : « كلا ، لن أدعك تستمرين فى تعذيبى ! » .

وأقفر الرصيف من الناس . فاتجهت نحو طرفه الأقصى وهى ما زالت تحدث نفسها : « يا إلهى ، إلى أين أذهب ؟ » .. وفجأة لاحت فى خاطرها ذكرى العامل الذى سحقه القطار يوم رأت فرونسكى لأول مرة . فأدركت ما ينبغى أن تفعل ! .. وفى خطوات سريعة خفيفة هبطت درجات السلم الصغيرة التى تؤدى من الرصيف إلى الشريط الحديدى ، ووقفت على قيد خطوة من قطار البضاعة الآتى فى الاتجاه المضاد ، تتطلع إلى الجزء الأسفل من العربات ، وتقيس بنظرها المسافة بين العجلات الأمامية والخلفية لكل عربة ، ثم حدثت نفسها وهى تنظر إلى الغبار وتراب الفحم الذى يكسو « الفلنكات » : « هناك .. فى الوسط تماماً .. سوف أعاقبه ، وأفر من الناس جميعاً ، ومن نفسى ! » .

وحاولت أن تلقى بنفسها تحت عجلات العربة الأولى ، حين مرت بمحاذاتها . لكن الحقيبة الحمراء التى حاولت أن تفلتها من يدها عاقتها عن انتهاز الفرصة فى اللحظة الملائمة .. فاضطرت إلى انتظار مرور العربة التالية . واعتراها شعور المقدم على القفز إلى حوض السباحة لأول مرة . فرسمت علامة الصليب .. وأعادت هذه الحركة المألوفة إلى وعيها سلسلة كاملة من ذكريات الصبا

والطفولة .. وفجأة انقشعت من أمامها الظلمة التى كانت تكتنف كل شىء ، ولاحت لها الحياة بكل متعها الماضية المشرقة ، لكنها لم تحول بصرها عن عجلات العربة الثانية .. وفى اللحظة التى حاذاها فيها الفراغ الفاصل بين العجلات الأمامية والخلفية ، تركت الحقيبة الحمراء تسقط من يدها .. وألقت بنفسها !

وأصابها رعب قاتل مما فعلت : « أين أنا ؟ ماذا أصنع ؟ ولماذا ؟ » . وحاولت أن تنهض ، أن تتراجع ، لكن شيئاً هائلا قاسياً صدم رأسها وألقاها على ظهرها ، فصاحت : « يا إلهى ، اغفر لى ! » .

وأحست أن أية مقاومة باتت عقيمة .. والنور الذى قرأت على هديه الكتاب الحافل بالمتاعب ، والزيف ، والأحزان ، والشرور .. توهج لحظة ، أبهى مما كان ، فأضاء فى وعيها كل ما كان غارقاً فى الظلام ، محجوباً عن بصيرتها .. ثم اختلج ، وبدأ يغيض ويتضاءل .. حتى انطفأ إلى الأبد !

« تمت »

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ــ ١٦٣ ــ ٠٨٠ ــ ٦



عزيزى القارئ :

فى هذه الطبعة المبسطة من رائعة (تولستوى) الخالدة ، تقرأ رواية (أنا كارنينا) بأسلوب جذاب ، يحتفظ بأجمل العبارات التى صاغها المؤلف فى النص الأصلى ، مع استبعاد التفصيلات الجافة التى لا تهم القارئ العربى .. فهى طبعة وسط بين الترجمة الكاملة وبين التلخيص ، إذ لا يخفى عليك أن الترجمة الكاملة لهذه الرواية الطويلة تستغرق ما لا يقل عن ألف صفحة من هذا القطع ، الأمر الذى يعد شاقًا بالنسبة للقارئ العربى ، الذى لا تعنيه التفصيلات ذات الصبغة المحلية الصِّرفة ، التى لا تهم سوى القارئ الروسى الملم بالأجواء التى تجرى فيها أحداث الرواية ، فى الزمان الذى تجرى فيه .. لذلك رأيت أن أترجم لك الرواية فى هذا القالب الذى يناسب القارئ العصرى ، وبالأسلوب المبسَّط الذى يتفق مع حاجة الشباب المتعطش إلى التزوُّد بروائع الآداب العالمية ، فى أنسب وأجمل صياغة عربية .

والله ولى التوفيق .



حلمى مراد

١٠٠ قرش